الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ وعلم الآثار

الإمارات البربرية الصغرى في جنوب الأندلس على عهد ملوك الطوائف

(القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب:

بوخاري عمر

تحت إشراف:

الدكتور عبد القادر بوباية

السنة الجامعية

1429-1430هـ/2008-2009م.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي   كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

جامعة وهران   قسم التاريخ وعلم الآثار

الإمارات البربرية الصغرى في جنوب الأندلس على عهد ملوك الطوائف

(القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب: تحت إشراف:

بوخاري عمر   الدكتور عبد القادر بوباية

السنة الجامعية

1429-1430هـ/2008-2009م.

المقدمة

المقدمـــــة:

ما إن أشرف القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي على نهايته حتى كانت بلاد الأندلس على موعد مع بداية مرحلة جديدة أكثر تعقيدا وتشابكا واضطرابا.

ففيها انفرط عقد الخلافة الأموية وتمزق النسيج الاجتماعي الذي فتكت به الخلافات والتبينات العصبية فارتسمت بذلك خريطة جديدة تتجاذبها في الواقع فئات متعددة أبرزها الارستقراطية العربية وموالي بني أمية وبقايا العامريين وإلى جانب هذه الفئات فئة البربر المكونة من ثلاث مجموعات

بربر الفتوح الأولى والعرب المتبربرين من بني حمود والعناصر البربرية التي انضافت إلى النسيج الاجتماعي الأندلسي أيام المنصور بن أبي عامر فهو الذي استكثرهم وأقحمهم في جيشه وخاض بهم دياجير حروبه وشكلوا ارستقراطية عسكرية متميزة مرهوبة الجانب ولم يقدر لهم الاندماج في المجتمع الأندلسي نظرا لحداثة قدومهم إلى الأندلس من ناحية وبسبب كراهية التي ناصبهم الأندلسيين إياها بفعل بطشهم في الفتنة القرطبية من ناحية أخرى.

وتوجسا من كل طارئ انزوى هؤلاء في منطقة الجنوب فبنو زيري الصنهاجي استولوا على غرناطة وبنو زناتة موضوع هذا البحث ومنهم بنو برزال الذين حكموا قرمونة ورندة وهي أقطاع بني أبي قرة من بني يفرن وأركش التي حكمها بنو خزرون وهي ليست دويلات بالمعروف بل هي أقرب ما تكون إلى وحدات إقطاعية أو عصبية الأسرة.

لقد عاشت هذه الإمارات حالة استنفار وعدم استقرار بسبب سجالات الحرب التي كانت بينهم وبين العباديين الذين كانو ا يستجلبوهم إلى أتون المواجهة التي جندلت فيها رؤوس أمرائهم في كل مرة إلى أن كانت نهايتهم على يد المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية.

هذا ورغم ما لقيه موضوع الطوائف من اهتمام الباحثين إلا أنهم لم يولوا في اعتقادي هذه الإمارات حقها بالرغم من إسهاماتها في معادلة العلاقات وإن وجدت فهي ومضات وإيماءات في ثنايا بحوثهم اللهم إلا ما قام به الأستاذ أرزقي محمد فراد من أفراد جزء من بحثه لهذه الطائفة من البربر وهي عبارة عن رسالة ماجستير موسوعة القوى المغربية في الأندلس.

ولعل عزوفهم عن الخوض فيه نابع من شح المادةن في المصادر المتوفرة لديهم كما أنني لا أخفي حقيقة أني ترددت في بداية الطريق من ركوب صعاب هذا الموضوع وانتابتني هواجس توسط الطريق ولولى أن تداركتني توجيهات أستاذتي وتشجيعاتهم وعلى رأسهم الأستاذ المشرف لكنت عدلت عنه وعانقت موضوعا أخر.

أما عن الصعوبات التي واجهتني وأنا بصدد إعداد هذا البحث فأنا لا أحب أن أتكلم عن الصعوبات الخارجية التي تصادف كل باحث يسلك سلوك البحث العلمي الجاد فهي صعوبات تحتاج في تقدير إلى فصل ينضاف إلى موضوع الرسالة يبرز فيه الباحث همومه ومعاناته مع البحث.

إن الصعوبات التي واجهتها تكمن بالدرجة الأولى في ندرة المادة في ثنايا المصادر المتوفرة لدي فلذلك رحت أجمع كل شاردة وواردة حول هذه القبائل المثلومة الحظ في وجود وفي أخبار من ذكرها.

هذا وتتمحور إشكالية الموضوع في الإجابة عن التساؤلات التالية:

1/ ما هي الدوافع الرئيسية التي كانت وراء استجلاب المنصور لهذه الفئة الزناتية من البربر وما هي ظروف جوازهم نحو الأندلس.

2/ ما هو دورهم في الفتنة القرطبية وما مدى تأثيرها عليهم.

3/ وما هي أهم المحطات في علاقتهم مع ملوك الطوائف وفي مقدمتهم بنو عباد وما هو دور عامل العصبية في تحريك هذه العلاقات.

4/ ما هو مصير هذه الإمارات وما هي الكيفية التي أدت إلى أفول نجمهم.

أما فيما يتعلق بالخطة المتبعة فقد جاء هيكل هذا البحث مقسما إلى ثلاثة فصول ومدخل بالإضافة إلى التوطئة والخاتمة.

أما المدخل فقد تناولت فيه الأوضاع السائدة في الأندلس قبل نشوب الفتنة القرطبية والزمر الوافدة إلى الأندلس من البربر إبان هذه المرحلة ومكانتهم في الإصلاحات العسكرية التي رفع لوائها المنصور بن أبي عامر ودورهم في الفتنة القرطبية كأطراف فاعلة.

فيما يخص الفصول فقد تطرقت في الفصل الأول إلى بني برزال في قرمونة ولقد أوليته عناية خاصة لما لهذه القبيلة من مساهمات وحضور قوي في العلاقات السياسية في العدوتين الأندلسية والمغربية بدءا من ظروف جوازهم نحو الأندلس إلى أفول نجمهم على يد بني عباد أصحاب إشبيلية.

ولقد خصصت الفصل الثاني لإمارة بني يفرن في رندة وقد تعرضت في بداية الفصل غلى مرحلة تاريخية هامة من تاريخهم وهي مرحلة الفعل السياسي في بلاد المغرب أبرزت فيها علاقتهم بالخلافة قبل انقسامهم وجواز فئة منهم الأندلس كما بينت في حدود ما أمكنني دورهم في الفتنة القرطبية وعلاقتهم بملوك الطوائف وإمارة بني عباد.

وفي الفصل الثالث فقد دمجت بين إمارتي بني خزرون وبني دمر نظرا لقلة حضورهم في العلاقات بين ملوك الطوائف إلا أنني لم ألو جهد في تتبع أثرهم حيث أبرزت دورهما في الفتنة القرطبية وظروف جوازهم نحو الأندلس وعلاقتهم مع إمارات الطوائف وعلى وجه الأخص بنو عباد الذين استولوا على هاتين الإمارتين.

هذا وأنهيت الموضوع بخاتمة ضمنتها سلسلة من النتائج التي استخلصتها من مضامين هذا البحث وأتبعتها بملاحق تضم خرائط ونصوص توضيحية وجرى التعامل مع

المادة العلمية لهذا البحث وفق منهج علمي متبع في مثل هذه الدراسة وهو المنهج التاريخي المقارن الذي يقوم على الرصد والجمع ثم المناقشة والتحليل.

عرض وتحليل لأهم مصادر البحث:

من الأهمية بمكان وأنا أقدم لموضوع هذه الرسالة أن أستعرض المصادر التي صاحبتني منذ أن أدلهمت خطوب هذا البحث إلى أن أشرفت على نهايته كما أني لا أجحد استفادتي من المراجع الحديثة والأجنبية والتي كثيرا ما اهتديت بواسطتها إلى أمهات المصادر.

هذا وسوف يقتصر تحليلي على أهم المصادر التي اعتمدت عليها في جمع مادة هذا البحث وأستهلها بـ:

1- مفاخر البربر

لأبي عبيد الله صالح بن عبد الحليم الإيلاني المصمودي الذي كان بقيد الحياة عام 712هـ-1312م.

يعد هذا الكتاب في نظري خروجا عن مألوف الكتابة التاريخية التي استطاع صاحبها أن يبرز مآثر الطائفة البربرية ومفاخرها وقد أعطى المؤلف مبرر الكتابة في هذا الموضوع من خلال ما أورده في مقدمة كتابه حيث يقول: "إنه لما كانت البربر عند كثير من جهلة الناس أخسّ الأمم وأجهلها، وأعراها من الفضائل، وأبعدها عن المكارم، رأيت أن أذكر ملوكهم في الإسلام ورؤساءهم وثوارهم وأنسابهم وبعض أعلامهم وتواريخ أزمانهم"[1].

وعلى أية حال فإن كتاب "مفاخر البربر" يعتبر وثيقة تاريخية في غاية الأهمية، تخصّ بلاد المغرب الإسلامي، حيث يرتكز المؤلف في كتابه على أنساب البربر وعلمائهم،

1- مجهول– مفاخر البربر– دراسة تحقيق عبد القادر بوباية– دار أبي رقراق للطباعة والنشر- الربلط- ط1-2005م- ص 91.

حيث يترجم لاثنين وسبعين عالما من أصول بربرية [1]، كما تحدث عن الثوار والرؤساء البربر الذين ثاروا بالعدوتين المغربية والأندلسية، بالإضافة إلى فصول هامة عن الصراع الدائر بين الأمويين والفاطميين ببلاد المغرب وما انجر عنه من انعكاسات على القبائل الموالية لكل منهما فمن خلال هذه النصوص وغيرها تمكنت من معرفة الجذور العرقية لبعض هذه القبائل البربرية وأوضاعها السياسية بالمغرب والظروف التي أدت إلى انتقالها إلى الأندلس والعلاقات السياسية التي كانت قائمة بين القبائل البربرية بالمغرب والدولة الأموية بالأندلس خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين كما أفدت كثيرا من التفاصيل التي أوردها المؤلف حول بني حمود وعن أحوالهم السياسية بالمغرب قبل وبعد جوازهم إلى الأندلس وعن علاقة بني حمود بالإمارات الصغرى سواء في المغرب أو الأندلس.

كما زودني هذا المصدر بمعلومات قيمة عن أصول بني برزال والظروف الحرجة التي أدت إلى انتقالهم إلى الأندلس وكذلك بني يفرن وصراعهم مع بني زيري في بلاد المغرب وكيف تمكنوا من الاستقلال برندة بعد اندلاع الفتنة القرطبية وكذلك بني دمر أصحاب مرور.

2- المقتبس في أخبار الأندلس

لابن حيان القرطبي أبو مروان بن خلف بن حسين ابن حيان المتوفى سنة 469هـ/1076م، أجمع الباحثون على أن ابن حيان هو شيخ مؤرخي الأندلس وصاحب لواء التاريخ ذروة عصر ملوك الطوائف حيث عايش ما حل بالعدجوة الأندلسية شاهدة ومشاهدة وقد اقتبس مادة كتابه من مؤلفات من سبقه من المؤرخين ومما يزيد في أهمية ما كتبه أنه كان لا يعتمد كذبا فيما يحكيه في تاريخه إذ كان أسلوبه في الكتابة يعتمد على المعاينة والضبط والتحري إذ كان يخضع ما يبلغه إلى إمعان النظرة التحليلية الصائبة ولم يكن مجرد ناقل فقط بل كان ذا ملكة نقدية بارعة يبدي رأيه في الأحداث ويبحث عن أسبابها وحيثياتها ثم ينقلها عن علم ودراية وفهم وذكاء.

[1] - عبد القادر بوباية- المرجع السابق- ص77.

ومع هذا فإن نزعته الأموية وكراهيته للعناصر المغربية ظاهرة في كتاباته التاريخية إذ يصفهم بالهمجية ويحملهم تبعات الفتنة القرطبية.

هذا ويتكون كتاب المقتبس - نسبة إلى اقتباس مادة الكتاب من مؤلفات السابقين- وهو يتألف من عشرة أجزاء، حفظت لنا الأيام منها خمس قطع منفصلة وهي:

القطعة الأولى: تحتوي على فترة الحكم الربضي كاملة (180-206هـ) ومعظم أيام ابنه عبد الرحمن الثاني (206-232هـ).

القطعة الثانية: تبدأ حيث تنتهي القطعة السابقة أي من سنة 232 هـ إلى سنة 237هـ، وهي تستوعب الأيام الأخيرة من فترة عبد الرحمن الثاني.

القطعة الثالثة: تتناول أيام الأمير عبد الله بن محمد (275-300هـ).

القطعة الرابعة: تتناول فترة عبد الرحمن الثالث.

القطعة الخامسة: وتعالج خمس سنوات ناقصة من أيام الحكم المستنصر بالله (360-364هـ).

هذا وقد استفدت كثيرا من النصوص التي أوردها ابن حيان خصوصا القطعة الخامسة التي أفادتني في جواز بني برزال نحو الأندلس والأحداث التي دارت رحاها في بلاد المغرب.

3- كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام

لمؤلفه محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي المعروف بلسان الدين ابن الخطيب المتوفى بمدينة فاس سنة 776هـ-1374م.

ألف ابن الخطيب كتابه هذا بمناسبة بيعة سلطان مريني لم يبلغ الحلم إلا أنه لم يقتصر على هذه الفئة وتعداها ذكر الدول الإسلامية في المشرق والمغرب، ورتبه على ثلاثة أجزاء.

القسم الأول: ويتناول فيه المشرق الإسلامي من عهد الرسول صلى الله عليه وسلّم إلى عصر دولة المماليك بمصر.

القسم الثاني: ويتعرض فيه إلى تاريخ الأندلس من الفتح إلى عصر المؤلف.

القسم الثالث: ويعرض فيه تاريخ بلاد المغرب إلى بداية عصر الموحدين.

وعليه فإني اعتمدت عليه في جميع مراحل البحث باعتبار أن المادة التاريخية التي أوردها ابن الخطيب قد ساعدتني في الحكم على طبيعة العلاقات السياسية بين الأندلسيين والبربر في عصر الطوائف كما ساعدني على استنباط ما للعصبية من دور فعال في تقرير العلاقات السياسية بين الطائفتين الأندلسية والبربرية.

4- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

للعلامة ابن خلدون، وهو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي المتوفى عام 808هـ/1406م.

اشتهر ابن خلدون بمصنفه الموسوم بـ "ديوان العبر"، وهو ينقسم حسب المواضيع التي تناولها إلى أربعة أقسام:

القسم الأول : وهو المقدمة التي كتبها بقلعة بني سلامة وعالج فيها الظاهرة الاجتماعية بجميع جوانبها وأبعادها.

القسم الثاني: تناول فيه أخبار العرب وأصولهم وأجيالهم ومن عاصرهم من الأمم والشعوب.

القسم الثالث: وخصّصه لتاريخ البربر وأجيالهم، وما كان لهم ببلاد المغرب.

القسم الرابع: وعنوانه التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا.

ومن خلال هذا المصدر عرفت على المجموعات الوافدة من البربر على الأندلس والظروف التي أحاطت بهذا الجواز كما أفادني في التعرف على الأصول العرقية لبعض القبائل البربرية كما أنني اعتمدت عليه في الصراع القائم بين بني عباد وبني برزال وسائر الدويلات البربرية بجنوب الأندلس.

5- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب

ابن عذاري المراكشي وهو أبو العباس أحمد بن محمد كان بقيد الحياة (712هـ-1312م) وهو مؤرخ مغربي عاش في عهد الدولة الموحدية، ويعد كتابه "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" من أهم مصادر تاريخ الغرب الإسلامي على الإطلاق لما يتضمنه من معلومات ذات قيمة تاريخية معاصرة لأحداث البحث عدت عليها يد الدهر، ولم يبق لها أثر إلا متونا استقاها المؤلف من بطونها مثل كتاب الرقيق القيرواني والورّاق وابن حيان وكتاب العبر لابن الفياض، ولهذا السبب جاء كتابه حافلا بمعلومات تاريخية قيمة عز نظيرها عند غيره من المؤرخين، والكتاب يتناول تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح حتى بداية عصر بني مرين فهو أقرب ما يكون إلى التكامل على الرغم من تأخره النسبي إذ كان في صدد تأليفه عام 712هـ، ويعتبر من المصادر المهمة في دراسة تاريخ الأندلس والمغرب، ومن أكثرها جدارة بالثقة[1].

وقد أفاد البحث في جميع مراحله ولا أكون مبالغا إذا قلت كان لي ضلا ضليلا بل كان أتبع خاصة الجزء الثالث الذي أحد البحث بمعلومات قيمة لم أجد لبعضها أثرا في مصادر أخرى خاصة الأحداث المتعلقة بالإمارتين بني دمر وبني خزرون.

ويتألف كتابه من خمسة أجزاء هي:

أ- الجزء الأول، ويتناول فيه المؤلف تاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى القرن الرابع الهجري.

ب- الجزء الثاني، ويتناول فيه المؤلف تاريخ الأندلس من نهاية القرن الرابع الهجري (أخبار هشام المؤيد بالله والمنصور محمد بن أبي عامر).

ج- الجزء الثالث، يخصصه المؤلف إلى مرحلة حاسمة في تاريخ الأندلس عرفت بعهد ملوك الطوائف أي من حجابة المظفر عبد الملك بن محمد بن أبي عامر إلى آخر ملوك الطوائف.

---

[1]- رضا هادي عباس الأندلسي – محاضرات في تاريخ والحضارة- منشورات إلجا فاليتا – 1998م- ص62/ محمد المنوني- المصادر العربية لتاريخ المغرب- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الرباط1983م- ج1 ص65.

د- الجزء الرابع، ويخصّصه لتاريخ دولة المرابطين، وينتهي عند ولاية العهد لتاشفين بن علي.

هـ- الجزء الخامس، ويتناول فيه عهد الموحدين، ويوقف يراعه عند بداية دولة بني مرين والكتاب في جملته خزان لا ينضب معينه لكل من رام تاريخ المغرب والأندلس في العصر الوسيط.

<u>كتب التراجم:</u>

اعتمدت على جانب المصادر التاريخية على كتب التراجم والطبقات التي استطعت بفضلها أن أصل إلى بعض الخصوصيات التي تتغاضى عنها كتب التاريخ العامة في حياة الأمراء والملوك والحجاب وما إلى ذلك ممن كان لهم قصب السبق في إدارة شؤون البلاد وفي مقدمتها.

1- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس

للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي المتوفى ببغداد عام 488هـ/1095م، وهو من تلاميذ ابن حزم، حيث يورد في كتابه جملة من تراجم أعلام الأندلس والطارئين عليها، وبخاصة منهم المغاربة.

وعن دافعه إلى تأليف الكتاب يقول الحميدي: "لما وصلت إلى بغداد وحصلت من إفادته على أفضل مستفاد، نبهني على أن أجمع ما يحضرني من أسماء رواة الحديث بالأندلس، وأهل الفقه والأدب، وذوي النباهة والشعر، ومن له ذكر منهم، أو ممن دخل إليهم، أو خرج عنهم، في معنى من معاني العلم والفضل أو الرياسة والحرب"[1].

وبالرغم من بعده عن مكان المطلوب، وقلة ما صحبه من الغرض المرغوب؛ فإنه تمكن من تأليف واحد من أهم كتب التراجم وأكثرها فائدة، وقد بلغ عدد المترجم لهم في كتاب جذوة المقتبس 988 علما من علماء وفقهاء العدوة الأندلسية أو الغرباء الذين دخلوا الأندلس واستقروا بها.

1- أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس- تحقيق صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية- بيروت- ط 1- 1425هـ/2004م- ص 17.

وقد استفدت من مقدمته التي خصصها لانهيار الخلافة الأموية بالأندلس في نهاية القرن الرابع الهجري وما نجم عن ذلك من فوضى ثم انقسام الأندلس إلى عدة طوائف كما أفدت منه من ترجم لهم من أعلام القرن الخامس الهجري.

2- الحلة السيراء

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الآبار، المتوفى بتونس عام 658هـ/1260م.

يعد ابن الآبار من أكبر مصنفي المعاجم والتراجم لرجال الأندلس والمغرب كان كاتبا لأمراء الموحدين بالأندلس وقد مكنته هذه الوظيفة من الوقوف على هذه الوثائق.

تميز عن غيره ممن كتبوا في التراجم في طريقة معالجة موضوعه حيث رتب معلوماته على أساس الترتيب الزمني بينما رتب الكتاب الآخرون ذلك على أساس الحروف الأبجدية، وهو ما يسهل مهمة الباحث، ومما يزيد في أهمية الكتاب في نقله عن ابن حيان، وهو ما ساعد على حفظ الكثير من تراث هذا الأخير.

وقد ترجم ابن الآبار الكثير من الأمراء والوزراء وممن نبغ في الكتابة والشعر من الأعيان والعلماء، وتغطي تراجم هؤلاء الفترة الممتدة من المائة الهجرية الأولى إلى النصف الأول من المائة السابعة.

هذا وقد أفاد البحث في ترجمة العديد من الشخصيات التي صنعت الأحداث في جنوب الأندلس في عهد ملوك الطوائف.

الكتب الأدبية:

1- جمهرة أنسلب العرب

لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي المتوفى سنة 456هـ-1064م في بادية لبلة بالقرب من إشبيلية.

ينحدر ابن حزم من أسرة إسبانية الأصل، وكان أبوه أحمد وزيرا للمنصور بن أبي عامر، وعندما إنهارت أركان الخلافة الأموية بقرطبة نفي ابن حزم إلى مدينة المرية ثم إلى مدينة شاطبة في شرق الأندلس.

يعد كتابه "الجمهرة" واحدا من المصنفات الهامة في مجال الأنساب حيث غدا مرجعا رئيسيا لكل من كتب في الأنساب والتاريخ والفرق.

حيث سجل فيه المؤلف أنساب القبائل العربية الثلاث، وهي عدنان وقحطان وقضاعة، ثم ألحق بها ذيولا من بينها نسب البربر، وبيوتات البربر بالأندلس.

وقد أمدني الكتاب بالتعريف بنسب البربر من بني برزال وبني يفرن وبني دمر كما أفادني في تحديد النحلة الدينية لهذه القبائل.

2- طوق الحمامة في الألفة والألاّف

ألفه ابن حزم خلال زمن الفتنة 410هـ وهي رسالة يتعرض فيها إلى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه.

إلا أن هناك الكثير من الباحثين على اختلاف مشاربهم يغترقون من هذا الجانب فقط، بيد أنهم يغفلون على ما احتواه من أخبار هامة في تاريخ بلاد الأندلس.

3- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

لمؤلفه ابن بسام الشنتريني أبو الحسن علي المتوفى 542هـ/1148م حيث يعد كتابه من أهم المصادر التاريخية وقد اعتمدت عليه اعتمادا خاصا في دراسة موضوع بحثي ويرجع السبب في ذلك إلى النقول البالغة الأهمية التي سجلها في سياق تراجمه لأدباء الأندلس وشعرائهم زمن الفتنة من مصادر معاصرة لم تصل إلينا أهمها المتين وكتاب "البطشة الكبرى" للمؤرخ القرطبي ابن حيان.

هذا ومن خلال بعض التراجم التي ترجم لها ابن بسام تمكنت من استخراج ما يفيد البحث من أحداث لها صلة بالموضوع كما أفادني هذا المصدر في معرفة سياسة بني عامر

في أصناع البربر ومعرفة التفاصيل عن الفتنة القرطبية ودور البربر فيها وكذا معرفة الأخبار السياسية لبعض دويلات الطوائف.

فمن خلال المادة التاريخية التي زودنا بها ابن بسام توصلت إلى معرفة العلاقات السياسية التي قامت بين الطائفة الأندلسية والطائفة البربرية كعلاقة بني عباد ببني زيري وبني برزال وباقي الدويلات البربرية بالجنوب كما تمكنت من الوصول ومن خلال النصوص التي أوردها ابن بسام غلى معرفة دور هذه الإمارات التي أنا بصدد دراستها في التحالفات القائمة في المنطقة الجنوبية مثل معركة بابرة التي دارت رحاها بين بني عباد وبني الأفطس المتحالفين مع بني برزال[1].

ولقد أسعفتني المادة التاريخية التي زودنا بها ابن بسام في استنباط الدور الذي قامت به العصبية في تقرير العلاقات السياسية بين الأندلسيين والبربر في جنوب الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف.

4- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب

لأبي العباس أحمد بن محمد بن العباس بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد الشهير بالمقّري التلمساني المتوفى سنة 1041هـ/1631م.

يعد هذا الكتاب خزانا للحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية، ويحتوي على تراجم الرجال في الأندلس، واسهاماتهم الفكرية والسياسية كما يعتبر مصدرا أساسيا لجميع الباحثين في تاريخ الأندلس والمغرب2.

ومما لا خلاف فيه أن السبب الذي دفع المقري إلى تأليف هذه الموسوعة هو شغفه الكبير بالأندلس من جهة، وحبه لكبير شعرائها وأدبائها ممن ذاع صيتهم في أصقاع العالم الإسلامي كما أن هيامه بالأديب والمؤرخ الكبير لسان الدين ابن الخطيب كان هو الآخر من بين ما دفعه لإنجاز هذا المصنف.

---

[1] - ابن بسام أبو الحسن- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة- تحقيق مصطفى البدري- دار الكتب العلمية 1998م- ج1 ص238.

2 -رضا هادي عباس-الأندلس- ص 67-69.

وقد أفادني الكتاب في جميع مراحل البحث خصوصا في الجزء المتعلق بأحداث الفتنة فلعل انشغاله بالمآثر الحضارية لهذا البلد جعلته يستكف عن ذكر الأحداث الأليمة التي منيت بها الأندلس.

المصادر الجغرافية:

1- كتلب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك

لمؤلفه أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي المتوفى سنة 478هـ-1085م.

للأسف لم تصلنا من هذا المؤلف سوى بعض النصوص المتعلقة بالأندلس، والتي تعتبر من أحسن ما نشر من الأصول الأندلسية، حيث يشتمل على ذكر كور عديدة مصحوبة بتفاصيل تاريخية فهو عند ذكر المكان يسر ما يتصل به من أحداث تاريخية وعلى الرغم من اختصارها إلا أنها ذات أهمية بالغة[1].

ويبقى هذا الكتاب من أجود الكتب وأحسنها في الحديث عن الثغور الإسلامية وعن الأسر المستقلة بها.

ومن هنا كان كتابه ذا أهمية كبيرة بالنسبة لبحثي حيث اهتديت به أثناء التعريف بالكور إلى أحداث تاريخية افتقدتها في العديد من المصادر فعلى سبيل المثال فهو عندما تحدث عن مدينة رندة ذكر ثورة أهلها على بني يفرن ودعوا إلى المعتضد بن عباد[2].

2- كتلب الروض المعطار في خبر الأقطار

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن عبد المنعم الحميري التونسي المتوفى عام 726هـ/1326م.

1

2

بين المؤلف في مقدمة كتابه حدود الخطة التي التزم بها في تأليفه؛ فقد أراد أن يصنع معجما جغرافيا مرتبا على حروف المعجم ليسهل على الطالب كشف اسم الموضوع الذي يريده، ولما كان استقصاء المواضع جميعا أمرا عسيرا؛ فقد نصب عينيه أن يكون المكان مشهدا ومما اتصل به "قصته أو حكمه أو خبر ظريف"1.

كذلك فقد جعل الإيجاز وسيلته في خطته في هذا الكتاب هذا وقد كان الحميري وفيا لجانب كبير من هذه الخطة فهو حقا قد صنف معجما جغرافيا تاريخيا أو بالأحرى معجما تاريخيا جعل الجغرافيا مدخلا إليه.

وقد أفادني إفادة بالغة وذلك في تحقيق الكثير من الأماكن الواقعة في منطقة جنوب الأندلس.

1

الفصل التمهيدي

عندما تولى الحكم المستنصر 350-366هـ/961-976م عرش أسلافه لم يكن البربر قد اخترقوا جيش الخلافة ولا حتى المناصب الحساسة في الدولة بسبب سياسة التوجس والحذر التي تبناها والده عبد الرحمن الناصر 300-350هـ/961-1009م، حيث اقتصر على تجنيد الغوغاء والأغفال من عامة البربر الذين ليس لهم من ملكات الالتآم والتمرد لتهديد أمن واستقرار الخلافة الأموية.

يقول ابن حيان: "لا يستخدم من البربر إلا أرذالهم وعبدانهم من أشابتهم وأساودهم موقعا عليهم اسم الطنجيين مقتصرا بهم على أدنى الملاحق بهم على أقل الرواتب مصرفا لهم في أشق الخدمة"[1].

وليس هناك تعليل –حسب ظني- لهذه السياسة إلا لكون عبد الرحمن الناصر كان لا يثق بالعناصر البربرية التي طالما شقت عصا الطاعة[2].

لذلك لم يجرؤ الحكم المستنصر على ابتداع سياسة جديدة تجاه البربر وظل حريصا –إلى حين- على عدم خرق القواعد التي أرساها والده واستمر على نفس السياسة سواء فيما يتعلق بالحدود أو بالنسبة لشؤون المنطقة الغربية من المغرب[3].

يقول ابن حيان: "وأنهى خلفه ابنه الخليفة الحكم في امتثال ذلك صدر دولته"[4]، ومما يدل على امتثال سياسة والده أنه سار ذات يوم بموكبه نحو الزهراء فوقعت عينه على غلام له يركب فرس بسرج عدوي (مغربي) الصنعة فامتعض الحكم لذلك فأنكر على الغلام إنكارا شديدا وأمر بمعاقبة الغلام وإحراق السرج[5].

وظل الحكم المستنصر على هذه الحال في معاملته مع البربر إلى أن كانت الحرب مع بني محمد الحسنين (الأدارسة) فرأى منهم ما أقر عينه.

---

[1] - ابن حيان أبو مروان حيان بن خلف- المقتبس في أخبار بلاد الأندلس- تحقيق صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية- 2006م- ص148.

[2] - عبد القادر بوباية- البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري- رسالة دكتوراه لم تطبع بعد- كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية- جامعة وهران 2002/2001م- ص115.

[3] - ليفي بروفنسال- تاريخ إسبانيا الإسلامية- ترجمة إيميليو جارثيا جومث إلى الإسبانية وعبد الرؤوف التميمي إلى اللغة العربية- المجلس الأعلى للثقافة 2000م- ص430.

[4] - ابن حيان- نفسه- ص148.

[5] - ابن حيان- المصدر السابق- ص148.

يذهب الدكتور عبد القادر بوباية أن التغير الذي طرأ على سياسة الحكم جاء عقب الحروب التي دارت رحاها بين جيش الخلافة والبربر بقيادة الحسن بن جنون[1] وهو رأي ابن حيان[2].

غير أنني أرى تواضعا أن هذا التحول بدأ مع وصول البربر إلى المناصب الحساسة في دولة الحكم الإدارية منها والعسكرية كما كان لإشراف عثمان بن نصر[3] وهو من بربر بلنسية على تربية الحكم المستنصر[4] أثر كبير على هذا التحول حيث قام الحكم بتعيين جعفر بن عثمان المصحفي وهو ابن مربيه عثمان بن نصر كاتبا له ووزيرا ثم عينه في منصب الحجابة وهو أعلى المناصب التي يرومها الساسة والمقربين[5].

كما أن هناك عامل آخر لا يمكن إغفاله وهو الانتصار الذي أحرزه جعفر ويحي ابني علي بن حمود المعروف بالأندلسي على قوات زيري بن مناد الصنهاجي حيث دارت بين الفريقين معركة ضارية في رمضان 360هـ/970م عند وادي ملوية على مشارف المغرب الأقصى انتهت بهزيمة صنهاجة وقتل زيري ومعظم رجاله واستيلاء الزناتيين على معسكره[6] كما سأبين ذلك لاحقا.

وأيا ما كان الأمر فإن البربر قد تبوؤوا مكانة محترمة لدى الحكم المستنصر يقول ابن حيان: "وسبق جعفر ويحي ابنيه وذويهما بالعبور إلى أرض الأندلس مهديين رأس زيري خالعين للدعوة الشيعية متقلدين للدعوة الأموية الجماعية وما جرى لهما لدى الحكم من قبول ورفعة"[7].

---

[1] - عبد القادر بوباية- نفس المرجع- ص120.

[2] - ابن حيان- نفسه- ص148.

[3] - عثمان بن نصر: ابن عبد الله بن حميد بن تسلمة بن عباد بن يونس القيسي المصحفي المؤدب من أهل قرطبة كان ذا سمت وعدالة وهو الد الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي توفي يوم الإثنين من ذي الحجة سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وهو ابن اثنتين وستين سنة، ابن الفرضي أبو الوليد- تاريخ علماء الأندلس- تحقيق صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية 2006- ص271.

[4] - ابن الفرضي- نفسه- ص271/ ليفي برفنسال- المرجع السابق- ص

[5] - ليفي بروفنسال- المرجع السابق- ص433/ أرزقي محمد فراد- القوى المغربية في الأندلس- ديوان المطبوعات الجامعية- ص10.

[6] - ابن حيان– المصدر السابق- ص18/ ابن عذاري المراكشي- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- تحقيق ليفي بروفنسال- دار الثقافة- ج2 ص342.

[7] - ابن حيان- نفسه- ص22.

صحيح أن الحروب التي اشتعلت بين جيش الخلافة والبربر بقيادة الحسن بن جنون (كنون) كانت بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير لكن تغير موقف الحكم لم يتم بهذه الفجائية التي أشار إليها الدكتور عبد القادر بوباية.

لقد تسن للحكم أن يقف على شدة مراس البربر وقوة شكيمتهم يقول ابن حيان: "فلقي من صدق مراس رجالهم وشدة بأسهم على قلة عددهم ما ملأوا به عباب سيله ومارسوا برعالهم[1] ألفاف كراديسه فصابروا جلادهم وقاوموا قراعهم وأبروا في بعض المواطن عليهم حتى لقتلوا ابن طملس القائد الجليل أول ناهد بالجيوش إليهم في طائفة من حماة الجند أشجو فيه الخليفة الحكم وحرقوه"[2].

ومهما يكن من أمر فإن الحكم المستنصر أدرك بحصافة عقله وبعد نظره أن علاقته بالمغاربة متوقفة طرا على نوع العلاقات بين المغاربة والفاطميين وأصبح الشغل الشاغل لديه هو درء خطر الفاطميين بشتى الوسائل[3] غير أن هذه السياسة سرعان ما اصطدمت بمصالح أمراء الأدارسة الذين ظلوا حرصين على استعادة ملكهم الغابر في هذه النواحي الشمالية من المغرب[4].

وعندما أعلن الحسن بن قنون مبايعته للدعوة الشيعية بعد الانتصار الكاسح الذي أحرزه بلكين بن مناد[5] وملك المغرب بأسره فكان الحسن بن قنون أول من سارع إلى بيعته[6] يقول ابن الخطيب: "واتصلت مشايعته –أي الحسن بن جنون- للمروانية وتمسك بدعوتهم غلى أن ولى أمر إفريقية بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي فتحرك غلى المغرب حركته الشهيرة التي استأصل فيها ملوك زناتة وقطع دعوة بني أمية من

[1] - رعالهم جمع الرعيل الجماعة القليلة من الرجال أو الخيل أو التي تتقدم غيرها والكراديس الطائفة العظيمة من الخيل والجيش

[2] - نفسه- ص149.

[3] - عبد العزيز فيلالي- العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب- دار هومه 2007م- ص214.

[4] - أحمد مختار العبادي- في تاريخ المغرب والأندلس- مؤسسة الثقافة الجامعية- ص230.

[5] - بلكين بن زيري بن مناد المسمى يوسف والمكنى بأبي الفتوح والملقب بسيف العزيز بالله وهو من هزم زناتة واستأصل شأفتها وفتح معاقلهم ووكل من قبل أبيه زيري بن مناد بتأسيس مدن الجزائر ومليانة والمدية، ابن الخطيب لسان الدين- تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط- تحقيق أحمد مختار العبادي والاستاذ محمد إبراهيم الكتاني- دار الكتاب- 1964م- ص221/ الهادي روجي إدريس- الدولة الصنهاجية- ترجمة حمادي الساحلي- دار الغرب الإسلامي 1992م- ج1 ص60.

[6] - ابن أبي زرع الفاسي- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- دار المصور للطباعة 1972م- ص91.

المغرب وقتل أولياءهم وأخذ البيعة لمعد إسماعيل كما فعل جوهر قبله وكان الحسن بن جنون هذا أول من سارع إلى بيعة الشيعة ونصرة بلقين"[1].

وعلى عجل بادر الحكم بتعبئة الجيش لغزو بلاد المغرب لمقاتلة الثائر الحسن بن جنون وأوكل قيادته للقائد محمد بن القاسم بن طملس[2] ثو زوده بتعليماته وأوصاه أن يستعين بمن دخل في طاعة الأمويين من البربر[3] واندفع جيش الخلافة نحو طنجة التي استسلمت دون عناء[4] ولما أحس الحسن بن جنون بشدة الحصار لاذ بالفرار واعتصم بالجبال[5] وفي تلك الأثناء استطاع الحسن بن جنون جمع قواته مرة أخرى حيث أعاد تنظيمها والتقى بجيش الحكم في ربيع الأول سنة 362هـ/972م في مكان يعرف بفحص مهران وكان النصر من نصيب الحسن بن قنون وانهزمت القوات الأندلسية وقتل منهم عدد كبير وعلى رأسهم القائد الأندلسي محمد بن القاسم بن طملس[6].

لقد كان لسقوط هذا الأخير في ميدان المعركة أثر عميق على نفسية الحكم بلا ريب[7] ولكن في نفس الوقت أكبر من شأن البربر واعترف ببأسهم وهم الذين رغم قلة عددهم وعدتهم تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالجيش الأموي.

يقول ابن حيان: "ووافته على ذلك شارة رجال هؤلاء الحسنين في غلمانهم وصنعائهم المرغبين لهم وله بإذعانهم للذي سبق لهم لديه من الاغتصاص بمرارتهم والاعتراف ببأسهم"[8].

وظل الحكم حريصا على استمالة البربر حتى حين قام بتشييع غالب مولاه وصاحب حروبه حين أنجد به جيشه المهزوم ببلاد المغرب حيث أوصاه بالاستماتة في

---

[1] - ابن الخطيب- نفسه- ص221.

[2] - ابن حيان- المصدر السابق- ص57/ ابن عذاري- المصدر السابق- ج2 ص364/ الناصري أبو العباس- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري- مطبعة دار الكتاب 1954م- ج1 ص200.

[3] - إسماعيل العربي- دولة الأدارسة- ديوان المطبوعات الجامعية 1983م- ص183.

[4] - ابن حيان- نفسه- ص66/ ابن عذاري- نفسه- ج2 ص365.

[5] - نفسه- ص58/ ابن عذاري- نفسه- ج2 ص365.

[6] - نفسه- ص71/ مؤلف مجهول- مفاخر البربر- تحقيق بوباية عبد القادر- دار أبي رقراق- المغرب 2005م- ص98/ الاستقصا- ص200/ ابن أبي زرع- نفسه- ص93.

[7] - ابن حيان- نفسه- ص149.

[8] - نفسه- ص149.

مقاتلة الرؤوس والإحسان إلى من أذعن من القبائل البربرية وقال له: "يا غالب سر سير من لا إذن له في الرجوع حيا إلا منصورا أو ميتا معذورا وابسط يدك به يتبعك الناس"[1].

هذا النص أعلاه يدل دلالة واضحة على أن أولى الأولويات لدى الحكم هي استمالة البربر وتكبيلهم سلاسل الإحسان إليهم.

وبعد انتهاء المعركة التي أحرز فيها غالب النصر انقادت جموع البربر إلى دعوة المروانية وأجازهم إلى قرطبة[2] ليظافوا غلى من سبقهم من البربر يقول ابن حيان: "فتقبلهم معرضا عن نحلتهم على بصيرة مسمحة وأكتملت بهم لديه آخر دولته القصيرة من هذه الفرق الثلاث البربرية الرجال: رجال بني حسن ورجال ابني الأندلس ورجال البرازلة عسكر ضخم يقاربون السبعمائة فارس"[3].

ولم يقتصر الحكم المستنصر على استقدام هؤلاء البربر وتفريغ العدوة المغربية من هؤلاء الأبطال بل فتح المجال لهم ليبلغوا أعلى المراتب في صفوف جيشه بعد أن تخلى عن نظرته السلبية تجاههم ونلاحظ ذلك جليا في النص الذي أورده ابن حيان حيث يقول: "... منهم وجوه وأعلام حازوا عما قليل بالعسكر الرئاسة جميعهم من البربر الذي طال مقت السلطان لهم وزهده فيهم"[4].

وإن المتتبع لسياسة الحكم في اصطناع البربر ليدرك أن هذا الخليفة قد توصل إلى حقيقة لا يخالجه معها شك أهمية البربر في الجيش الأندلسي وخاصة بعدما شهد بلاءهم في لجج الحرب الأخيرة مع ابن جنون.

ونظرا للمؤهلات الحربية التي يتطلبها الجيش آنذاك ومنها الشجاعة والفروسية والإقدام[5] ويحدد ابن حيان هذه الخصال متحدثا عن موقف الحكم: "فمنحهم الله قبوله وحسن عنده زيهم واستنبل تخفيفهم في مراكبهم وانكماشهم في ثقلهم ورأى أن أخذهم بذلك في آلتهم أليق بصناعتهم وأرفق بخيولهم"[6] وبذلك فقد أضاف الحكم دما جديدا

[1] - ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص92/ الناصري- المصدر السابق- ج1 ص201.

[2] - السيد عبد العزيز سالم- تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس- مؤسسة شباب الجامعة 1985م- ص389.

[3] - ابن حيان- المصدر السابق- ص150.

[4] - نفسه- ص150.

[5] - عبد القادر بوباية- المرجع السابق- ص192.

[6] - ابن حيان- ص150.

لجيش الخلافة الذي –حسب ظني- لاحظ المستنصر شغورا حرص على ملئه بهذه الفلول من البربر.

وظل الحكم محبورا بهذه الفئة من جند البربر لا يفتأ يشيد بها حتى في ساعة مرضه الذي مات فيه ويمتع نظره باستعراضهم أمامه يقول ابن حيان: "حتى لظل أيام علته يشرف عليهم من قصبة دار الرخام المرسوم صحنها باعتراض الجند أيام إعطائهم يتطلع على فرسان البرابر إذا تحركوا للعب شاخصا إليهم معجبا بهم يقول لمن حوله انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم فإنهم الذين عناهم الشاعر[1] بقوله:

فكأنما ولدت قياما تحتهم   وكأنهم ولدوا على صهواتها

ما أعجب انقيادها لهم كأنها تفهم كلامهم فيعجب سامعوه من سرعة تحول رأيه فيهم[2].

واستنادا لهذه الوقائع فإنه يمكن اعتبار عهد الحكم هو بداية لسياسة الاعتماد على البربر في تشكيل الجيش الأموي حيث أصبحت صفة البربرية بادية على الجيش الأموي عندما انبث في هيكلته العامة قادة بارزين كان لهم قصب السبق في العديد من الوقائع التي سوف تشهدها الأندلس في عهد الدولة العامرية أو في عهد الفتنة التي أعقبتها كما سوف أبين ذلك بشي

*** البربر في عهد المنصور ابن أبي عامر:**

لما توفي الحكم المستنصر خلفه ابنه هشام المؤيد ليكون الخليفة الثالث في مسلسل الخلفاء الأمويين بالأندلس وتبرز مع هذا الخليفة الحدث شخصية المنصور ابن أبي عامر الذي ولى له الحجابة[3] لقد كانت أولى اهتمامات هذا الأخير هي الإصلاحات العسكرية فانتهج سياسة الاعتماد على العناصر البربرية التي كان الحكم قد شرع تنفيذها.

---

[1] - الشاعر أبو الطيب المتنبي المتوفى سنة 354هـ/950م قصيدة يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمرانومطلعها:

سرب محاسنه حرمت ذواتها   داني الصفات بفيد موصوفاتها

ديوان المتنبي – امكتبة الثقافية- بيروت دت – ص186.

[2] - ابن حيان- المصدر السابق- ص150.

[3] - مجهول- تاريخ الأندلس- دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية 2007م- ص216.

ليس هذا فحسب بل جعلها قطب رحى لهذه الإصلاحات لما تميز به البربر من خبرة قتالية ومراس شديد والتفاني في الانقياد والتحمل[1] حيث يقول ابن حيان: "وأسرع موت الحكم على تفيئة ذلك فأعقبهم عاقب جعفر بن عثمان في تدبير هشام الوالي بعده محمد بن أبي عامر خيره فاستظهر بهم على شأنه حين استولى على الملك فعلاهم على طبقات أجناده واصطفاهم لنفسه فخاض بهم الدياجير في حياته"[2].

فتطلبت هذه الإصلاحات استأصال الأحقاد والضغائن من صفوف جيشه البربري المكون من مختلف القبائل المغربية وفي مقدمتها القبيلتان الكبيرتان (زناتة وصنهاجة) اللتان دارت بين أسلافهم حروب طاحنة جندلت فيها آلاف الرؤوس ومنها رأس زيري بن مناد كما سأبين ذلك لاحقا فتمكن المنصور أن يجمعهم في جبهة واحدة ويقف في وجه أعدائه في الداخل والخارج يقول ابن خلدون "ولما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة[3] ويستخلص من النص الذي أورده ابن خلدون أن المنصور ابن أبي عامر فتح الباب على مصرعيه لمختلف القبائل البربرية لا يفتأ يستغل كل فرصة لاستقطابهم حيث اتفق أن تحرك في هذه الفترة نائب الفواطم على إفريقيا بلكين بن زيري الصنهاجي في حملته التي أجهز بها على المغرب الأقصى وأجفل قبائل زناتة التي احتشدت في مدينة سبتة قاعدة الخلافة الأموية في المغرب[4] فاستغل المنصور هذه الحادثة وبعث إلى رجال زناتة يدعوهم إلى القدوم إليه وحسب ما أورده ابن عذاري فإن أعوانه قد أشاروا عليه بذلك "قد أمكنك الله من اصطناع فرسان زناتة واعتقاد المنة عليهم فأرسل إليهم يأتوك سراعا فليجد إحسانك إليهم مكانا"[5].

---

[1] - أحمد مختار العبادي- في التاريخ العباسي والأندلسي- دار النهضة العربية 1972م- ص439.

[2] - ابن حيان- المصدر السابق- ص151.

[3] - ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص177.

[4] - مجهول- مفاخر البربر- ص106.

[5] - ابن عذاري- المصدر السابق- ج2 ص293.

إلا أن المنصور بن أبي عامر كان أعرف الناس بالبربر يعرف خصال الشراهة والطمع فيهم فلم يتركهم بلا عطاء ولو لم يلحو عليه بالسؤال وذلك لتقديره العظيم لمعروفهم الذي أولوه إياه[1].

وظل يستكثر ويستزيد من عناصرهم ويزرعهم في صفوف جيشه بانتظام ليكون بهم قاعدة صلبة لمواجهة أعدائه ويحدد الصفدي عدد المجندين من البربر في جيشه أربع آلاف ومائتين فارس[2]، أما ابن الخطيب فيحددهم بخمسة آلاف: ثلاثة آلاف فارس وألف رجل من رقاصة السودان الداخلين في عدادهم وكان البربر يشغلون ميمنة جيش المنصور بن أبي عامر"[3].

وكان الذي شجع المنصور بعد مستاشريه معرفته بطبائع البربر التي لم تكن غريبة عنه فقد سبق أن عاش في بلادهم وبين قبائلهم عدة أعوام في عهد الحكم المستنصر.

وفوق ذلك هناك نص في غاية الأهمية يعضد ما أورده ابن خلدون في النص الذي سبقت الإشارة إليه حول اعتماد المنصور على هذه الطائفة البربرية من العدوة المغربية يقول ابن الخطيب "فاستظهر بفرسان الهيجاء وأبطال الكريهة وأعلام السمرة من فرسان الغرب وزناتة الواردين على بابه في سبيل الحسائف والدماء الواقعة بينهم وبين ناسهم فارتاش منهم بأجنحة وافرة لم يستظهر قبله ملك بمثلها ومغراوة وأزداجة وزناتة وصنهاجة"[4].

ويفهم من النص أعلاه أن المنصور بفرط ذكائه استطاع أن يستثمر الخلافات بين هذه القبائل لتجنيد ما أمكن من أبطالهم وأفذاذهم في صفوف جيشه.

وبغية الهيمنة والتسلط عمد المنصور إلى سياسة التفرقة والتنوع العرقي حتى أصبح أجناده قبائل مختلفة وأجزاء ممزقة لا يربط بينها سوى الخضوع للسلطة المركزية التي أصبحت بيد الحاجب المنصور وكان الهدف من هذه السياسة هو إضعاف الروابط

[1] - دوزي راينهارت- المسلمون في الأندلس- ترجمة حسن حبشي- الهيئة المصرية العامة للكتاب 1994م- ص113.

[2] - الصفدي- الوافي بالوفيات- نشر ملموت ريتر – دار انشر فرانس ستاين فيسبان 1962- ص87.

[3] - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص102.

[4] - ابن الخطيب- نفسه- ص66.

القبلية للعناصر العربية الأندلسية في الجيش وفي المقابل قرب المنصور البربر وصاروا من حاشيته وبطانته وهم أظهر الجند عنده و أعلاهم مرتبة[1] وتحولوا بذلك الى أداة طيعة بين يديه يضرب بها كل ناعق.

وبهذه السياسة المنتهجة من قبل المنصور يكون قد لامس هدفه المتوخى ألا وهو إبعاد الارستقراطية العربية الأندلسية من الهيكلة العامة للجيش الأندلسي[2] يقول ابن خلدون: "وقدم رجال البرابرة وزناتة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر"[3].

وُ يستخلص من كلام ابن خلدون أن تقديم المنصور لهؤلاء البربر وإظهارهم على حساب العناصر العربية لم يكن حبا في البربر بقدر ما هو تفويت الفرصة على الأندلسيين وقطع الطريق أمامهم نحو السلطة خاصة وأن الظرف كان مناسبا لأن تظهر فيه شخصية عربية من السلالة الأموية لها من القدرات ما تستطيع أن تملأ هذا الشغور في السلطة وتزيح الأسرة العامرية.

لذلك راح المنصور بن أبي عامر يضرب على هذا الوتر الحساس ويجرد هؤلاء الزعماء من معظم القوى التي كانت بين أيديهم ويجعلها تحت السلطة المركزية التي أصبحت بين يدي الخليفة[4] وبفعل هذا التغيير اذي تبناه المنصور في نظام الجند زالت العصبية القبلية بين أفراد الجيش وربما زالت تلك الأحقاد التي كاتنت بين الطوائف البربرية نفسها.

حيث سمح هذا الإصلاح في نظام الجيش غلى احتكاك العناصر المختلفة للمجتمع الأندلسي بحكم تواجدها في صف واحد ومقاتلة الأعداء في جبهة واحدة والتي كللت بالانتصارات المتلاحقة على أعدائهم فترسخت بذلك جدوى هذه افصلاحات التي رفع لوائها المنصور نب أبي عامر.

[1] - ابن عذاري – المصدر السابق- ج2 ص279.

[2] - ارزقي محمد فراد- القوى المغربيية في الأندلس- ديوان المطبوعات الجامعية- ص20.

[3] - ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص177.

[4] - دوزي راينهارت- المرجع السابق- ص111.

إلا أن هناك من يرى أن هذا التنظيم الجديد م يجلب سوى النتائج السلبية للمجتمع الأندلسي حيث يورد لنا أبو بكر الطرطوشي نصا في غاتية الأهمية حيث يقول: "وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم امتقاصا لما كانت الرض مقطعة (مملوكة) في أيدي الأجناد فكانوا يستغلونها فيرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يربي التاجر تجارته وكانت الرض عامرة ويقولون ما زال أهل افسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو في الضعف والأموال وافرة والأجناد متوافرين والكراع (الخيل) والسلاح فوق ما يحتاج غليه |إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن عامر فرد عطايا الجند مشاهرة يقبض الأموال على النطأ وقدم على الأرض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا فاجتاحوا أمواهم واستضعفوهم فتهاوت الرعايا وضعفوا عن العمارة فقلت الجباية المرتفعة إلى السلطان وضعفت الأجناد وقوي العدو على بلاد الملمين حتى اخذ الكثير منهم"[1].

فمن خلال هذا التنص |اعلاه يفهم الحالة الاقتصادية القائمة إذذاك على زراعة الرض فقد اهمل بسبب ما كان يفرضه المنصور من جباية مرهقة لهؤلاء الفلاحين مما أدى إلى إهمال الفلاحين لأراضيهم وبالتلي انخفاض الانتاج.

إلا أنني أرى أن الأمر على النقيض من ذلك حيث أن الاصلاحات والتغييرات العددية والنمطية التي أجراها المنصور على الهيكلة العامة وإعادة صياغة البنية القاعدية للجيش قد اعادت للأندلس هيبتها بفعل المدافعة في الثغور الشمالية التي كانت تنتهي بانتصار الجيش واحتل بذلك مكانة بارزة كقطاع حساس وعلت مكانة المنصور ابن أبي عامر باعتباره قائد هذا الجيش وحامي حمى الأندلس ومع ذلك وبالرغم من وصول المنصور إلى تحقيق أهدافه إلا أنه ظل حريصا على الحفاظ على هذا الخزان البشري الذي لا ينضب معينه.

فهو عندما استولت قواته على مدينة فاس ندب المنصور الحسن بن أحمد بن عبد الوداد السلمي[2] ومنحه سلطات واسعة في إدارة البلاد وأمره أن يعمل على استمالة قبائل

[1] - طرطوشي أبو بكر- سراج الملوك- تحقيق محمد فتحي أبو بكر- ادار المصرية اللبنانية القاهرة- 1994- ج2 ص498-499.
[2] - عبد الوداد السلمي: الحسن بن أحمد بن عبد الوداد من خاصة المنصور واه المغرب بعد الاستيلاء على مدينة فاس سنة 376هـ وخوله صلاحيات واسعة وقام بضبط البلد وهابته الرعية وامتحنه المنصور بعد سعاية قام بها حاسدوه فوجده من المخلصين له وازدادت ثقته عنده، مجهول- مفاخر البربر- ص111.

البربر وأوصاه بمغراوة وعلى رأسهم زيري بن عطية لما قدموه من المساعدات للأمويين وإخلاصهم للدعوة الأموية في بلاد المغرب[1].

وهكذا ومن خلال ما أوردته من النصوص يتضح جليا أن المنصور بن أبي عامر واعتمادا على هذه الفئة من البربر استطاع أن يقهر أعداءه في الداخل ويزيحهم عن مزاحمته ويفرض نوعا من الاستقرار الداخلي الذي عرفته الأندلس خلال عهد عبد الرحمن الناصر ونجله الحكم المستنصر.

كما ظلت آلته العسكرية متيقضة طوال فترة حكمه يقارع بها جيوش الروم في معارك فاصلة لم يصب فيها بانهزام يقول صاحب تاريخ الأندلس: **"**وهي ست وخمسون غزوة لم يهزم قط في غزوة منها ولم يزل فيها ظافرا مؤيدا منصورا عند اسمه**"**[2].

حتى غدو مثالا يحتذى بهم عند الكريهة إذا حمي وطيسها حتى أن أهل الأندلس كانوا يحسدونهم على هذه المكانة التي حضيوا بها عند المنصور يقول ابن الأثير: **"**لما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة حسدوهم ورغبوا في الجهاد وقالوا للمنصور بن أبي عامر: لقد نشطنا هؤلاء –أي البربر- للغزو فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الأقطار وخرج إلى الجهاد**"**[3].

وظل يستفز أعداءه في التخوم الشمالية وينزل بهم الهزائم تلو الهزائم ولا يترك لهم فرصة التوحد واستجماع قواهم وهو القائل:

رميت بنفسي هول كل عظيمة   وخاطرت والحر الكريم مخاطر
وإني لمقتاد الجيوش إلى الوغى   أسود تلاقيها أسود خوادر[4]

---

[1] - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص40/ مجهول- نفسه- ص111.

[2] - مجهول- تاريخ الأندلس- ص226.

[3] - ابن الأثير عز الدين أبي الحسن- الكامل في التاريخ- دار صادر- ج9 ص33.

[4] - مجهول- تاريخ الأندلس- ص226.

*** دور البربر في الفتنة القرطبية:**

قبل الحديث عن دور البربر في فتنة القرن الخامس الهجري يجدر بي أن أعرج على أمر في غاية الأهمية ألا وهو مسؤولية البربر فيها.

تذهب أغلبية المصادر الأندلسية إلى تسميتها بالفتنة البربرية وتحمل البربر مسؤولية إشعالها[1].

وفي مقدمة من أشاروا بأصابع الاتهام إلى هؤلاء البربر المؤرخ الأندلسي ابن حيان الذي يعتبر البربر مسؤولين قبل غيرهم في إشعال فتيل الفتنة وينسب إليهم ما لحق بالأندلس من التصدع والانهيار الذي انتهى بتقسيم البلاد إلى دول طائفية خلال القرن الخامس الهجري[2] يقول ابن حيان: "إن البربر اعتدوا على البلاد اعتداء أصارهم غلى ما هم الآن بصدد من إبطال الخلافة وتفريق الجماعة والتمهيد للفتنة والإشراف بالجزيرة على الهلكة"[3].

وينضم إلى ابن حيان الأديب المؤرخ الفتح بن خاقان بيد أن فريقا آخر يحمل المسؤولية في تفجير الوضع إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار[4] الملقب بالمهدي فابن الآبار يرى رأيا مخالفا لابن حيان ويحمل محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي مسؤولية ما حدث ويشير بالعبارات الصريحة أنه المتسبب الأول في إيقاد نار هذه الفتنة حيث يقول: "محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر باعث الفتنة بالأندلس وهو موقد نارها الخامدة وشاهر سيفها المغمد"[5].

ونظير هذا الرأي أخذ به من جاء من بعد ابن الآبار كابن عذاري المراكشي الذي هو الآخر وبنص صريح ينفي مسؤولية البربر في الفتنة ويحملها لابن عبد الجبار يقول

---

[1] - محمد حقي- البرر في الأندلس- شوكة للنشر والتوزيع- الدار البيضاء 2001- ص277.

[2] - امحمد بن عبود- مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره- منشورات عكاظ- تطوان المغرب 1987م- ص54.

[3] - ابن حيان- المصدر السابق- ص151.

[4] - محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ثار على هشامن المؤيد فخلعه سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وتسمى بالمهدي وهزم البربر بقيادة هشام بن سليمان فانضووا تحت سليمان المستعين الذي انهزم أمام جيش المهدي في موقعة "عقبة البحر" ثم كانت الهزيمة على المهدي في موقعة "وادي آره" وفر إلى قرطبة فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلبي فقتلوه، ابن الآبار أبو عبد الله- الحلة السيراء- تحقيق حسين مؤنس- دار المعارف القاهرة 1985م- ج2 ص5/ الحميدي محمد بن أبي نصر- جذوة المقتبس- تحقيق صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية 2004- ص30.

[5] - ابن الآبار- المصدر السابق- ج2 ص5.

ابن عذاري: "فكان هذا من فعل السفية ابن عبد الجبار المهدي ورأيه بسبب الفساد والفتنة العظيمة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية ولو سموها بفتنة ابن عبد الجبار لكان الأحق والأولى"[1].

وهناك من المؤرخين المتأخرين الذين نسجوا على منوال ابن الآبار وابن عذاري وحذوا حذوهم كالمقري التلمساني الذي يعضد قولهما بقوله: "لقد كان قيامه مشؤوما على الدين والدنيا فاتح أبواب الفتنة في الأندلس وماحي معالمها حتى تفرقت الدولة وانتشر السلك وكثر الرؤساء وتطاول إليها وأخذها شيئا فشيئا حتى محا اسم الإسلام منها"[2]، وفي تصوري أنه من السهولة بمكان الوصول إلى المتهم الحقيقي في تفجير الوضع في الأندلس إذا نحن انبرينا ووقفنا مليا أمام النصوص المؤرخة لهذه المرحلة ثم اجتبينا نصين في غاية الأهمية وهما النصان اللذان تنبجس من خلالهما الحقيقة التاريخية.

فالنص الأول لابن عذاري المراكشي الذي يعرض فيه هذه الحقيقة على النحو التالي: "وكان البربر إذا دخلوا أسواق قرطبة تخوفوا من العامة فإن صهل فرس على فرس قامت النفرة لتعصب العامة عليهم وبعضهم فيهم وهم مع ذلك صابرون ينهون سفهاءهم وعبيدهم أن يمد أحد منهم يده إلى أندلسي"[3].

لاشك أن النص أعلاه يدل دلالة واضحة على أن البربر اقتيدوا إلى أتون هذه الفتنة عنوة حيث استفزهم الأندلسيون بقيادة ابن عبد الجبار ولما أركسوا فيها فعلوا الأفاعيل حتى اشتهرت الفتنة باسمهم.

أما النص الثاني فهو لابن الخطيب: "وأعلن أي محمد بن هشام بن عبد الجبار ببغضهم للبرابرة وتنقصهم جهلا بمحلهم من البأس والعصبية"[4].

ومن هذا النص وإلى حد الساعة التي اغتصب فيها المهدي الحكم في قرطبة لم تزل مراجل الغضب والتعصب خامدة لدى البربر حتى أيقضها المهدي فيهم بالسب والاحتقار لهم إلى أن أعلن الحرب عليهم.

---

[1] - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص76.

[2] - المقري أحمد بن أحمد أبو العباس- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب- تحقيق إحسان عباس- دار صادر 1967م- ج2 ص112.

[3] - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص92.

[4] - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص113.

وعلاوة على ذلك فإن محمد بن عبد الجبار هو من وضع نهاية لآخر حاكم من الأسرة العامرية وعزل هشاما الثاني كان يمثل أحد رموز الدولة العامرية وحتى ابن حيان الذي اعتبر العنصر البربري عنصرا أساسيا ولكن غير متفرد لهذا الانحلال فإننا نجده يتهجم مرة أخرى على محمد بن هشام بن عبد الجبار ويعتبر فاتح باب الفتنة وموقفها: "وهو كان باب الفتنة وسبب الشقاق والنفاق"[1]، إلا أن الدكتور امحمد بن عبود يرى أن تحمل المسؤولية للبربر من قبل ابن حيان جاء في إطار الانتقاد الشامل للمجموعة الاثنية: "يمكننا أن نستنتج بأن منهج ابن حيان لعهد الطوائف كان شاملا بحيث انتقد جميع العناصر الاثنية المسؤولة عن اندلاع الفتنة"[2].

أما عن دورهم باعتبارهم طرف أساسي في هذه الفتنة أو بالأحرى المحنة التي أنتهت بهم إلى منحة فتبدأ من يوم اعتلاء محمد بن هشام المهدي سدة الحكم حيث ناصب البربر العداء وقلب لهم ظهر المجن بعد أن تخلى البربر عن نصرة عبد الرحمن شنجول لما رأوا من سوء تدبيره وتهوره[3] والتفوا حول المهدي.

وبالرغم من أنهم كانوا عصب حركته إلا أنه لم يكن يميل إليهم أو يبدي اهتماما بحمايتهم من أهل قرطبة[4] إذ ما كاد يتولى زمام الأمور بقرطبة حتى بدأت مأساة البربر على يد جنوده وكانوا في معظمهم من سفلة القوم والغوغاء الذين يمتهنون الزبالة والجزارة والفحم وما إلى ذلك[5] فاندفعوا دون خبرة قتالية مجردين في اعتقادي من الوازع الديني والأخلاقي لذلك استعان بهم المهدي في إذلال البربر وقادتهم ونهب أموالهم حيث اتفق أن حاول زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي[6] مقابلة المهدي فاستوقف عند الباب ومنع من الدخول واعتدى الحراس على رأس فرسه بالضرب يقول

---

[1] - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص50.

[2] - امحمد بن عبود- مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره- منشورات عكاظ 1987م- ص57.

[3] - المقري- المصدر السابق- ج1 ص427.

[4] - دوزي راينهارت- المرجع السابق- ص170.

[5] - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص74.

[6] - زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي: يكنى أبا المثنى وليث الحروب وفل الوقائع أظهر في حروب أ[ي يزيد شاجعة فائقة وعبر زاوي إلى الأ،دلس وجاز صحبته إليها ابنا أخيه ماكس حباسة وحبوس خدم قومه شهير الذكر والأنفة والحزم ورويت له في الحروب حكايات عجيبة / ابن الخطيب- أعمال الأعلام- ص229،228/ الإحاطة في أخبار غرناطة- تحقيق يوسف علي طويل- دار الكتب العلمية 2003م- ج1 ص294.

ابن عذاري: "وكان من أعظم ما جرى عليه بعض ذلك زاوي بن زيري بن مناد عظيم صنهاجة أصحاب إفريقية وملكهم وقومه ملوك إفريقية يملكون من طرابلس إلى طنجة فاحتبس بالباب للازدحام حدة لا يفرج له ولا يعرف مكانه وكلما هم بالاستقدام ردوه وقرعوا رأس فرسه فلما أكثروا عليه جعل يقول هذا الرأس فاضربوه فالدابة لا ذنب لها فكانوا يرون أن ذلك كان مبتداء حقده"[1]، ولم يتوقف عداء عصبته عند هذا الحد فقد اندفع هو ذاته إلى الكشف عن عصبيته المعادية للبربر وكان لا يفتأ يذكرهم بسوء في مجالسه الخاصة[2] وعلى هذا النحو كان المهدي البادئ بغرس بذور الفتنة والتناحر بسوء معاملته للبربر كما أشرت إلى ذلك من قبل حتى غدا أسوء خليفة عرفته الأندلس على حد قول ابن عذاري: "فكان محمد بن هشام هذا أشأم خليفة على وجه الدنيا"[3].

فلما استوحش البربر من المهدي واجتمعت لديهم أسباب سخطهم عليه ناصبوه العداء والتفوا حول زعيم جديد من الأسرة المروانية هو هشام بن سليمان[4] الملقب بالرشيد وبادر البربر بالخروج على المهدي عقب شوال سنة 399هـ/1008م وانتهت المعركة بانهزام البربر ولقي الرشيد مصرعه[5] وكانت هذه الحادثة بداية انقسام المجتمع الأندلسي إلى طائفتين طائفة أندلسية وطائفة بربرية.

وأدت نشوة الانتصار إلى انتهاب جميع دور البربر وهتك حريمهم وسبي نساءهم وقتل الحوامل منهم حتى أصبح أهل قرطبة لا يفرقون بين هو بربري أو غير بربري فقد قتل أهل خراسان وأهل الشام خطأ ظنا منهم أنهم بربر[6].

---

[1] - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص75.

[2] - نفسه- ج3 ص78.

[3] - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص74،75.

[4] - هو هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر بويع له بعد اعتلاء المهدي سدة الخلافة وتلقب بالرشيد واتفق مع البربر على خلع المهدي وزحف بهم نحو القصر وبعد مفاوضات سريعة ناشد فيها هشام المهدي على التنحي فالتقى الجمعان فكانت الدائرة على هشام وأخذ هشام أسيرا وأحضر بين يدي المهدي فضرب عنقه وذلك في شوال 399هـ، الحميدي أبو عبد الله- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس- تحقيق صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية 2004- ص30/ ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص84.

[5] - المراكشي عبد الواحد- المعجب في تلخيص أخبار المغرب- تحقيق صلاح الدين هواري- المكتبة العصرية 2006م- ص39.

[6] - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص81.

وفي تصوري كان الأجدر به كخليفة أن يحتضنهم ويؤمنهم على أنفسهم وعلى أموالهم ويتقوى بهم على عدوه[1] بيد أنه اعتمد في تسيير شؤون دولته على الغوغاء[2] كما تقدم مما دل على سوء تدبيره ورداءته[3].

وفي غمرة هذه المأساة التي كادت أن تأتي عن آخرهم آثر البربر اللجوء إلى قلعة رباح[4] في أوائل ذي القعدة سنة 399هـ/1009م والانضمام غلى سليمان بن الحكم[5].

وبذلك أصبحت الأندلس تحت رحمة طائفتين أحداهما أندلسية تحت قيادة المهدي وأخرى بربرية بقيادة سليمان المستعين يتباريان كفرسي رهان كلاهما يريد قرطبة.

مما يدل دلالة واضحة على الفلتان الأمني الذي آلت إليه بلاد الأندلس بعد إذ لم تعد هناك رقابة وانضباط وللمرء أن يتصور حجم المأساة التي آل إليه المجتمع الأندلسي والجو المشحون بالحيطة والشك في العلاقات مما جعل الصلح والعودة إلى التفاهم أمرا مستحيلا.

وأن رتق الفتوق التي كان محمد بن هشام قد أمعن في تمزيقها أصبحت عبثا[6] وتمكن البربر بعد استرجاع قواهم من إلحاق الهزيمة بجيش المهدي ودخلوا قرطبة وأعلن المستعين نفسه خليفة للمرة الأولى في السادس عشر من ربيع الأول سنة 400هـ/نوفمبر 1009م.

ولاذ الخليفة المهدي بالفرار إلى طليطلة مركز ارتكاز وانطلاق المتمردين وظل يراقب الوضع عن كثب إلى أن تمكن من حشد أنصاره وتكوين جيش بمعية الفتى واضح.

---

[1] - حمدي عبد المنعم- دولة بني برزال في قرمونة- مؤسسة شباب الجامعة 1990- ص28.

[2] - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص92.

André clot – l'espagne musulmane VIIIlXV siècle – librairie academique perrin – 1999 – page 175.

[3] - نفسه- ج3 ص75.

[4] - قلعة رباح:

[5] - Pierre guichard – al andalus – hachette literature – page 99.

[6] - عبد العزيز فيلالي- العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب- دار هومه- 2007م- ص301.

وفي مكان يدعى "عقبة البقر"[1] التقى الجمعان وتمكن البربر بقيادة زاوي بن زيري الصنهاجي من إنزال الهزيمة بجيش المهدي وكان سليمان قد لاذ بالفرار نحو شاطبة[2] قبل نهاية جولتها اعتقادا منه أن الهزيمة حلت بجيش البربر[3].

فلما رأى البربر تقاعس سليمان ونكوصه توجهوا نحو مدينة الزهراء وحملوا أهاليهم وكل ما قدروا عليه ويمموا نحو الجنوب باتجاه الجزيرة الخضراء[4] لحصانتها الدفاعية بالإضافة إلى موقعها القريب من العدوة المغربية[5].

وأثناء مسيرهم نحو الجنوب قاموا بأعمال النهب والسطو واعتدوا على أعراض الناس وقتلوا منهم خلقا كثيرا[6].

وأتبعهم المهدي بجنوده عازما ألا تنتهي الحرب حتى يستأصل شأفتهم فدخل معهم في معركة دامية عند وادي آره[7] في ذي القعدة سنة 400هـ/1010م وقاتل البربر قتال من لا يطمع في الحياة[8] ولقد صور ابن دراج القصطلي شجاعة هؤلاء البربر من قبيلتي صنهاجة وزناتة والتفافهم حول المستعين واستبسالهم في حربهم ضد المهدي:

أسود هياج ما تزال تراهم ... تطير بهم نحو الكريهة عقبان

وأقمار حرب طالعات كأنما ... عمائمهم في موقف الروع تيجان

بكل زناتي كأن حسامه ... وهامه من لاقاه نار وقربان

وأبيض صنهاج كأن سنانه ... شهاب إذا هوى لقرن وشيطان

---

1 - عقبة البقر: تسمى حاليا al vacar حصن يقع شمال قرطبة ويبعد عنها بنحو 20 كلم.

2 - شاطبة تعرف بخيراتها الوافرة بناها أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين لها ثلاثة أقاليم في كل إقليم أربعون قرية يخترق بطاحها واد قد اتخذ عليه النواعير ولها بساتين جميلة، مؤلف مجهول- تاريخ الأندلس- تحقيق عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية 2007م- ص134/ العذري أحمد بن عمر- ترصيع الأخبار وتنويع الآثار- تحقيق عبد العزيز الأهواني 1965م- ص18.

3 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص94،93/ سهيل طقوش- تاريخ المسلمين في الأندلس- دار النفائس 2005/1426- ص403.

4 - الجزيرة الخضراء: algeciras ميناء في أقصى جنوب الأندلس على مقربة من جبل طارق وتسمى أيضا بجزيرة أم حكيم وهي جارية لطارق بن زياد وبنى فيها عبد الرحمن الناصر دارا لصناعة السفن الحربية ونظرا لموقعها الممتاز استمرت بعد ذلك المجاز المفضل للجيوش العسكرية القادمة من المغرب على أيام المرابطين والموحدين، العذري- المصدر السابق- ص117/ ابن الخطيب- أعمال الأعلام- ص272.

5 - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص65/ ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص226/ كمال السيد أبو مصطفى- تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي- مؤسسة شباب الجامعة 1993م- ص140.

6 - ابن خلدون- نفسه- ج4 ص326/ ابن الأثير- الكامل في التاريخ- دار صادر- 1402هـ/1982م- ج9 ص218.

7 - وادي آره: ينبع من جنوب رندة ويصب في البحر المتوسط شمال جبل طارق وذكر في كتب التاريخ المعركة التي دارت رحاها بين سليمان والمهدي، ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص95.

8 - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص115.

وقد علموا يا مستعين بأنهم لربهم لما أعانوك أعـــوان[1]

وألحقت الهزيمة بجيش المهدي وعاد أدراجه نحو قرطبة وتقفى البربر أثره وحاصروه داخل المدينة وقد خشي أهالي قرطبة على أرواحهم وأملاكهم من انتقام البربر فقرروا التخلص من المهدي الذي عدوه رأس الفتنة ومنبرها وتولى المهمة أحد فتيان الصقالبة الأقوياء ويدعى واضح العامري ثم جدد الناس البيعة لهشام بن الحكم الذي اتخذ واضحا حاجبا له[2] وبعث هذا الأخير برأس ابن عبد الجبار إلى سليمان المستعين داعيا إياه والبربر إلى الدخول في طاعته[3].

إلا أن سليمان وأتباعه من البربر لم يكترثوا لهذا التغيير في الحكم ولم يستجيبوا رغم الإلحاح والمناشدة واستمروا في حصار قرطبة ليقينهم أن سقوطها في أيديهم أصبح أمرا محسوما وأن دخولها لم يعد إلا مسألة وقت ليس إلا.

إلى أن تمكنوا سنة ثلاث وأربعمائة 1011م من اقتحام المدينة وعاثوا فيها والمدن المجاورة نهبا وقتلا وتخريبا وارتكبوا مذبحة انتقامية قل نظيرها[4] ولقد صور المقري قذارة هذه الحرب بقوله: "... ولحق بيوتات قرطبة معرة في نساءهم وأبنائهم"[5].

ودخل سليمان القصر وأحاط نفسه بالحجاب والوزراء من البربر فكانت بذلك أول دولة للبربر بقرطبة[6] وأقدم على مكافأة البربر بعد أن أدرك خطورة وجودهم في قرطبة بجوار الأندلسيين الذين لاقوا منهم صنوف المهانة والإيذاء وتطلعوا غلى الانتقام منهم[7].

ناهيك عن النفرة الطبيعية[8] التي كانت تميز العلاقة بين الأندلسيين والبربر بحيث كان الأندلسيين يكرهون بشدة هؤلاء الأفارقة وظل يجري على الشفاه بيتان سامان للشاعر السميسر[1]:

[1] - ابن دراج القسطلي- ديوان ابن دراج- تحقيق محمد علي مكي- المكتب الإسلامي- ص49

[2] - ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص327.

[3] - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص101.

[4] - محمد حقي- المرجع السابق- ص219.

[5] - المقري- المصدر السابق- ج1 ص429.

[6] - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص114.

[7] - حمدي عبد المنعم- دولة بني برزال- مؤسسة شباب الجامعة- 1990م- ص37.

[8] - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص

رأيت آدم في نومي فقلت له   أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن البربرة نسل منك قال إذن   حواء طالقة إن كان ما زعموا

ومن هذا المنطلق عزم المستعين على التخلص منهم وإبعادهم عن قرطبة وشرع في تقسيم الغنائم على البربر ومكافأتهم إرضاء لهم[2] جزاء مساندتهم حيث كانوا ظهيرا وسندا قويا في صراعه مع المهدي[3] فحباهم بأفضل الإمارات[4].

فأعطى لقبيلة صنهاجة وزعمائها من بني زيري كورة إلبيرة[5] وأعطى جوفي البلاد لمغراوة ووهب جيان[6] لبني برزال ورندة لبني يفرن وشذونة[7] ومرور لبني دمر وأزداجة في حين آلت سبتة لعلي بن حمود[8] وطنجة وآصيلا[9] والجزيرة للقاسم بن حمود[10].

[1] - ينسب السيد هنري بيريس إلى شاعر مجهول في حين أن الأبيات للشاعر الأندلسي السميسر، هنري بيرس- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف- ترجمة الطاهر أحمد مكي- دار المعارف 1988م- ص236.

[2] - السيد عبد العزيز سالم- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس- دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت 1971م- ص85.

[3] - aperçu sur les royaumes berbers d'alandalus au V/XI siècle – revista d'el instituto egipcio de estudios islamicos en madrid volumen XX III – madrid 1985 – p86.

[4] - Anwar G cherjene – historia de espaga musulmana S A 1980 – Madrid – p54.

[5] - إلبيرة تقع شمال شرق مملكة غرناطة وهي بلدة مرتفعة صافية الجو أسسها عبد الرحمن بن معاوية وجعلها سكنى موالية وهي من قواعد الأندلس الجليلة خربت في الفتنة وانحاز أهلها غلى غرناطة، الحميري عبد المنعم- الروض المعطار في أخبار الأقطار- تحقيق إحسان عباس- مكتبة لبنان 1975م- ص28/ ابن الخطيب- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار- تحقيق محمد كمال شبانة- مكتبة الثقافة الدينية- ص104.

[6] - جيان: من أحسن المدن وشريف البقاع تقع على سطح جبل عال جدا وبها أقاليم عدة وبها حمامات ذات مياه عذبة، الحميري- المصدر نفسه- ص183.

[7] - شذونة كورة متصلة بكور مورور اشتهرت بخيرات البر موورة المياه كانت مونلا للأندلسيين أيام القحط، الحميري- نفسه- ص339.

[8] - علي بن حمود الإدريسي: بويع بن حمود الحسني المسمى بالناصر بالخلافة وتغلب على قرطبة وتملكها وبقي في قرطبة عامين إلا شهرين إلى أن قتله صقالبة له في الحمام سنة ثمان وأربعمائة وكان له من الولد يحي وإدريس/ ابن حزم أبو محمد- طوقة الحمامة في الألفة والآلاف- تحقيق فاروق سعد- دار مكتبة الحياة 1975م- ص262.

[9] - أصيلا: مدينة صغيرة من مدن الشمال على الشاطئ الأطلسي أسسها الرومان وكانت خاضعة لأمير سبتة ثم استولى عليها القوط إلى أن أخذها منهم المسلمون عام 94، ليون الإفريقي الحسن الوزان- وصف إفريقية- ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر- دار الغرب الإسلامي 1983م- ص311،312/ الصديق بن العربي- كتاب المغرب الإسلامي- 1984- ص57.

[10] - القاسم بن حمود تلقب بالمأمون كان وديعا أحسن الناس في عهده بقي في قرطبة غلى سنة اثني عشرة وأربعمائة فقام عليه ابن أخيه يحي بن علي بن حمود بمالقة / الحميدي- نفسه- ص33.

وبذلك غلب العنصر البربري على دولة المستعين وظل سكان قرطبة الذين لم تندمل جراحهم يحقدون على المستعين وأنصاره البربر الذين استباحوا دماء أهلها وعاثوا فسادا في جنباتها[1].

وعليه فإنه يتبين مما سبق أنه بالرغم من تظافر الأسباب الحضارية والسياسية التي أدت غلى وحدة عناصر المجتمع الأندلسي وانصهارها في بوتقة واحدة باسم جماعة الأندلس إلا أن البربر الطارئين على الأندلس خلال عصر الخلافة ظلوا محافظين على تجانسهم العرقي.

ولعل هذه التشجنات العرقية التي فرضتها الظروف التاريخية وأذكتها سياسة الخلافة الأموية والدولة العامرية حيث كان النظام المطلق الذي فرضه المنصور بن أبي عامر على الأمة الأندلسية يحمل بين جنباته الكثير من عوامل الهدم والانتقاض فقد كانت سائر العناصر التي تكمبدت الكثير من المعاناة في إقامة حكومة ابن أبي عامر يتربص بعضها ببعض وكان في هذه الأثناء صراعات محتدمة بين العناصر البربرية وخصومهم من الصقالبة في قصر الحكومة وكان بنو أمية يميلون إلى مواليهم القدماء ويكرهون البربر إذا كانوا سندا للمنصور وفي المقابل كانت البطون العربية تكره هؤلاء وهؤلاء ولكنها ترى في البربر خصمها الأساسي وهو من بقايا النظام القديم وعندما تظافرت هذه العوامل وقع الانفجار وانهارت دعائم الخلافة وظهرت في الميدان ثلاث قوى فاعلة في الساحة الأندلسية: بنو أمية يلتفون حول خلافتهم وتراث بيتهم المغصوب، وطوائف البربر تحاول الاحتفاظ بمركزها وامتيازاتها والأسر العربية التي أبعدت من مراكزها تحاول استرجاع مكانتها ومجدها وظهرت إلى جانب هذه الطوائف المتقاتلة طائفة الصقالبة وإن كانت أقل شأنا من مثيلاتها.

وخلال أحداث الفتنة ظهرت هذه التباينات العنصرية بشكل جلي حين تعصب البربر لبعضهم البعض مما مكنهم من تكوين دويلات بربرية صغيرة والانحياز إلى الجنوب وهو الإجراء الذي تبناه سليمان المستعين ورسخ بذلك فكرة انقسام الأندلس غلى دويلات صغيرة يحكمها أمراء مستقلون أطلق عليهم ملوك الطوائف.

[1] - السيد عبد العزيز سالم- المرجع السابق- ص87.

فكان في التكتل العرقي وسيلة لتوفير الأمن وتقوية أسباب الدفاع وعند استقلال كل أمير بإمارته وترسيخ حكمه بها تخلى هؤلاء الأمراء عن سياسة التكتل الذي اضطروا إليه في بداية تكوين إمارتهم.

فعلى سبيل المثال كان بنو برزال بقرمونة أول البربر الذين خرقوا هذا التكتل حين كانوا ينحازون إلى بني عباد في الكثير من الأحيان وكانوا يتلقون صنوف التأنيب من قبل بني زيري إلا أن عناصر بني برزال لم يرعوي لهذا التأنيب.

ولعل ذلك الانفلات من الحلف البربري هو الذي عجل بسقوط الإمارات البربرية الصغرى في جنوب الأندلس.

الفصـــــل الأول

بنو برزال ودورهم في الصراع الفاطمي الأموي في بلاد المغرب:

يعد بنو برزال[1] من أعظم بطون زناتة، وحسب ابن خلدون فإنهم ينتسبون إلى برزال بن ورنيد الذي يرتقي نسبه إلى جدّهم الأكبر جانا[2]، وكانت مواطنهم من جبال السلات وما ولاها من أعمال المسيلة[3]، وكثر نسلهم وانتشروا بأعداد كبيرة، وذاع صيتهم وقويت شوكتهم[4].

وكانت نحلتهم الدينية تعرف بالنكارية[5]، وهي فرقة من الإباضية الخوارج الذين نزلوا ببلاد المغرب، وكان لهم حضور بيّن في الأحداث التي دارت رحاها في المغرب الأوسط خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، ففي هذه الأثناء كان الخلاف السياسي

1- بنو برزال- فخذ من زناتة من بني يفرن كانوا قاطنين بالزاب الأسفل من افريقيا، وجد القبيلة هو برزال بن ورنيد بن وانتين بن واردين بن دمر بن ورسيك بن الديرت بن جانا/ مجهول- مفاخر البربر- دراسة وتحقيق- أ/د عبد القادر بوباية- دار أبي رقراق- المغرب 2005م- ص135/ ابن خلدون عبد الرحمان- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم عن ذوي السلطان الأكبر- دار الفكر- 1421هـ/2000م- ج7 ص9.

2- جانا- التي منها لفظة زناتة وجانا اسم أبى الجيل وهو جانا بن يحي وأضيفت التاء لتعيين الجنس فقالوا، جانات وللتعميم أضيفت النون فصارت جاناتن ونطقوا الجيم سينا إلى أن استبدلت زايا لحدوث صفير أثناء النطق فحذفوا الألف الذي بعد الزاي تخفيفا لكثرة تداولها على الألسن فصارت زناته/ ابن خلدون- نفسه- ج7 ص11/ ابن حزم أبو محمد- جمهرة أنساب العرب- .

3- المسيلة- مدينة أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله سنة 313 هـ وتولى بنائها علي بن حمدون الأندلسي، وبها نهر في أجل الأنهار يسمى نهر شهر وهو يمر بغربها والبلاد التي حولها مجالات لعرب رياح/ ابن سعيد المغربي- كتاب الجغرافيا- تحقيق إسماعيل العربي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر 1982م- ص126.

ابن عبيد الكبري، لمغرب في ذكر بلاد افريقيا والمؤب وهو جزء عن كتاب المالك والممالك مطبعة الحكومة 1857 ص59.

4- ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص72.

5- النكارية- هي فرقة من الإباضية الخوارج سموا بالنكار لأنهم أنكروا أحاجة عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم ثالث رؤساء الدولة الرسمية الذي تولى سنة 171هـ/787م وكان لهم شأن في تاريخ الثورات بإفريقيا، وسموا بالملاحدة والشعبية والتكاثر/ أبو زكرياء يحي بن أبي بكر- كتاب سيّر لأئمة وأخبارهم- تحقيق إسماعيل العربي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر 1984م- ص93.

ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص84/ الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم- تحقيقه أبو محمد- فريد المكتبة التوفيقية- ص146.

بين الخلافة الأموية في الأندلس ونظيرتها الفاطمية قد بلغ مداه، ودفع الصراع بين الخلافتين إلى إذكاء الفتن والدسائس بين القبيلتين الكبيرتين صنهاجة، وزناتة، حيث كانت صنهاجة موالية للدولة الفاطمية وتسيطر بإسم الفاطمين على القسم الشرقي للمغرب، أما القسم الغربي من نهر الملوية إلى طنجة فقد سيطرت عليه زناتة وحلفاؤها من بني مروان في الأندلس[1]، واتسعت هوة الخلاف بين القبيلتين صنهاجة وزناتة منذ عزم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله مبارحة بلاد المغرب والتوجه نحومصر[2] غداة فتحها على يد قائده جوهر الصقلي.

ولما أراد أن يبقي على النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب[3]، عرض ولاية المغرب على قائده جعفر بن علي بن حمدون[4] المعروف بالأندلسي صاحب مدينة المسيلة وإقليم الزاب[5]، غير أن هذا الأخير إرتبك في تحمل المسؤولية تحت وصاية الفاطميين[6]، وأشترط وأشترط على المعز شروطًا تجعله مطلق التصرف في بلاد المغرب تحت وصاية أحد أولاد المعز لدين الله الفاطمي، حيث كان رد جعفر للمعز "تترك معي أحد أولادك وإخوتك يجلس في القصر وأن أدبر الأمر، ولا تسألني عن شيء من الأحوال لأن ما أجيبه يكون إزاء ما

1- أحمد مختار العبادي- في التاريخ العباسي والأندلسي- دار النهضة العربية بيروت- 1982م- ص424.

2- محمد جال الدين سرور - سياسة الفاطميين الخارجية- دار الفكر الغربي- 1994م - ص225.

3- سياسة مصطفى مسعد - العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية 300- 399- 912- 1008- عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية- سنة 2000م- ص73.

4- جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي- هو صاحب المسيلة وإقليم الزاب في أعمالإفريقيا كان جوادًا كثير العطاء مؤثرًا لأهل العلم، ولإبن هانئ الأندلسي فيه مدائح، منها-

المدنفان من البرية كلها　　جسمي وطرف إبلي أخور

والمشرقات النيرات ثلاثة　　الشمس والقمر المنير وجعفر.

- ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- دار صادر بيروت- ج1 ص364.

5- إقليم الزاب ينحصر هذا الإقليم بين تخوم المسيلة وجبال مملكة بجاية شمالاً وبلاد الجريد شرقا وهذه المنطقة شديدة الحرارة رملية لا يوجد بها إلاّ يسير من الماء وتقل بها الأراضي الصالحة للزراعة وتكثر بها الواحات/ الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقي- - ترجمة محمد حجي ومحمد الأحفر- دار المغرب الاسلامي- 1983م- ص138.

6- عبد العزيز فيلالي - العلاقات السياسة بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب- دار هومه 2007م- ص219.

أنفقته وإذا أردت أمرًا فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه، لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء، والخراج وغيره من قبل نفسي"[1].

فامتعض المعز لهذا الرد الذي أشتّم منه رغبة جعفر بالاستقلال ببلاد المغرب وردّ عليه قائلا: "يا جعفر عزلتني عن ملكي وأردت أن تجعل لي شريكا في أمري واستبددت بالأعمال والأحوال دوني قم فقد أخطأت حظّك وما أصبت رشدك[2] "، فأعرض المعز عن جعفر بن علي بن حمدون وأسند ولاية إفريقيا والمغرب إلى بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي[3] عند توجهه إلى الديار المصرية[4].

لقد عرف بلكين بن زيري كيف يكسب هذا العرض المغربي، حيث تظاهر بعدم القبول قائلا: "يا مولاي، أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري قتلتني بلا سيف ولا رمح"[5].

فثمتى المعز الدين الله جواب بلكيس بن زيري واستساغه ومن ثم اعتبره راع لمصالح الفاطميين في بلاد المغرب وعهد إليه بالإمارة[6] وحكم المغرب باسمه[7]، وأوصاه عند توديعه بأنه قال له: "اشفني في أولاد المجوس زناتة ومزاتة"[8]، وأضاف قائلاً: "إن نسيت شيئا مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء: لا ترفع الجباية عن أهل البادية ولا ترفع السيف عن البربر ولا تولى أحدًا من أخوتك وبني عمك فإنهم أحقّ بهذا الأمر منك وأستوص بالحضر خيرًا"[9].

1- المقريزي تقى الدين أحمد بن علي - إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا- تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا- دار الكتب العلمية بيروت لبنان- 2001م- ص175.

2- المقريزي- نفسه- ص175.

3- بلقين ابن زيري بن مناد

4- المقريزي أبوالعباس – نفسه- ص99.

5- شارل أندري جوليان - تاريخ افريقيا الشمالية- تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة- ج2 1983 - ص89.

6- الدرجيني أحمد بن سعيد- طبقات المشائخ بالمغرب- تحقيق ابراهيم طلاي- ج2 ص138.

-7

8- الدرجيني أحمد بن سعيد – نفسه- ج 2 ص138.

9- ابن الخطيب لسان الدين- تاريخ المغرب في العصر الوسيط- تحقيق د/ أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني- دار الكتاب بدار البيضاء- 1964م- ص65.

وبعد ذلك يمم المعز نحوالقاهرة سنة 362هـ[1]، يقول سليمان داود بن يوسف صاحب صاحب كتاب "حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي" معلقا على هذه الوصايا.

"كانت هذه الوصية هي أكبر الأسباب التي أدت إلى هجرة زناتة إلى الأندلس سنة 361 "[2]، والأرجح في اعتقادي أن حادثة مقتل زيري مناد وقطع رأسه وإيصاله إلى الأندلس كانا كافيان في تأليب صنهاجة على الزناتة الذين ضاقت بهم أرض المغرب، ويمموا شرقا ويرمون الأندلس، وهذا ما سأبينه لاحقًا بشيء من التفصيل.

الأمر الذي أغضب جعفر بن علي بن حمدون فأعلن العصيان على الدولة الفاطمية وارتمى في أحضان زناتة حلفاء الأمويين[3]، فخرج من المسيلة فتظاهر بالمسير نحو المنصورية[4] ولكن سرعان ما مال بعسكره إلى جمع زناتة والتحق به ممن تخلف عن الموقعة الأولى، فزحف إليه زيري في عسكر ضخم من صنهاجة، والتقى الجمعان في شهر رمضان سنة 360هـ /يونيو 971 م[5].

وانتهت المعركة بهزيمة صنهاجة وقتل زعيمهم زيري بن منّاد، واحتز جعفر رأسه وأمر أخاه أن يسير نحو الأندلس رفقة وفد هام من وجوه زناتة مصطحبين معهم رأس زيري بن مناد ونحو مائة في وجوه أصحابه[6] ولم يلبث جعفر أن عبر هو الآخر إلى الأندلس بعد شهر واحد من وصول أخيه إلى قرطبة[7].

1- سليمان داود بن يوسف - حلقات من تاريخ المغرب الاسلامي- مطبعة أبو داود- الجزائر 1993م- ص .

2- ابن حياد- المصدر السابق- ص144.

3- ابن حياد- المصدر السابق- ص .

4- المنصورية- وتدعى أيضا صبرة بناها اسماعيل المنصور العبيدي سنة 330 هـ وعمّر أسواقها واستوطنها وصارت مقرًا للولاة والملوك إلى حين خرابها وإليها نقل إسماعيل لأسواق وجميع الصناعات/ الحميري- المصدر السابق- ص550.

5- مجهول- مفاخر البربر- دراسة وتحقيق أ / د عبد القادر بوباية- دار أبي رقراق للطباعة والنشر- 2005، ص97/ الهادي إدريس- الدولة الصنهاجية تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10هـ إلى القرن 12- ترجمة حمادي الساحلي- دار الغرب الاسلامي- 1992م- ج1 ص67.

6- ابن حيان- نفسه- ص26.

7- ابن الأثير.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك بعض المؤرخين وفي مقدمتهم إبن حيان من يرون أن اعتزام جعفر بن علي بن حمود على الرحيل إلى الأندلس هو خوفه من غدر زناتة الذين أحس منهم جعفر ندمهم على قتل زيري ابن مناد، يقول ابن حيان برواية جعفر بن جزار: "وقد لحقت جعفر بن علي في مقامه لديهم مخافة من مكرهم وشرهم فأعمل الحيلة في باطنه حتى إنحاص إلى الأندلس ......"[1].

يبدو أن الأرجح في اعتقادي هو ما ذهب إليه عبد الله عنان[2] من أن خوفه من بطش صنهاجة وانتقامهم لرأس زيري بن مناد وأصحابه هو الذي حمل جعفر على الهجرة نحو الأندلس.

وهو ما حدث بالفعل، عندما هبت صنهاجة عن بكرة أبيها تحت قيادة بلكين بن زيري[3] الذي أعاد الكرة على زناتة واعتزم بطردهم نهائيا من المغرب الأوسط[4] إلى ما وراء الملوية[5] وتقض أثارهم إلى المغرب الأقصى كما في رواية صاحب روض القرطاس حيث يقول: "وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة دخل بلكين بن زيري بن مناد المغرب ونزل على مدينة فاس فقتل سلاطينهم محمد بن أبي علي بن قشوش صاحب القرويين وعبد الكريم بن ثعلبه صاحب عدوة الأندلس وسار إلى سبتة ثمّ عاد إلى إفريقيا"[6].

1- ابن حيان- المصدر السابق- ص25-26.

2- عبد الله عنان- دول الطوائف منذ قيامها من الفتح المرابطي وهو العصر الثاني من كتاب دولة الاسلام في الأندلس- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- 1960- ص147.

3- بلكين بن زيري المسمى يوسف والمكنى بأي الفتوح والملقب بسيف العزيز بالله وهو من هزم زناتة والمستأصل نشأ فيها وفتح معاقهم، وكل من قبل أبيه زيري ابن فناد تأسس مدى الجزائر ومليانة - والمدية.

4 - شارل أندري جوليان- المرجع السابق- ص89.

5 - نهر الملوية من الأنهار الكبرى في المغرب الأقصى ينحدر من قمم الجبال بين الأطلسين الكبير والمتوسط ويصب في البحر المتوسط بين وجدة ومليلية يبلغ طوله 500 كلم/ الصديق ابن العربي- كتاب المغرب- دار الغرب الإسلامي- 1404 هـ 1984- ص186.

6 - ابن أبي زرع علي الفاسي- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- دار المصور للطباعة والوراقة- الرباط 1972- ص101.

جواز بني برزال إلى الأندلس:

أما فيما يتعلق بجواز بني برزال إلى الأندلس فإن هؤلاء قد أيقنوا بعد مغادرة جعفر بن حمود بلاد المغرب أن ذلك سوف يفتح للصنهاجة شهية الانتقام من بقايا زناتة في المغرب، خاصة أن هؤلاء قد مثلوا بزيري بن مناد وحملوا رأسه إلى أعدائهم بالعدوة الأندلسية.

ودرءًا لخطر صنهاجة عمد البرزاليون إلى إخطار جعفر بن علي بن حمود، يهيبون به أن يسعى في جوازهم إلى الأندلس لدى الخليفة الحكم المستنصر بالله.

فلم يتوانى جعفر في تلبية رغبتهم حيث كان هذا اليت من بني برزال ظهيرًا وسندًا لدى جعفر أيام حربه مع صنهاجة حيث أبلوا البلاء الحسن.

ووصفهم لدى الحكم المستنصر بأنهم مقاتلون أشاوس جبلوا على الانقياد والطاعة، فأذن لهم الحكم بالقدوم إلى الأندلس[1] فيقول ابن حيان " وهم الذين –أي بنو برزال– كانوا ضاموا ابني علي في لقاء زيري بن مناد الصنهاجي أمير معدّ على المغرب وأتيح لهم قتله فطار لهم بذلك اسم عظيم أنفقوا به على الخليفة الحكم، وقد نبت بهم دراهم بالعدوة رهبة لابنه بلكين بن زيري طالب ثأره فانحازوا إلى الأندلس باستدعاء من الخليفة الحكم لهم ومضمون حسن قبول وواسع عطاوفيّ لهم بهما، فآوى وأحسن ونوّه وقدّم ذلك وقد أغمض فيهم على عوراء نحلة"[2].

ومما يستشف من كلام ابن حيان فإن الحكم المستنصر كان حريصًا على التوحد المذهبي في الأندلس، ولكن حاجته حسب رأيي إلى هؤلاء المقاتلين من بني برزال جعلته يغض الطرف عن نحلتهم النكارية التي سبقت الإشارة إليها.

وبذلك أصبح بنو برزال يشكلون فرقة لا يستهان بها في جيش الحكم المستنصر إلى جانب بني حسن وابني الأندلسي.

---

1 - ابن عذارى- المصدر السابق- ج3 / عبد الله عنان- المرجع السابق- ص147.

2 - ابن حيان- المصدر السابق- ص150.

ومما لاشك فيه أن بني برزال ونظرًا لدورهم الفعال سواء في المغرب أو الأندلس، هو الذي جعل صيتهم يعلوا وتبرز فيهم أعلام وقادة علت مراتبهم في جيش الخلافة[1].

بنو برزال في جيش المنصور بن ابن عامر:

لما توفي الحكم المستنصر 366هـ، انتهج صاحبه المنصور بن أبي عامر سياسة الاعتماد على العناصر البربرية، ليس هذا فحسب بل جعلتها قطب الرحى في الإصلاحات العسكرية لما تميز به البربر عن خبرة قتالية ومراس شديد، والتفاني في الانقياد والتحمل[2].

هذا من جهة ومن جهة أخرى أراد المنصور بن أبي عامر ببعد نظره وثاقب رأيه، أن يستأصل الأحقاد والضغائن من صفوف جيشه البربري المكون من مختلف القبائل المغربية وفي مقدمتها (الزناتية، والصنهاجية) اللتان دارت بين أسلافهم حروب طاحنة جندلت فيها آلاف الرؤوس، ومنها رأس زيري بن مناد -كما أشرت إليه آنفا- فتمكن المنصور في أن يجمعهم في جبهة واحدة ويقف في وجهه أعدائه في الداخل والخارج.

يقول ابن خلدون: "ولما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منه جندًا واصطنع أولياء وعرّف عرفاء[3] من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة"[4].

---

1 - نفسه- ص150.

2 - أحمد مختار العبادي - في التاريخ العباسي والأندلسي- دار النهضة العربية 1972- ص439.

3 - عرفاء- مفردها عريف يكون تحت إمرة كل واحد منهم عشرة جنود وه ومنصب عسكري استحدث في عهد الحكم بن هشام الربضي وهذا المنصب، غير محدد تحديدًا دقيقا، فهناك صنوف من العرفاء- فمنهم العرفاء المدرعون الذين يرتدون الدروع، ومنهم العرفاء أصحاب الرسائل وغيرهم.

ابن حيان- المقتبس – تحقيق عبد الرحمان الحجي- نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت لبنان- 1965م- ص45-49-76. – عزيز حداد نظام الجند في الاسلام حتى نهاية الدولة الأموية 132هـ 749م رسالة ماجستير غير مطبوعة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة السنة الجامعية 2005/2004 ص123.

4 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص177/ المقري أبو العباس أحمد بن محمد - نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب - تحقيق إحسان عباس- دار صادر بيروت- 1388هـ/ 1968م- ج1 ص377.

وهكذا ظلت القوى البربرية أداة الطيّعة بين يدي المنصور ابن أبي عامر يضرب بها على يد كل ناعق.

وبهذه السياسة المنتهجة يكون المنصور قد لامس هدفه المتوخى ألا وهو إبعاد الأرستقراطية العربية الأندلسية من الهيكلة العامة للجيش الأندلسي[1].

لا لشيء إلاّ لكون العناصر العربية مؤهلة بأن تظهر فيها شخصية لها من الصفات ما تستطيع منافسة الأسرة العامرية.

وكان من جملة من اعتمد عليهم المنصور بن أبي عامر في كسر شوكة رجال الدولة وموالي الحكم هم بنو برزال حيث أسند إليهم أعلى المراتب وعينهم على الولايات الهامة في الأندلس وخصّ أحد أعيان بني برزال وهو الحاجب أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله البرزالي[2] الذي ولاه قرمونة[3] وظل على رأسها طيلة الفترة العامرية إلى أن جدّد له سليمان المستعين[4] العقد عليها[5] وغدت قرمونة موئلا لأهله وصحبه إلى أن أطلت الفتنة فخاض بنو برزال غمارها واكتووا بنارها إلى جانب أضرابهم في البطون البربرية الأخرى[6].

ولما شق زيري بن عطية[7] عصى الطاعة سيّر إليه المنصور جيشا من البربر بقيادة بقيادة غلامه واضح الصقلبي الذي أشار على المنصور حرية اختيار الجند بنفسه.

---

1 -ارزقي محمد فرّادً - القوى المغربية في الأندلس خلال عهد الملوك الطوائف القرن الخامس الهجري 11 الميلادي- ديوان المطبوعات الجامعية- ص20.

2 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص73.

3 - قرمونة- مدينة بالأندلس تقع شرق مدينة إشبيلية على سطح جبل محصنة بالأسوار وهي باللغة اللاتينية كارب مويه إي "صديقي" افتتحها عبد الرحمان الناصر سنة 335هـ وهي من حصون الإسلام المشهورة وتمثل الجزء السادس من الحدود التي وضعها قسطنطين/ الحميري محمد بن عبد المنعم - الروض المعطار في خبر الأقطار- تحقيق إحسان عباس- مكتبة لبنان بيروت- 1975م- ص461/ والبكري أبو عبد الله بن عبد العزيز- المسالك والممالك- تحقيق جمال طلبة- دار الكتب العلمية بيروت- 1424هـ/2003م- ج2 ص381/ ابن سعيد علي بن موسى الغرناطي- المغرب في حلى المغرب- تحقيق د/ شوقي ضيف- دار المعارف مصر- 1953م- ص299.

4 - سليمان المستعين- هو سليمان بن حكم بن سليمان بن عبد الرحمان الناصر كنيته أبو أيوب أمّه أم ولد رومية اسمها ظبيبة عمره اثنان وخمسون سنة وسبعة أشهر ولي مرّتين/ ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص91.

5 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص73.

6 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص267- 268/ عبد الله عنان- المرجع السابق- ص147.

7 - زيري بن عطية- المغرواي المكني بأبي يسوف " الملقب بالفرطاس "

ويبدو من خلال النص الذي أورده صاحب مفاخر البربر أن واضحا كان يتحاشا تعيين زعماء البربر[1].

يقول صاحب المفاخر: "واستقدم ابن أبي عامر غلامه واضحًا الصقلبي الفتى الكبير من مدينة سالم[2] وكان أوثق غلمانه عنده، فعقد له على كور المغرب وقلده حرب زيري وشرط عليه واضح انتخاب الجند فأجابه إلى ذلك ..."[3].

لم يبد المنصور بن أبي عامر عدم موافقته عندما رفض واضح اهتمام قادة البربر في هذه المعركة، وهذا في اعتقادي تجنبا لإثارة الخلاف الذي يمكن أن يفضي إلى إشعال نار الفتنة بين العناصر الأندلسية والبربرية، إلاّ أن المنصور كان على دراية بدور البربر في هذه المواجهات فضلا عن كونهم أبناء المنطقة ويعرفون مسالكها وطبائع سكانها.

فبادر المنصور إلى إمداد الجيش حين نزوله بمدينة طنجة بكوكبة من قواد البربر وأمرائهم[4] وكان من بينهم بنو برزال[5] وعندما نشبت المعركة على مدى ثلاثة أشهر كانت الغلبة فيها لأصحاب زيري وانهزام جيش واضح[6] وألقي اللّوم وتبعات الهزيمة على بني برزال واتهمهم واضح بالتواطؤ والمداهنة، وهنا يتجلى في اعتقادي دور بني برزال وأهميتهم في ترجيح كفة النصر أو الهزيمة وبعث بهم واضح إلى المنصور بن أبي عامر الذي عنفهم بشدّة، ولكنهم تمكنوا من إثبات براءتهم وأظهروا بطلان إدّعاءات واضح.

فآثر المنصور أن يعفو عنهم لقوّة حجتهم، ولعّل المنصور، كان يدرك نوايا واضح التي كانت تتجلى -في نظري- في بغضه الشديد للبربر ولأسباب قد ذكرناها سلفًا، تجنب المنصور تقريع واضح وازدادت ثقته بالبرازلة وبعث بهم إلى الشمال لتعزيز الجيوش

---

1 - مجهول - مفاخر البربر- تحقيق أ/د عبد القادر بوباية- دار أبي رقراق الرباط المغرب- 2005م – ص117.

2 - مدينة سالم-

3 - مفاخر البربر- نفسه- ص117.

4 - وهم إسماعيل بن البوري أحد أفراد قبيلة مكناسة، ومحمد بن عبد الله بن مدين، ومحمد بن خير الخزري وابن عمه بكساس بن سيد الناس وخزرون بن محمد الأزداجي وابن عمهم وزيري بن خزر وأبو بخت بن عبد الله ابن بكر/ مجهول- مفاخر البربر- المصدر السابق- ص118.

5 - نفسه 118.

6 - نفسه 119.

الأندلسية المحاربة في غليسية بقيادة ولديه عبد الملك[1] وعبد الرحمان[2] اللذين أبليا بلاءا حسنًا في هذه الربوع[3].

لعلنا ندرك في تصرفات واضح الصقلبي، مدى حقدة على البربر وخاصة بني برزال، وهذا بدءًا من اشتراطه على المنصور انتخاب الجند إلى اتهام بني برزال بالتقصير والمداهنة.

وندرك في المقابل حسن تدبير المنصور بن أبي عامر وقبوله لحجج بني برزال، دون اللجوء إلى المقابلة بين العصبيات لتقصي الحقائق، فاستطاع بحنكته ودهائه أن يمتص غضب بني برزال وإشغالهم بإقحامهم في الجبهة الشمالية لمؤازرة الجيش الأندلسي.

وكانت هذه التدابير إحدى ملامح العبقرية التي تميزت بها هذه الشخصية الفذّة في تاريخ الأندلس.

دور بني برزال في الفتنة القرطبية:

من الأهمية بمكان قبل الحديث عن دور بني برزال في الفتنة القرطبية أن نعرج على خلفياتها القريبة,

والأسباب التي كانت وراء دخول البربر في لججها. مما لا شك فيه أن أهل الأندلس ظلوا ينتظرون الفرصة التي تمكنهم من الانقضاض على البربر و خاصة الطارئين منهم على الأندلس في عهد الخلافة

---

1 - عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر. يكنى أبا مروان ويلقب بسيف الدولة المظفر، افتتح عهده بإسقاط سدس الجباية عن جميع البلاد فحرصعلى إظهار العدل، وحماية الشرع، استمرت فترة حكمه ما يقرب من سبعة أعوام وكانت أيامه أعيادًا حتى كانت تسمى بالسابع تشبيها بسابع العروس.

- المراكشي عبد الواحد بني علي- المعجب في تلخيصأخبار المغرب- تحقيق د/ صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية صيدا بيروت- 1426هـ/ 2006 م- ص38/ ابن عذارى- المصدر السابق- ج2 ص36.

2 - عبد الرحمان بن المنصور بن أبي عامر - تلقب بالمأمون أمه حقيدة لصانشوغرسية ملك نافار سمّته العامة بشنجول كان شابًا أحمقا طائشًا وأراد أن يستأثر بالسلطة الشرعية في الدولة وطلب من الخليفة هشام أن يوليه العهد من بعده فكان ذلك سببا في انحراف أكابر الأندلس عنه.

- ابن عذاري- المصدر السابق- ص383/ ابن الخطيب- أعمال الأعمال- ص90/ أحمد مختار العبادي- المرجع السابق- ص460.

3 - مجهول- فاخر البربر- ص119.

و كانت البداية حين خلف" عبد الرحمان شنجول" أخاه "عبد الملك المظفر", و كان أهل قرطبة يبغضونه و يحتقرونه لاستغراقه في ملذات الحياة و شهوات النفس .[1]

يقول ابن الكردبوس: " و عاشر الأجناد و الرعايا أسوأ معاشرة, وعكف على المعاصي, و شرب الخمور مجاهرة, و نصر الباطل و غير الحق, و أذل أهل الشرف و رفع كل وغد أحمق حتى أداه غالب حمقه

و هوسه أن ضم الناس إلى مبايعته بولاية العهد من بعد "هشام "و تسمى بولي عهد الإسلام".[2]

وقد زاد من سخطهم عليه موافقته الخليفة "هشام المؤيد" على توليه العهد من بعده[3] وقد لقي هذا الإقدام سخطا واستنكارا, فضلا عن كونه ذا أخلاق سيئة لا ترشحه لتولي هذا المنصب الخلافي الذي يقتضي النسب القرشي[4].

كما أن أخاه ووالده وبالرغم مما كان لهما من هيبة وسلطان, وما أثبتاه من كفاية, إلا أنهما لم يجرءا على الإقدام عليه[5].

مما لاشك فيه أن صدور القرار الخلافي بتولية العهد, قد أثار عليه ثائرة بني مروان, والفقهاء والعامة في قرطبة.

وفي اعتقادي أنه لما رأى تألب هذه الحشود ضده, عمد إلى امتصاص غضبهم.

وأملا في استمالتهم خرج لغزو قشتالة في الربع الآخر سنة 399هـ/يناير 1009م, خارجا بذلك عن المألوف, إذ لم يكن من عادة الجيوش أن تغزو في فصل الشتاء ولكنه لسوء تدبيره أصر على الخروج.

ولم يعد عنه بطائل بسبب البرودة الشديدة من جهة, وتحصن ألفونسو الخامس برؤوس الجبال من جهة أخرى, وما إن وصل إلى طليطلة حتى وافته الأنباء بانقلاب حدث ضده[6]، وأن الثائرين استولوا على مدينة الزاهرة ونهبوا محتوياتها, وأملا في رأب الصدع

1- ابن الخطيب- المصدر السابق, ص

2- ابن الكردبوس عبد الملك- تاريخ الأندلس- تحقيق أحمد مختار العبادي- المعهد المصري للدراسات الإسلامية- مدريد- 1971, ص

3- ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص 45.

4- نفسه- ج3 ص

5- حمدي عبد المنعم- دراسات في التاريخ الأندلسي- مؤسسة شباب الجامعة- الاسكندرية- 1995- ص26.

6- ابن الخطيب- المصدر السابق- ص97.

أعلن من طليطلة تخليه عن منصب ولاية العهد وتمسكه بمنصب الحجابة, وفي الوقت نفسه أرسل عماله في مختلف كور الأندلس, يدعوهم إلى المساندة إلا أن محاولته تلك باءت بالفشل, ولما أحس رجاله بأن ساعة شنجول قد أزفت وأن الوقوف إلى جانبه يعرضهم إلى التهلكة, انقضوا عليه وكان على رأسهم "واضح الفتى العامري"، كما تخلى عنه جنوده من البربر، وهم قوام الجيش العامريين, وأعلنوا عصيانهم لأوامره القاضية باقتحام قرطبة عنوة، وذلك لعدم المخاطرة بأسرهم وأموالهم وممتلكاتهم فيها.

فلما يئس شنجول من إقناعهم يمم نحو دير أرملاط[1] أملا في حشد قواته والدخول بهم إلى قرطبة, فأرسل إليه الخليفة المهدي فرقة من الجند فقبضوا عليه واحتزوا رأسه في الثالث من شهر رجب سنة 399هـ/03- 3- 1009م, واعتلى محمد بن هشام بن عبد الجبار سده الحكم في 17 جمادى الآخرة سنة 399هـ/1009م وتلقب بالمهدي.

كان مقتل شنجول وإعلان المهدي نفسه خليفة, بداية لمرحلة جديدة من الاضطرابات دامت أكثر من عقدين من الزمن.

وأما فيما يخص دور بني برزال في الفتنة القرطبية, فإنهم كغيرهم من الطوائف البربرية خاضوا غمارها, واكتووا بنارها, كما أنهم لم يترددوا في الانضمام إلى الخليفة المهدي "محمد بن هشام" الذي قلب لهم ظهر المجن[2]، وأساء إليهم غاية الإساءة، وزاد في إهانته لهم على إثر الاقتتال الذي دار بينه وبين خصومه الثائرين تحت قيادة "هشام بن سليمان", حيث أسفرت هذه المواجهة على انتصار المهدي وهزيمة هشام ومجموعة من العامريين والبربر, وتمت تصفيتهم بعد القبض عليهم، وهاجم العامة دور البربر فنهبوها ودمروها وذلك سنة 399هـ/1009م, وحيال هذا التنكيل انسحب البربر إلى أرملاط إحدى ضواحي قرطبة، لكن ذويهم تعرضوا لمعاملة عنيفة فقد سلط عليهم محمد المهدي عامته من أراذل أتباعه فأمعنوا في اهانتهم وقتلوا بعضهم بتحريض منه[3].

1- ابن عذاري- المصدر السابق- ص49.

2 - المجن:

3- ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ,ص

يقول ابن الخطيب:" فقتل هشام بن سليمان صبرا بين يديه وانتهبت دوره ودور من تلبس به من البرابر وغيرهم وانحاز البرابرة و المغاربة من القبائل بجميعهم إلى أرملاط وراسلهم محمد بن عبد الجبار فلم يلتفتوا إليه"[1].

أدرك المهدي بعد هذه الأحداث الدامية مدى فداحة الخطأ الذي وقع فيه, وباءت كل محاولاته في استمالتهم بالفشل, وردوا رسله ويمموا نحو الشمال إلى قلعة رباح, واتخذوها مركز انطلاق لمهاجمة قرطبة,وتنصيب إحدى الموالين لهم مكانه.

ووقع اختيارهم على سليمان بن الحكم الذي نجا من المذبحة التي راح ضحيتها "هشام بن سليمان" وأنصاره، ولقبوه بالمستعين, ولما علم المهدي بجدية الموقف، وعزم البربر على المواجهة، أرسل إليهم عباس البرزالي الذي دعاهم إلى إعمال العقل وحسن الروية والعودة إلى بيوتهم وأهليهم، وهو ما يؤكده ابن عذاري حيث يقول: "قد أمّنكم أمير المؤمنين أمانا تامًا؛ فارجعوا إلى دوركم ومحالكم؛ فقالوا: ليس لرجوعنا من سبيل لأنه إن أمّننا لم تؤمّنا رعيته، وإن أمّنتنا عامته لم يؤمنا جنده"[2].

مما لاشك فيه حين أن اختيار عباس البرزالي لهذه المهمة يؤكد رغبة الخليفة القائم في استعطاف البربر وتأكيد صدق نيته.

وفي موقعة وادي آره التي دارت رحاها بين المهدي والمستعين, كان البربر ممن حالفوا هذا الأخير, واستشهد منهم ومن بني برزل وبني يفرن 17 فارسا[3].

واستبسل البربر المنضوين تحت لواء سليمان وبخاصة منهم بني برزال أبرز مقاتلي البربر, خاصة أن المهدي صرح على رؤوس الأشهاد أنه لن يهدأ له بال ولا يستقر له أمر حتى يقضي على البربر[4]، وعلى أية حال فإن بني برزال ورغم ما فقدوه من خيرة رجالهم في أتون الحرب, إلا أن جهودهم لم تذهب هدرا في مناصرة سليمان المستعين, فهو عندما استقر بقرطبة سنة 403هـ/1012م أقطع بني برزال مع بني يفرن مدينة جيان, كما جدد لإسحاق البرزالي ولايته على قرمونة[5].

1- ابن الخطيب- المصدر السابق- ص113.
2- ابن عذاري- نفس المصدر- ج3 ص
3- نفسه- ج3 ,ص98.
4- نفسه- ج3 ,ص95-96.
5- نفسه- ج3 ,ص 113

وقد تحدثت عن هذه التعيينات بالتفصيل في الفصل التمهيدي لهذا البحث.

ولم تقتصر تعييناته في الأندلس، بل تعدتها إلى العدوة المغربية حيث ولى عليًا بن حمود الإدريسي[1] على مدينة سبتة.

وولى أخاه القاسم على مدينة طنجة وأصيلا [2] والجزيرة الخضراء، وكان الأخوان قد عبرا إلى الأندلس ضمن أمراء العدوة المغربية من البربر ولما اشتعلت الفتنة في الأندلس إنضم هو وأخوه إلى حزب سليمان المستعين والموالين له من البربر [3] فعقد لهما على هذه المناطق جزاء مساندتهم له ووقوفهم إلى جانبه.

فلما بلغ ذلك عبد الله البرزالي وكان في مقدمة من عارض هذا القرار، فهب إلى المستعين علّه يقنعه العُدول عن هذا التعيين الذي رأى فيه عبد الله البرزالي إغماطً لبربر زناتة الذين كانوا السبّاقين للهجرة نحو الأندلس وهم ممن أبلى البلاء الحس منذ عهد الحكم المنتصر 350هـ/366هـ.

يقول صاحب أعمال الأعلام "... فلقد دخل على سليمان عبد الله البرزالي من رؤساء البرابرة لما بلغه تقديم بني حمود بضفتي العدوتين فقال: "بلغني أنك وليت بني حمود على المغرب"، فقال: نعم، قال: "أليس العلويين طالبيين"، فقال: نعم، فقال له: "تأتي الأحناش فتردّهم ثعابين"، فقال له: "قد نفد الأمر بذلك !"[4].

1- علي بن حمود الإدريسي- بويع علي بن حمود الحسني المسمى بالناصر، بالخلافة وتغلب على قرطبة وتملكها واستمر في قتاله إيّاها بجيوش المتغليين والثوار في أقطار الأندلس ابن حزم أبومحمد " طوفة طاقة في الألفة والألاف" تحقيق فاروق سعد منشورت دار مكتبة الحياة بيروت لبنان 1975 ص262.

2- أصيلا: مدينة صغيرة من مدن الشمال على الشاطئ الأطلسي أسسها الرومان وكانت خاضعة لأمير سبتة الذي كان تابعًا للرومان ثمّ استولى عليها القوط إلى أخذها منهم المسلمون عام 94م/ الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي - وصف إفريقيا - ترجمة د/ محمد حجي ود/ محمد الأخضر- دار الغرب الإسلامي- 1983م- ص311 -312/ الصديق بن العربي - كتاب المغرب- دار الغرب الإسلامي/ 1404هـ/1984م- ص57.

3- الضبي أحمد بن يحي بن عميرة- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس- تحقيق صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية صيدا بيروت- 1426هـ/2005م- ص31.

4- ابن الخطيب لسان الدين- أعمال الأعلام- ص128-129.

وفي اعتقادي أنّ عبد الله البرزالي أدرك بحصافة رأيه وبعد نظره أن هذه العائلة تملك من أسباب القيادة والظهور ومن ثمّ الوصول إلى سدّة الحكم ما لا تملكه أسرة أخرى لاسيما وهم ينتسبون إلى سلالة الأدارسة العلويين الذين يتصل نسبهم بإدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[1] وإدريس هو أحد الإخوة الفارين من بطش العبّاسيين.

على أثر انهزام محمد بن عبد الله أمام العلويين في موقعة "فخ" وهو واد في أحواز مكة وكان لحاق إدريس بالمغرب على حدّ قول ابن الخطيب في شهر ربيع الأول من سنة 172 هـ[2].

غير أن عبد الله البرزالي سرعان ما بدل موقفه حيال بني حمود، فقد اعترف بخلافة القاسم بن حمود الذي تولى الخلافة بقرطبة سنة 408هـ/1013م خلفا لأخيه علي بن حمود[3] وبإيعاز من محمد بن إسماعيل بن عباس الذي ظل حريصًا على محالفة البرزالي بسبب المصالح المشتركة من جهة ومن جهة أخرى كون قرمونة حصن إشبيلية الأمامي.

وهكذا ظل موقف عبد الله البرزالي من بني حمود متأرجحًا بين التأييد والإعراض، كل ذلك خوفًا من مطامعهم في قرمونة[4]، فآثر أن ينضوي تحت لواء العباديين لتحقيق مصالحه.

وعندما عزم يحي بن علي بن حمود على غزو إشبيلية، أسرع برابرة قرمونة بقيادة أميرهم محمد بن عبد الله البرزالي متضامنين مع بني حمود، فحاصروا إشبيلية مدة طويلة في محاولة لتجويعها والضغط عليها تمهيدًا لإخضاعها، ونالت الأزمة من أهالي المدينة، فاضطر ابن عباد على التفاوض والاعتراف بالحموديين.

1- ابن حزم أبومحمد- جمهرة أنساب العرب - تحقيق لجنة من العلماء- دار الكتب العلمية بيروت- 1403هـ/1983م – ص49/ الضبي- المصدر السابق- ص31.

2- ابن الخطيب لسان الدين- تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام - تحقيق. د/أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني- دار الكتاب الدار بيضاء 1964م - ص189.

3- ابن خلدون- المصدر السابق- ج ص112

4- عبد الله عنان- المرجع السابق- ص35.

وكي يضمن يحي جدّية مفاوضيه أخذ عباد ابن أبي القاسم رهينة وعاد به إلى مالقة[1] بعد ثلاثة أشهر[2].

وللمتأمل أن يدرك في موقف عبد الله البرزالي المتذبذب، فبالرغم من خوفه مصير قرمونة من بني حمود إلاّ أنّه أثر الوقوف إلى جانب بني عباد، لما كان يدركه من قوة العباديين في تماسك جبهتهم الداخلية، وقدرتهم على القتال.

العلاقة مع الملوك الطوائف:

لما أراد أبو القاسم بن عباد[3] توسيع أطراف مملكته من الشمال اصطدم مع المنصور عبد الله بن الأفطس صاحب بطليوس وهم جيرانه من هذه النواحي سنة 421هـ/1030م فقد تباريا في من يكون له السبق للظفر بمدينة "باجة"، وكان هذا أول صدام مسلح لبني عباد[4] ليجعل من باجة[5] نقطة ارتكاز وانطلاقا لباقي الدويلات المتناثرة هناك[6] ومنها دويلة بن مزين[7] في شلب[8] ودولة بني هارون[9] في شنتمرية الغرب، ودولة البكريين[1] في أونبة

1- مالقة: مدينة على شاطئ البحر أهلة كثيرة الديار وهي في غاية الحصانة والمنعة، وهي من أقدم المدن في الأندلس - الحميري عبد المنعم- المصدر السابق- ص517.

2- ابن الخطيب- أعمال الأعلام- ص151.

3- أبو القاسم محمد بن عباد: محمد بن عباد بن محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد كان رجل المغرب قاطبة له الإشارة والصيت- محمود- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار- تحقيق علي الزواوي ومحمد محفوظ- دار الغرب الإسلامي ج1 سنة 1988م- ص447.

4- فرار محمد أرزقي- المرجع السابق- ص84.

5- باجة- من أقدم مدائن الأندلس نزلها جند مصر وكان لواؤهم في المسيرة بعد جند فلسطين وتفسير باجة في المعجم الصلح وهي حصينة ومنيعة- الحميري عبد المنعم- المصدر السابق- ص75.

6- شريفة دحماني- العلاقات السياسية بين الطائفتين الأندلسية والبربرية في جنوب الأندلس في عصر ملوك الطوائف- مؤسسة شباب الجامعة 2006- ص153-154.

7- بني مزين: ظهر بها المظفر عيس بن محمد بن سعيد بن مزين سنة خمسين وأربعمائة ضايقه وشن عليه الغارات وتمكن من دخول المدينة وقتله ودامت دولته خمس سنين- ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص298.

8- شلب: تجاور مملكة اشبيلية وهي في غربها وشمالها ويخرج في سواحلها العنبر من البحر والمحيط/ ابن سعيد علي بن موسى - المغرب في حلى المغرب- تحقيق شوقي ضيف- دار المعارف مصر 1953م- ص38.

9- بني هارون: قام بها محمد بن سعيد بن هارون سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وكانت بينه وبين المعتضد وقائع ونوازل- ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص299.

أونبة وشلطيش Saltés ودولة بني خزرون في أوركش، وانتزع بعض المدن التابعة للمملكة بطليوس .

فاستجار أبو القاسم بن عباد بمحمد بن عبد الله البرزالي بالرغم من كونه بربريًا، فعبد الله عنان يوعز هذا التقارب إلى سببين اثنين أولهما: كون قرمونة كانت حصن اشبيلية من الشرق، ولأن البرزالي كان يخشى سطوة بني حمود وأطماعهم في قرمونة.

وفي اعتقادي أن أبا القاسم بن عباد كان ينتهج سياسة التكامل السياسي للإمارات البربرية أملاً في ضمّها إلى مملكته حين يكون ذلك ممكنًا، لذلك آثر الإستعانة بها والتحالف مع رؤسائها ضد الإمارات الكبرى .

وقد يكون في ضمني سبب التقارب مع بني برزال لكونهم مقاتلين أشاوس، أثبتوا جدارتهم في الكثير من المواقع .

وربما تكون النية نفسها قد راودت محمد بن عبد الله البرزالي لإضعاف مركز إشبيلية المتنامي، وبالتالي تفادي خطر ابن عباد.

إن صفة التحريض التي ميزت شخصية البرزالي ليست إلاّ حيلة لا يروم بها أي مبتغًا وإنما كانت صفة تشنجية لاتقاء أعدائه.

يقول ابن حيان: "... وكان ابن عبد الله بقرمونة قطب رحى الفتنة كثيرا ما يحرض القاضي ابن عباد على الخروج إلى بلد ابن الأفطس وإلى قرمونة فيعمها الجهات كلّها تدويخًا كلما آب من جهة صار إلى سواها حتى أثر آثارًا قبيحة"[2].

وعلى أيّة حال، فقد تبارى كل من القاضي محمد بن عباد والمنصور عبد الله بن الأفطس، كل يريد باجة وعمارتها فبعث محمد بن عباد ابنه إسماعيل وانظم إليه –كما أسلفنا- حليفه محمد بن عبد الله البرزالي أنّ المنصور فقد استعان بابن طيفور صاحب مرتيلة قاعدة شلب، وأوكل بمهمة إلى ابنه محمد الذي استطاع أن يصل إلى المدينة قبل

1- البكريين: قامت دولتهم بزعامة عبد العزيز البكري صاحب أونبة وشلطيش وهو والد الجغرافي أبي عبيد البكري صاحب كتاب " المسالك والممالك "، كانت أيامه أعيادا من رخاء السعر وأمن السبيل/ ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص299.

2- ابن بسام- المصدر السابق- ج2، ص35.

غريمه إسماعيل ومحمد البرزالي اللّذان تمكنا من جرّ ابن الأفطس إلى اتوى المواجهة خارج أسوار المدينة.

وكانت الدائرة على ابن الأفطس[1] وباندحار ابن الأفطس وانسحاق فلول جيشه[2] عادت باجة لابن عباد يقول ابن حيان: "... واتصل الحصار بابن الأفطس بباجة، وانصدع الجمع عن أسره وقتل كبار رجاله وبعث بالأسرى إلى أبيه وكان في جملتهم أخ لابن طيفور صلب بأشبيلية وحبس ولد ابن الأفطس عند صاحب قرمونة ابن عبد الله"[3]. وتألم ابن الأفطس لهذه النهاية المحزنة إلى آل إليها ابنه محمد الذي وقع في أسر عبد الله البرزالي[4] وكذا الحال بابن طيفور الذي صلب آخوه في اشبيلية[5].

وفي ربيع الأول سنة 421هـ/فبراير ومارس 1030م أطلق محمد بن عبد الله البرزالي سراح المظفر بن مسلمة بن الأفطس وعرض عليه البرزالي أن يعرّج على اشبيلية لتقديم الشكر لمحمد بن إسماعيل بن عباد على منه وعفوه وإطلاق سراحه فرد المظفر قائلا: "مقامي في أسرك أشرف عندي من تحمل منّة فإما انفردت باليد عندك وأبقيتني على حالي"فأعجب البرزالي بمقاله وسرّ أيمّا سرور فأطلق سراحه بعد إكرامه[6].

ومما تقدم تجدر الإشارة إلى أمر في غاية الأهمية، وهي ظاهرة الانتماء العرقي أو ما يسمى بقرابة العصب Parenté agnatique التي تظهر غالبًا في الحالات العصبية لأبناء العرق الواحد.

فإصرار المظفر على البقاء في أسر محمد بن عبد الله البرزالي على أن يعرج على ابن عباد فهو في رأيي ليس موقفًا عدائيا نابعًا مما جّره ابن عباد على بني الأفطس بل هو موقفا نابع من النعرة العصبية وإلا كيف تفضيل ابن برزال وهو ممن شارك في هذه الحرب.

---

1 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص73/ سحر عبد العزيز سالم- المرجع السابق- ج1 ص373.
2- ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص202/ د/ صلاح خالص- اشبيلية في القرن الخامس الهجري 414- 461- دار الثقافة بيروت- 1965م- ص .
3- ابن بسام- المصدر السابق- ج2، ص8.
4- ابن خلدون- نفسه- ج4 ص188.
5- ابن بسام- نفسه- ج2 ص8/ حمدى عبد المنعم محمد حسن- المرجع السابق- ص60.
6- ابن بسام- نفسه- ج2، ص9.

وتعضيدًا لهذا الرأي يقول الدكتور محمد بن عبود: "إن أمثلة الصراع بين ملوك الطوائف من أصل عرقي مماثل لا يثبت في حدّ ذاته غياب العصبية كقوة محركة للعلاقات بين ملوك الطوائف إلا أنها تشير إلى أن هذه العلاقات لا تكن مبنية على نمط عرقي واضح لمجموعات متحالفة من ملوك الطوائف العرب والبربر والصقالبة[1].

وحول الدور الذي قام به محمد بن عبد الله البرزالي في إثارة الفتن وفي تحريض من هو أقدر على إذكاء نارها -كما أسلفت-، هو ما أورده ابن بسام نقلاً عن ابن حيان حيث يقول: "وكانابن عبد الله بقرمونة قطب رحي الفتنة، كثيرًا ما يحرّض القاضي ابن عباد على الخروج إلى بلد ابن الأفطس وإلى قرطبة"[2].

ولا يقف ابن حيان عند هذا الحد، بل يشير بصراحة إلى أنّه مصدر التوتر والقلاقل التي شهدتها المنطقة، وأنه من أشتد المعارضين على عودة الخلافة في قرطبة[3] حتى اضطر وزراءها إلى الاستعانة ضده بفريق من بربر بني برزال بشذونة الذين كانوا عصب زناتة بأساً ومراصاً.

يقول ابن حيان معلقا على دور البربر وحبكهم للمؤامرات في هذه الجهات من الأندلس "فكان في كل بلد جملة فيها سالت عن أهل البلاد سيول بها وخلّطوا الشر بين رؤسائها، واستخرجوا بذلك، ما أظهروه من دنانيرهم وخلعهم...... حلوا محل الملح في الطعام ببأسهم الشديد وقاموا مقام الفولاذ في الحديد فلا يقتل الأعداء إلاّ بهم ولا تعمر الأرض إلا في جوارهم ...."[4].

1- أحمد بن عيود- مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره - منشورات عكاظ 1987م- ص62.

2- ابن بسام- المصدر السابق- ج3 ص8.

3- عبد الله عنان- المرجع السابق- ص36.

4- ابن بسام- نفسه- ج2 ص8.

العلاقة مع الحموديين:

لما يئس يحي بن علي بن حمود[1] معاودة الكرة على قرطبة التي تمكن عمه القاسم بن حمود من استعادة خلافته بها[2] استقر به المقام بمالقة قاعدة انطلاق الحموديين وموئلهم الآمن، اتخذها يحي المعتلي عاصمة ملكه ومنها بسط سلطانه على معظم قواعد الأندلس[3] واجتمع البربر على طاعته وسلموا إليه ما بأيديهم من الحصون والمدن[4].

وفي هذه المرحلة كان محمد بن القاسم بن عبّاد بصدد توسيع مملكته من جميع الجهات كما أسلفت، بمؤازرة محمد بن عبد الله البرزالي حليفه ضد العصبية البربرية[5] وكان المعتلي يخشى إطماع ابن عباد ويعرف مدى تأثير ابن برزال وتحريضه لابن عباد فلما أحس منهما الغدر[6]، قرّر الخليفة الحمودي السير نحو قرمونة وتصفية الحساب مع ابن ابن برزال والاستعداد لمناهضة أشبيلية.

ولما لم يكن في مقدور محمد البرزالي مقاومة يحي بن محمود لاذ بالفرار نحو أشبيلية مستجيرًا بابن عباد.

والدارس لتطور الأحداث في المنطقة التي إدلهمت فيها الخطوب والمناوشات يدرك مدى الانعكاسات الخطيرة التي أحدثها هذا التقارب بين بني عباد في اشبيلية وبني برزال في قرمونة.

وفي ضني أنه من غير المستبعد به أن يكون يحي بن علي بن حمود أدرك هذا السر وراح يفتّ عضد ابن عباد بالقضاء على البرزالي، وانطلاقا من قرمونة أخذ المعتلى يشن هجماته على أشبيلية، ويقرع طبول الحرب على ابن عبّاد، علّه يمكن في استرجاع

1- يحي بن علي بن حمود- اختلفت كنيته فقيل أبو إسحاق وقيل أبو محمد تسمى بالخلافة بقرطبة سنة ثلاثة عشرة وأربعمائة ثمّ هرب عنها إلى مالقة، ثم باءت محاولته في العودة إلى قرطبة. وبقي يتردد عليها بالعساكر/ الحميدي- جذوة المقتبس- ص34-35/ ابن عذاري- البيان المغرب- ج3 ص144.

2- ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص144.

3- الحميدي - المصدر السابق- ص35/ عبد الله عنان- المرجع السابق- ص36-37.

4- ابن الأثير- المصدر السابق- ج9 ص278.

5- سحر عبد العزيز سالم- ج1 ص282.

6- عبد الله عنان- نفسه- ص37.

اشبيلية باعتبارها من أملاك الحموديين[1] ولما شعر ابن عباد من خطورة الموقف وربما دار بخلده يوما أن الحموديين لما ضاعت منهم الخلافة بقرطبة عزموا على أن يقيموها في اشبيلية موئلهم الأول، كيف لا ولهم في الناس النداء المسموع والحقد المعلوم "على حدّ قول ابن الخطيب"[2].

واعتبارًا لهذا التوجس ودرءًا لخطر المحموديين، اهتدى ابن عباد بدهائه وحنكته إلى مناورة غربية[3] حيث زعم أن هشامًا قد ظهر وأنه عثر عليه، ولم يكن هذا الخليفة المفترض سوى رجل شديد الشبه بهشام المؤيد، كان يعمل مؤذنا بمسجد في قرية من قرى اشبيلية، فخاطبه ابن عباد بألقاب الخلافة وادخله القصر وطلب من ملوك الطوائف الآخرين الاعتراف وتجديد البيعة لهشام[4] فلم تنطل هذه الحيلة الغربية على أغلبهم.

وما أبداه البعض من تأييد[5] إلا من أجل مداراة ابن عباد إلى حين ومنهم الوزير أبو الحزم بن جهور[6].

وفي عيد الأضحى سنة ست وعشرين وأربعمائة وعلى إثر نبأ حمله أبو الفتح البرزالي وهو ابن عمّ محمد بن عبد الله البرزالي إلى القاضي بن عباد مفاده أن يحي بن علي بن حمود غارق في شربه ولهوه.

وفور تلقي النبأ جهز ابن عباد جيشا بقيادة ابن إسماعيل واتجه نحو قرمونة لتحريرها واتجه نحو قرمونة لتحريرها من بني حمود تصحبه قوات البرزالي وذلك سنة سبع وعشرين وأربعمائة 1030م[7] وجاسوا خلال ديار قرمونة ليلاً.

1- عبد الله عنان- المرجع السابق- ص37.

2- ابن الخطيب- أعمال الأعلام- ص154.

3- شنّع ابن حزم بهذه الأسطورة ووصفها بأنها " أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها إلى نقط العروس.

4- ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص197/ ابن الخطيب- نفسه- ص154.

5- دحماني الشريفة- المرجع السابق- ص183/ صلاح خالص- المرجع السابق- ص123.

6- ابن عذاري- نفسه- ج3 ص190.

7- نعر- صاح، وصوت بخشونة والتعبير والصياح في حرب أوشر/ الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب- القاموس المحبط- تحقيق محمد نعيم العرقسوسي- مؤسسة الرسالة 1416هـ/1996م.

وكمن الباقي في أماكن مستمرة، ويحي المعتلي عاكفا على معاقرة الشراب، وقد نال منه يقول ابن عذاري: "فنعر[1] نعرة ووثب قائمًا يقول وأبياض بختي الليلة وابن عباد زائري"[2].

وأمر بالإسراج وهمّ بالخروج وأصحابه يتلاحقون لملاقاة قوات البرزالي وابن عباد.

والتقى الجمعان في قتال عنيف، ورجحت كفّه النصر لصالح المعتلي لولا بروز قوات ابن عباد من كمائنها وأجهزت عليه، وأصيب جيش المعتلي بالإرجاف والهلع فانهزم أصحابه وسقط هو صريعًا واحتزت رأسه، وحملت إلى محمد بن إسماعيل بن عباد في اشبيلية، فخرّ ساجدًا وسجد من بحضرته[3] وعمت الفرحة في كامل إشبيلية وظل إعمال السيف في بربر قرمونة متوصلاً ورقّ محمد بن عبد الله البرزالي، وأشفق على بني جلدته وبدت عصبيته لقومه فطلب من إسماعيل رفع السيف عنهم فأجابه إلى ذلك وأقنعه إسماعيل بأنها ضرورة الحرب التي لا محيد عنها[4].

ثم واصل البرزالي قتاله لقوات المعتلي، ودخل قرمونة عبر ثغرة قد عاينها في سورها الشمالي، حتى دخلها عن حيلة ودخل دار المعتلي واستولى على كل ما فيها يقول ابن عذاري: "فدخل منه إلى دار يحي المعتلي فحاز بجميع ما ألقاه بها من مال أو متاع واستحل على نسائه وأباح حرمه لبنيه واستحل خدامهن واستولى على مجلسه ونصر نصرًا لا كفاء له وصدق الخبر على أهل قرطبة فما صدقوه من الفرح"[5].

وفي تقديري أن موت يحي بن علي بن حمود كانت بداية لعهد جديد من الصراع بين الطائفتين الأندلسية والبربرية.

1- ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص188.

2- ابن الخطيب لسان الدين- المصدر السابق- ص137/ محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص38/ حسن مؤنس- موسوعة تاريخ الإسلام-

3- ابن عذاري- نفسه ج3 ص189/ ابن الخطيب- نفسه ص137.

4- ابن عذاري- المصدر نفسه- ص189.

5- نفسه- ج3 ص188/ حمدي عبد المنعم- المغرب والأندلس- دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية- 1998- ص431.

فبالنسبة للطائفة البربرية كان فقدان يحي المعتلى خسارة جسيمة حيث فقدوا بموته شخصية محورية[1] مرشحة لاستقطاب بقية البربر في جبهة واحدة.

ومع ذلك سعى البربر إلى رأب الصدع، وجمع كلمة البربر باستدعاء أخيه إدريس على بن حمود[2] الملقب بالمتأيّد بالله، وكان وليّا على سبته، وبويع له بالخلافة من مالقة سنة 427هـ/1035م، ومن أجل أن يقف في وجه بني عباد الذين بدأ خطرهم يلوح في الأفق، وباتوا يشكلون خطراً على الطائفة البربرية، فقد دعى إلى إقامة حلف يضم حبوس بن ماكس الصنهاجي صاحب غرناطة، ومحمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة وزهير العامري صاحب المرية[3]، ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أسباب انقلاب محمد بن عبد الله البرزالي على حليفه ابن عباد، في اعتقادي أن محمد بن عبد الله البرزالي يتمتع بنخوة بربرية عالية جعلته يستجيب لهذا الحلف الذي دعا إليه إدريس بن علي بن حمود "كما أن البرزالي أراد أن يكفر عن ذنبه في مقتل يحي المعتلي.

هذا من جهة ومن جهة أخرى يمكن إضافة حقد البرزالي على جيش ابن عباد الذي أعمل السيف في البربر عند أسوار قرمونة[4] لقد كانت هذه الأسباب كافية لتفض عبد الله البرزالي لحلف ابن عباد.

وانطلقوا نحو اشبيلية وعرّجوا على أحوازها فاحتلوها وعاثوا فيها[5] فسادًا، وفي غضون هذه المهمة عقدوا البيعة لإدريس بن علي بن حمود، إلا أن حملتهم باءت بالفشل ولم تكلل بالنجاح وعادوا أدراجهم نحو قواعدهم لم ينالوا شيئا من ابن عباد.

1- صلاح خالص- المرجع السابق- ص125.

2- إدريس بن علي بن حمود

3- ابن عذاري- نفسه- ج3 ص191/ عبد الله عنان- نفسه- ص124.

4- حمدي عبد المنعم- المرجع السابق- ص438.

5- كان استدعاءه من قبل أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف " ابن بقنة" وفي الخادم الصقلي وهو يومئذ بسببه وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حسن يحي المفتول مكانه بسبتة فأجابهما إلى ذلك/ المراكشي- المصدر السابق- ص54.

العلاقة مع بني زيري أصحاب غرناطة:

لم تكن العلاقة بين بني برزال وبني زيري وليدة الأحداث التي أسفرت عن سقوط الدولة العامرية بالأندلس، وإنما هي وليدة الصراع الذي دارت رحاه في بلاد المغرب بين صنهاجة وزناتة، إلى أن أنتقل ملك الشيعة إلى المشرق[1] كما اشرت إلى ذلك، وانتقل بنو برزال المأذون لهم من قبل الحكم المستنصر هروبا عن بطش صنهاجة.

وفي مرحلة لاحقة وبعد مخاض عسير، يخهم بني زيري نحو الأندلس حيث لم يأذن لهم بالدخول، إلا بعد وفاة المنصور بن أبي عامر، وذلك في رمضان 392هـ/ جويلية أوت 1002م فقد أذن عبد الملك المظفر الذي اعتمد سياسة والده في الاعتماد على العناصر البربرية عن بلاد المغرب عند ذلك ارتحل زاوي إلى الأندلس رفقة أبناء قبيلة وموالية[2] وكان مرفوقا بابني أخيه ماكس وهما حباسة[3] وحبوس[4].

فلما انهارت الدولة العامرية وانفرط عقد الخلافة وثار كل قائد بمدينته ويحصن في حصنه[5] أهل البيرة[6] بزاوي بن مناد الذي كان أرفع الرحيل عن الأندلس واستقر بالبيرة إلى أن اضطر على مغادرتها[7] واختاط مدينة غرناطة التي أصبحت مؤهلا لبني زيري الذين ظلوا محل أطماع الطوائف التي تكالبت عليهم[8] وفي هذه الظروف الحرجة أقدم زاوي

1- ابن الخطيب لسان الدين- أعمال الأعلام- ص228.

2- الهادي روجي ادريس- المرجع السابق- ج1 ص133.

3- حباسة- هو حباسة بن ماكس بن زيري بن مناد الصمهاجي التلكاتي انتقل الى الأندلس مع أخيه ودخل في حذوة المظفر بن المنصور/ ابن عذارى- المصدر السابق- ج3 ص263 264.

4- حبوس- هو حبوس بن ماكس انتقل الى الأندلس رفقة عمه وأخيه حباسة ويعد المؤسس الحقيقي لدولة بني زيري بمدينة غرناطة واستولى على كورتي جيان وقبره توفي في رمضان سنة 429 هـ وولي الامر بعده ابنه باديس/ ابن عذارى- نفسه- ج3 ص263-264/ ابن الخطيب- نفسه- ص229.

5- الامير عبد الله بن بلكيس بن باديس- كتاب التبيان- تحقيق الدكتور أمين توفيق الطيبي- منشورات عكاظ 1995م- ص58.

6- البيرة- هي بين القبلة والشرق من قرطبة غريزة المياه كثيرة الثمار، وفيها معادن جوهرية من ذهب وفضة ورصاصونحاس وحديد وحجر التوتياء/ ابن غالب- قطعة من كتاب فرحة الانفس- مجلة مخطوطات معهد المخطوطات العربية- المجلد الاول 1375هـ- ص272.

7- الامير عبد الله بن بلكيس- المصدر السابق- ص61.

8- نفسه ص37

زاوي بن مناد على دعوة بني برزال للانضمام إلى صفة داعيا إياهم إلى تناسي الأحقاد وما كان من حروب بين أسلافهم حيث خاطب محمد بن عبد الله البرزالي قائلا: "كنا في بلدنا نتحارب عن الملك لأننا نحن صنهاجة وانتم زناته آما نحن في بلاد الناس يجب أن نكون عونا لبعضنا وان نؤيد بعضنا فإذا رأيتم أن أحدا يريد أن يعتدي علي خمس الواجب أن تؤيدوني وتدافعوا عني[1].

فلما يئس زاوي بن مناد من الوقوف في وجه من ثار جنده، وان القوم قد تألبوا ضده ولى وجهه شطر العدوة المغربية يقول صاحب التبيان: "وإن زاوي بن زيري، لما بصر بهذه الحال، ورأى تآلب أهل الأندلس عليهم وبعضهم لهم، عمل بذلك فكرته وقال: "علمت وأيقنت أن هذا يكون دأبهم أبدا وإن كنا قد منحنا الظفر في أول صفقة لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا كل حين"[2].

ولما غادر زاوي بن زيري الأندلس خلفه حبوس بن ماكس الذي انضم إلي الحلف الذي دعى إليه إدريس المتأيد كما أسلفت غير أنه لم يدم هذا الحلف طويلا بسبب الخلاف نشب بين حبوس بن ماكس ومحمد بن عبد الله البرزالي وانضمام هذا الأخير إلى زهير العامري وللإشارة فان المصادر التاريخية لا تشير إلى حيثيات الصراع الذي دار بين البرزالي وحبوس اللهم إلا تلك الإشارة التي أوردها ابن بسام، وهي عبارة عن رسالة وجهها حبوس إلى البرزالي ردا على خطاب هذا الأخير[3]، وعليه يمكن اعتبار الرسالة ذات أهمية تاريخية بالغة، دلت على دوافع الصراع، وأسباب انشقاق الأصناف عند الطائفة البربرية.

كما أشارت الرسالة إلى الأهداف التي كان محمد البرزالي يروها ومنها الزعامة للصنف البربري ويمكن إدراك ذلك في قول البرزالي: "فمن كان متبوعا قلما يستقيم أن

1- سليمان داوود بن يوسف- ص146

2- الامير عبد الله- ص63

3- انظر نصالرسالة كاملا في ابن بسام- المصدر السابق/ وفي ملاحق هذا البحث ج1 ص387

يكون تابعا ومن عرف في النادي مطاعا لم ينقلب مطيعا، إلا أن يصادف هدي العمرين واجدر بذلك أن يبعد"[1].

وفي رد حبوس ما يجسد سبب خروج، البرزالي عن الجماعة البربرية وهو قوله: "فقد أزريت على كل خلافة وبينت أنك خارج عن فرقة وأن غرضك المحاماة عن عزك والمراماة دون حرزك، وليس هذا نظر مشفق ولا قول محقق إذ لا يتم ديانة إلا بحاجة يدعى إليها وتجرى السنن عليها، إلا في مذهب نافع بن الأزرق[2] وعبد ربه واشتباهما كما يمكن من خلال هذا النص المتوصل إلى معرفة هذه الشخصية التي يمكن أن نقول عنها أنها شخصية متوقبة، صعبة المراس والاقتياد مثلما مر بنا في موقفه من تعيين سليمان المستعين لعلي وأبي القاسم ابن حمود، حيث لم يقبل بهذا التعيين وهب مسرعا لإبطاله.

وبعد مهلك حبوس خلفه ابنه باديس بن حبوس الذي لم يلبث أن اختلف مع حليفه زهير بسبب موالاته لمحمد بن عبد الله البرزالي في حربه ضد حبوس صاحب غرناطة، يقول أن حيان: "كان سبب فساد باديس بن حبوس وجماعة قومه صنهاجة على جارهم وحليفهم القديم الحلف والولاية زهير الصقيلي فتى المنصور بن أبي عامر موالاته لكاشحة[3] محمد بن عبد الله زعيم زناتة"[4].

وأملا في رأب الصدع كاتب باديس زهير العامري يعاتبه على موقفه، ويطلب منه تجديد العهد الذي كان بينه وبين أبيه حبوس[5] ويبدو أن زهيرا كان يضم في نفسه أمرا، فقد استصغر باديس وتناسى جميلا قد أفل وذلك حين سير محمد بن عباد جيشا لإرغامه على

1- ابن بسام- نفسه- ج1 ص388.

2- نافع بن الازرق - هو أبو رشيد زعيم الازارقة الذين خرجوا مع نافع من البصرة إلى الاهواز فغلبوا عليها وعلى كورها وما وراءه من البلدان فارس وكرمان في أيام عبد الله بن الزبير وقتلوا عماله بهذه النواحي وهم من كفر عليا رضي الله عنه وزادوا عليه تكفير عثمان عثمان وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عباس/ الشتهرستاني أبو قنع محمد بن عبد الكريم- الملل والنحل-"تحقيق أبي محمد محمد بن فريد- ج1 ص133 -134.

3- كاشحة-

4- ابن بسام- المصدر السابق- ص408/ ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص169.

5- ابن بسام- نفسه- ج1ص408/ ابن الخطيب- أعمال الأعلام- ص216/ ابن الخطيب لسان الدين- الإحاطة في أخبار غرناطة- ج1 ص526.

الدعوة لهشام المزعوم، فاضطر زهير للاستنجاد بحبوس بن ماكس صاحب غرناطة الذي لم يتردد في الخروج إلى نصرته حيث انسحب جيش ابن عباد دون أن ينال من زهير[1].

ومن غير المستبعد في اعتقادي أن يكون زهير واقعا تحت تأثير عبد الله البرزالي الذي كان حريصا على الزعامة وتهيئة الأسباب لتحقيق مشروعه، وهذا ما يؤكده ابن حيان بقوله: "ومضى على ذلك حبوس من عداوته وخلفها كلمة باقية في عقبه، أضرم زهير بعد نارها بتمادي تمسكه بالمذكور وإيفاده إلى المدد بقرمونة"[2].

وهكذا أبدى زهير العامري طمعه في امتلاك غرناطة وضمها إلى ممتلكاته ولم يكن زهير ليقوم على ذلك لعنا لغباوته وجهله على حد قول صاحب اللسان[3] أحمد بن عباس[4] الذي زين له غزو باديس في غرناطة مهونا عليه أسباب الاستيلاء خصوصا بن مهلك حبوس.

فتحرك زهير بن المرية في حشود كثيفة مزهورا بنفسه يريد غرناطة وانضم إليه حليفه هذيل الصقيلي مع أصحابه عن الموالي لعامر يبين وعشيرته الصقالبة، وهذا ما يؤكد تعصب الصقالبة في أوقات الشدة على غرار الطوائف الأخرى التي كانت تشكل تحالفات تسيطر عليها مجموعات ذات انتهاء عرقية مختلفة بهدف الدفاع أو الهجوم على دول طائفية فردية أو على تحالفات أخرى[5].

1- ابن بسام- نفسه- ج1 ص408.

2- ابن بسام- المصدر السابق- ح408.

3- الامير عبد الله ابن بلكيس- ص70.

4- أحمد بن عبا س- كان أحمد حسن الكتابة مليح الخطا غزير الادب قوي المعرفة مشاركا في العلوم حاضر الجواب ذكي الخاطر وانفر صاحب التبيان وابن بسام بذكره باوصان قبيحة منها-"كان من اشد الناس حماقة واستحفاظا مثير للنشر".وطكانى مع ذلك جميل الوجه حسن الخلقة مهتما بالادب مؤثرا له على سائر لذاته بلغت مكتبته أربعمائة ألف مجلد، واما الدفاتر المخزومة فلم يقف على عددها لكثرتها/ الأمير عبد الله بن بلقيس- المصدر السابق- ص70/ البيان المخرج- ص172/ ابن بسام- المصدر السابق- ج1 ص413.

5- أحمد بن عبود- المرجع السابق- ص47.

وفي شوال من سنة 429هـ/ الرابع من أغسطس سنة1088م انتهت الحرب بهزيمة زهير العامري ومقتله وجهل مصرعه واختلف فيمن قتله[1] وكانت هذه الهزيمة بمثابة الضربة القاضية التي نزلت بجيش الصقالبة وحلفائهم، وأسر أحمد بن عباس وتولى قتله باديس بنفسه[2] بإلحاح عن بلقيس بن زيري ولم يغن توسل أبو الحزم بن جهور في العفو عنه بالرغم من العفو الذي شمل بعض الوجوه كابن حزم والباجي وغيرهم[3].

وعليه وحسب ضني فبالرغم من الدور الذي أداه أحمد بن عباس في تحريض زهير العامري، وجره إلى أتون حرب لا يقبل له بها فانه لا يمكن بأي حال تبرئة ساحة محمد بن عبد الله البرزالي في تحريض زهير إذ أن تقاربهما كما أذكرت أثار حفيظة باديس ووعدها مؤشرا للعداوة مع البرزالي لعلمه بما يترتب عن هذا التقارب عن إيذاء وتنقيص قد يلحق بباديس وقومه.

العلاقة بين بني عباد أصحاب اشبيلية:

في الوقت الذي كانت المواجهة محترمة بين باديس بن جنوس وزهير العامري، كان ابن عباد يراقب الوضع عن كثب.

فجاءت رده الفعل من قبله، حيث تراه له أن الظرف مناسب لتأديب حليفه السابق محمد بن عبد الله البرزالي الذي تخلى عن مخافته له وانظم إلى حلف جنوس ماكس صاحب غرناطة، الذي يعتبره القاضي بن عباد منافسا عنيدا بمقدوره أن يحبذ مشروع ابن عباد التوسعي حيث كانت سياسة تقض بالتغلب على كل ما كان يملكه البربر من الحصون والقلاع القريبة من بلده[4].

1- ابن الدلائي أحمد بن عمر- ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع المماليك- تحقيق عبد العزيز الاهواني- مطبعة معهد الدراسات الإسلامية مدريد 1965م- ص83.

2- ابن الخطيب- المصدر السابق- ص217/ الأمير عبد الهبن بلقيس- التبيان- ص52/ ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص166/ ابن الخطيب لسان الدين- الإحاطة في أخبار غرناطة- ج1 ص518/ عبد الله عنان- المرجع السابق- ص127/ ولم يغن توسل أبوالحزم بن جهور في العفوعنه بالرغم من

-3

4- شريف رحماني- العلاقات السياسية بين الطائفتين الأندلسية والبربرية- ص192.

وإمعانا في إنجاح هذا المشروع جهز ابنه إسماعيل وأمر بالسير إلى قرمونة وأمعنت في السير معه بعض قبائل القبائل[1] الحكم عليها الحصار وجد في السير إلى أشنونة[2] وأستجة[3] وانتزعهما من محمد بن عبد الله البرزالي[4] فلما أحسن هذا الأخير أن قد أحيط به استغاث بالخليفة إدريس المتأيد وبقابل صنهاجة وهب باديس بن جنوس بنفسه على رأس قواته، أما إدريس الذي كان طريح الفراش فقد أمده بعسكر يقوده ابن بقنة أحمد بن موسى فلما تقابل الفريقان وظهرت قوات إسماعيل بن عباد، فتوجس الحلف البربري وتردد في علاقات جيش إسماعيل ونكصوا على أعقابهم فلما بلغ ذلك إسماعيل داخله العجب والغرور فتقص أثر باديس صاحب صنهاجة فأرسل هذا الأخير إلى ابن بقنة الذي كان قد حدّ في المسير نحو الحرية، يكلب فيه العودة، فقفل ابن بقنة رابعًا نحو باريس، والتقى الفريقان، فأصبح جيش إسماعيل بين فكي الكماشة وانهزم جيش فكان إسماعيل أول مفتول وحمل رأسه إلى إدريس بن علي الحسني[5].

أسوة بما جدث ليمي المعتلي وحكاية بابن عنارك[6] ولم يدق إدريس المتأيد طعم الانتصار على ابن عباد حيث لم يعمر بعد الحادثة سوى يومين[7] كانت وفاته 431هـ/1039م[8].

صراع بني برزال مع المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد:

كلف المشروع التوسعي الذي رفع لواءه القاضي ابن عباد، مقتل ابنه إسماعيل الذي جدل رأسه وحم إلى إدريس المعتلي، وكان لتلك النكبة أسوء وقع في نفس القاضي ابن عباد.

1- المراكشي- المعجب- ص54.

2- اشونة- اقليم صغير به مدن اشونة ولوره وهي عبارة عن حصن ممدن كثيرا السكان/ الشريف الإدريسي- المصدر السابق- ج1 ص536 572.

3- من قواعد الأندلس منخفضة البطاح كثيرة المرافق لها اعمال كثيرة المرافق لها أعمال تزيد على الف قرية- وهي قبل ذلك مدينة قديمة أزلية/ مجهول- تاريخ الأندلس-"تحقيق عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية 2007م- ص126.

4- الحميدي- المصدر السابق- ص38/ المراكشي- المصدر نفسه- ص54.

5- عبد الله عنان- المرجع نفسه- ص39.

6- عبد الله عنان- المرجع نفسه- ص39.

7- المراكشي- المصدر نفسه- ص58.

8- الحميدي- المصدر نفسه- ص155.

ومن الأهمية بمكان أن أشير إلى أن المصادر التي أطلعت عليها لم تشر إلى أثر هذا الحدث، ولا إلى ردّة الفعل التي يمكن يحدثها هذا الحدث اللّهم إلاّ تلك الإيماءة التي أشار إليها ابن الخطيب بقوله: "... إلى أن أصيب ولده إسماعيل بأيدي بني زيري المتغلبين على كورة البيرة في هزيمة اتجهت إليه وكانت له وعليه وقعات شهيرة" الحران توفي القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد في سنة 433هـ"[1].

وبعد وفاة القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد ولي لأمر بعده أبنه أبو عمرو عباد بن محمد الملقب بالمعتضد[2] في اليوم الأول من جمادى الآخرة من عام 433هـ/ 1045م وعمره حين تولى مقاليد الحكم ستة وعشرون عامًا[3].

وقد دخل أبو عمرو عباد بن محمد الملقب بالمعتضد في حروب طويلة مع جيرانه لكي يمد رقعة إشبيلية ويجعلها تشمل غرب الأندلس وجنوبه[4]، وذلك بعد أن ضمن له والده الاستقرار الداخلي النسبي[5].

وأقترف في هذا السبيل جنيات أخلاقية فضيعة عزّ نظيرها حيث ضرب معاصريه أسوء المثل، وأذهلت ألباب المؤرخين، ووقفوا مليًا أمام هذا الجنوح الإخلاقي الغريب، الذي جعله يتغنى بمقتل أعدائه ويعد بإفنائهم الذين أسقطهم في ساحة الحرب أو قتلوا غيلة[6] واحتزت رؤوسهم وحيث قال في بعض أشعاره:

سأفني حدة الأعدا ء أن طالت بي المدّة
وتبلى بي ضلالتهم يزداد الهدى جـزة

1- ابن خطيب- المصدر نفسه- ص155.

2- أبوعمر وعباد بن محمد- هو الأخير فخر الدولة ابن القاضي ابي القايم ذي الوزارتين محمد بتن إسماعيل بن عباد صاحب إشبيلية، من أهل الأدب البارع ولشعر الرائع، كانت له في رياسته هيبة احتاز بحدّة الذكاء وحضور البديهة والمحبة لذوي المعارف.كان شممًا صارمًا حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة زارهاء. له سياسة صارحة مع حاشيته ووزرائه فهم من قتله صبرًا، وفهم من نفاه عن البلاد/ ابن الأبار- المصدر نفسه- ج2 ص39-40-41/ المراكشي- المصدر نفسه- ص73.

3- المراكشي عبد الواحد- المصدر نفسه- ص73.

4- حسين مؤنس - معالم تاريخ المغرب والأندلس- دار الرشاد - 1421هـ/2000م - ص428.

5- صلاح خلاص- المرجع السابق- ص127.

6- محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص54.

فكم من عدّة قتلت منهم يعرها عـــدة
نظمت رؤسهم عقدًا فلعّت لبّة الشـــدّه[1]

غير أنه المؤرخ الأندلسي ابن حيّان قد شند في الحكم على المعتضد، حيث تشتم في ثنايا موضوعاته حول المعتضد بن عباد بعض الميل والتزكية والتغاضي، وهذا بالرغم من الفضائح والشنائع التي اقترفها في أقرب الناس إليه غير مبال بالوسيلة التي يجتلب بها خصمه، وهو ما خلص إليه عبد الله عنان: "وابن حيان أميل إلى تزكية المعتضد منه إلى الحكم عليه"[2].

يقول ابن حيان وهو معاصره، ومتتبع لأحداث حياته وحروبه: "أشد الملوك وشهاب الفتنة وداحض العار ومدرك الأوتار وذو الأبناء البديعة والجزائر الشنيعة والوقائع المبيرّة والهمم العلية والسطوة الأدبية[3].

وفي اعتقادي أن انحياز ابن حيان إلى المعتضد والتغاضي عن مقرفاته، ليس نابعًا من كون المعتضد ينتمي إلى الطائفة الأندلسية فحسب، بل يكون المعتضد رفع لواء المواجهة ضد الطائفة البربرية، وهو ما شفع له عند ابن حيان، الذي يقف على رأس من حّمل البربر فتنة الأندلس.

وبالرغم مما قاله ابن حيان قطب المؤرخين الأندلسيين، إلاّ أنني لا أجانب الصواب إذا اعتبرت هذه الشخصية غريبة الأطوار وسادية بالمفهم الحديث.

لقد كانت أولى الأولويات للمعتضد بن عباد، بعد وصوله إلى شدة الأمارة هي استئصال شأفة البربر، وعلى رأسهم بني برزال، حيث كان أمراء إشبيلية المتعاقبين يرون في محمد بن عبد الله البرزالي مشاكسًا عنيدًا، ومحرضًا محوريًا للطائفة البربرية فضلاً عن أن مصرع القاضي ابن عباد وابنه إسماعيل كان يرى هذه الطائفة[4].

إلاّ أن المعتضد لجأ إلى المهادنة مع بني برزال، ليتفرغ لمقارعة رؤساء الغرب، وفي الوقت ذاته لجأ إلى أحداث الفتنة والقلاقل بينهم يقول ابن بسام: ثمّ غمسّ المعتضد يده

1- ابن الأبار- الحلة السيراء- ص50.

2- عبد الله عنان- نفسه- ص40.

3- ابن الأبار- نفسه- ص40.

4- حمدي عبد المنعم - المغرب والأندلس- دار المعرفة الجامعية- 1998م- ص444.

بعد في من كان يليه من أقتاله البرازلة فصدم شرّهم بشرهم وضرب زيدهم بعمرهم، وقد كان عندما تسعرت نار الحرب بينه وبين رؤساء الغرب، هادنهم على دخى ومتع لهم حتى ضربوا حوله بطعن ليقتلهم بسيوفهم"[1].

وهذا ما يجعلنا نستنتج، أنّ الجبهة الداخلية للبربر كانت مفككة، لذلك كان المعتضد يلجأ إلى إحداث الفتنة داخل صفوف البرازلة أنفسهم إذ لو سلمنا جدلاً أن هذه الإمارات الصغيرة كانت قراصة الصفوف منضوية تحت نزعتها البربرية، لما استطاع بنو عباد من أحداث هذا الشرح الذي تمكنوا من خلاله إضعاف هذه الإمارة، ونسف كل محاولة للإضماع والتوحد.

ومن أجل الوصول إلى تحقيق أهدافه، عمد المعتضد إلى استعمال جميع الطرق لإخضاع هذه الإمارات، حيث يروى لنا صاحب المعجب قصصًا غريبة دلت على عبقرية المعتضد ودهائه في استنزال خصومه والظفر بهم، حيث كان له عيون بقرمونة يمدونه بما يجري داخل الأسرة الحاكمة عن طريق أشخاص كان يبعثهم المعتضد على هيئة تجار[2].

فلما قضى المعتضد وطره من رؤساء الغرب، انبرى لمحمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، وسدّ مسالكه، وسدّد إليه مهالكه، فلمّا أيقن البرزالي بالهلاك استغاث بباديس بن حبوس، واستصرخه، فاستجاب له باديس، وتحرك على رأس قواته يقودها بنفسه فلما وصل باديس إلى قرمونه أخرج إليه المعتضد جيشه بقيادة ابنه الظافر، والتقى الجمعان، فحمل عسكر إشبيلية في عسكر باديس حملة خلعتهم عن مركزهم فتفرقوا في أرض المعركة مضرجين بدمائهم يقول ابن خاقان: "فلما وصل باديس بن حبوس إلى قرمونة أخرج إليه معتضد جيشه يقدمه أبنه الظافر ويقود منه أسودًا في المغافر، فلما التقى الجمعان وارتقى ثنيه بغيه المعين والمعان حمل فيهم عسكر إشبيلية حملة خلعتهم عن

1- ابن بسام- المصدر السابق- ج2 ص20.

2- أنظر تفاصيل القصة في المراكشي- العجب- ص.

مركزهم وأدالتهم بالذل من تعززهم فتفرقوا في تلك البسائط والربى وشربوا سقيا الأسنة والظبي وأوقع بهم الظافر أحسن إيقاع وتركهم مضرجين في تلك البقاع ..."[1].

وعقب هذه الموقعة أشد ابن عمار قصيدة يهنئ فيما المعتضد بهذا النصر فيها:

أطل على قرمونة متيلي   مع الصبح حتى قيل كانا على وعد طويل

فاملها بالسيـــف ثمّ أعـارهـا   من النار أثواب الحداد على الفقد

فيا حسن ذاك السيف في راحة الندى   ويا برد تلك النـار في كبد المجد

يهودًا وكانت بريرًا فانتضى الظبي وأنبئهـــم منها بالنسبة لدّ

أقـول وقد نادى ابن إسحاق قومه   لإرضائك يرتاد المنيـة من بعد[2]

وللأسباب التي ذكرناها آنفا ظل المعتضد شاهرا سيفه من أجل القضاء على محمد بن عبد الله البرزالي، ومما زاد في اندفاعه نحو تحقيق أهدافه، هو ما كان يتوجه المعتضد من البرازلة وتطيره بهم إذا كان يرى فيهم نحسا، قد تكون نهاية دولته على أيديهم يقول أبن بسام الشنتريني: "والسبب الذي كان يغريه بطلبهم ويبعثه على التمرس بهم أن بعض من نظر بمولده كان أخبره أن انقضاء دولته يكون على أيدي قوم يطرؤون على الجزيرة من غير سكانها، فكان لا يشك أنهم تلك البرازلة الطارؤون عليها في عهد ابن أبي عامر، فاعمل في ثكالهم وجوه سياسية"[3].

فأوكل المعتضد مهمة القضاء على ابن برزال إلى ابن إسماعيل فأمره بمعالجة مهاجمة قرمونة التي أغار عليها إسماعيل عدة مرات وذلك سنة 434هـ/1042م وفي المرة التي يلقى فيها محمد بن عبد الله البرازلي حتفه، تظاهر إسماعيل بمغادرة ضواحي قرمونة، وزرع قواته في كمائن فضل البرزالي إن هذا التردد يتم عن خوف، فخرج البرزالي بقواته الملاحقة إسماعيل الذي تظاهر بالهزيمة والانسحاب حتى بلغ البرزالي موضع الكمائن، وبرزت قوات إسماعيل عن كمائنها وأحاطت محمد بن عبد الله البرزالي، وما هي إلا جولات عن القتال حتى تراجعت قوات البرزالي فهزمه وقتل هذا الأخير سنة

1- الفتح بن خاقان- قلائد العقيان في محاسن الأعيان- المكتبة العتيقة- تحقيق محمد عناني- ص98/ مريم قاسم الطويل- مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر- دار الكتب العلمية بيروت- ص139.

2- الفتح بن خاقان- نفسه- ص..

3- ابن بسام- المصدر السابق- ج2 ص21.

434هـ/1032م[1]، وجندلت رأسه هو الآخر، وضمت إلى رأس يحي بن حمود ورؤوس الحجاب ابن خلدون وابن نوح[2].

بعد مصرع محمد بن عبد الله خلفه ابنه إسحاق على إمارة قرمونة وتقفى أثر أبيه[3] وكانت قرمونة حتى وفاة محمد بن عبد الله تتمتع بجيش قوي واحتياطا من المؤن فاق ما كان لدى أجراء الطوائف حيث لم يفعل المؤرخ ابن حيان القرطبي عن التعرض لهذا التحول المفاجىء في إمارة قرمونة جديا لموصفات والمناقب التي يتحلى بها إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي، وأنه لا خلاف بينه وبين والده سوى في القسوة والفضاخة والنعرة والعصبية.

يقول ابن حيان: "ورأس إسحاق بعد مهلك أبيه وهو في حد الكهولة كان مشهورا بالحزم والكفاية والبأس والفروسية يتجلى بشعبة من الشعب الكتابة ويضبط شيئا من الحساب ويقرا الدفاتر الغريبة، وهو دون أبيه محمد في القسوة والفظاظة وأذهب منه في فرط العصبية وكلاهما موصوف بالعفة والنزاهة والبعد عن آفات الملوك الشائعة، مع اشتهارها بالنكوب عن الجماعة واعتقادها بمذهب الناكرين من الإباخية والخوارج يستأثرون بذلك هما وقومهما من بني برزال أعمالهم وأحوالهم في ذلك معروفة"[4].

وسنة 439هـ/1047م التقى زعماء البربر في الأندلس وتوجه إليه عن رؤساء البربر فهم كبيرهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة وإسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح صاحب عروة وعبدون بن خزرون صاحب أركش وأجمعوا على مبايعة محمد بن القاسم بن حمود بالخلافة في الجزيرة الخضراء ولقبوا القائد الجديد بالمهدي وخطب له على المنابر كل من إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح الدمري صاحب مرور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش وباديس بن جنوس الصنهاجي صاحب غرناطة[5] وفي أعقاب ذلك انضوى

1- ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص338/ شريف محمد الحماني- المرجع السابق- ص198.

2- ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص206.

3- فراد محمد ارزقي- الأعلام- ص237.

4- ابن الخطيب- أعمال الأعلام- ص237.

5- لبن عذارى- المصدر السابق- ج3 ص229/ ابن الخطيب- اعمال الأعلام- ص142.

هؤلاء البربر تحت إمرة خليفهم الجديد يقود قواتهم نحو إشبيلية لمهاجمة المعتضد بن عباد، وتعززت صفوفهم بانضمام محمد بن عبد الله بن الأفطس صاحب بطليوس لكن حملتهم لم تحقق أي نجاح يذكر فعادوا آلة قواعدهم بعد أن عاشوا في الأرض المحيطة بإشبيلية نهبا وتحزينا يقول أبن حيان: "ولم يقض الله لهم إربا، فلم يكن لهم بعد ذلك اجتماع ولا اتفاق، وأخذ الله أكثر هؤلاء الرؤساء الذين حاصروا ابن عباد بسوء فعلهم في هذه الحركة من ظلم المسلمين وأخذ أموالهم بغير حق وتغييرهم لنعمهم وقطعهم ثمارهم لما كانوا تعاقدوا عليه مع ابن عباد فخلصهم الله فيهم"[1] إلا أن إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي فإنه قد سعى لانتظام لمصرع أبيه على أيدي قوات المعتضد وذلك بالانضمام لمنظمة محمد بن عبد الله بن الأفطس صاحب بطليوس الذي يعول في اعتقادي من قبل الطائفة البربرية درك خطر المعتضد بن عباد[2].

ومما لاشك فيه أن قرمونة كان لها دور أساسي في الصراع بين المعتضد بن عباد وبين محمد بن عبد الله بن الأفطس[3] حيث احتدم الصراع بينهما ولم تجد محاولات الوزير بن جهور ورغم ما عين في إيقاف الحرب بينهما وهكذا أحدثت القوتان وعاش كل فيهما في أراضي الآخر.

وظلت الحرب بينهما سجالا[4] إلى أن حلت أحداث ليلة[5] من جديد وذلك حين امتنع علي صاحب ليلة أن يرد إلى ابن الأفطس ما أئتمنه عليه من أمواله وذخائره أيام الحرب[6]، الحرب[6]، فأغار عليه ابن الأفطس فاستجار ابن يحي المعتضد فاستجاب لدعوته فاشتبكت مع قوات ابن الأفطس فتمزقتهم واجتزت من رؤوسهم نحو مائة وخمسين[7] ولم يكتف ابن عباد بما أحرزه من انتظار على ابن الأفطس بل أعد جيشا واستعان كعادته بحلفائه، وعين

1- ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص221 -230/ أعمال الأعلام- المصدر السابق- ص166.

2- رحماني شريفة- المرجع السابق- ص202.

3- حمدي عبد المنعم – دولة بن برزال- ص81.

4- عبد الله عنان- المرجع السابق- ص83.

5- ليلة - تقع في غرب الأندلس وتعرف بالحمراء وهي مدينة حسنة متوسطة القدر لها سور منيع وبها عيون ويكثر بها شجر الزيتون وأنواع الثمار وهي مدينة سهلية جبلية/ الحميري عبد المنعم- ص508.

6- صلاح خالص- المرجع السابق- ص127.

7- ابن بسام- المصدر السابق- ج1 ص238/ عبد الله عنان- المرجع السابق- ص83.

على رأسه ابنه إسماعيل مع وزيره ابن سلام وخرج يروم بلد بن الأفطس يأبره[1] فلما علم ابن الأفطس بتحركات قوات ابن عباد استجاد بخليفة إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي فأمده بقوة بربرية بقيادة ولده العز واستنفر ابن الأفطس من قومه كل من قوى على حمل السلاح، واستطاع أن يحرض قلقا كثيرا وكان البربر البرزاليون قد نصحوا ابن الأفطس بأن يتراجع عن مواجهة قوات بن عباد لعلمهم بقوات بن عباد والاحتكاك بهم في ميدان الحرب فليس له: "لا تلقهم فلست تعرف قدر من زح فنحوك، ونحن رأيناهم وسمعنا جمعهم باشبيلية"[2].

وركب بن الأفطس رأسه غير مكترث لنصائح البرزالية، ومضى متأهبا والتقى الجمعان على مقربة منى يابره وحمي وطيس المعركة فمال جيش بن عباد على قوات بني الأفطس ميلة واحدة، وأوكلهم الضرابات الموجهة، وتمزقت قوات ابن الأفطس بعد أن ولى البرازلة أصحاب إسحاق الأدبار وانسحبوا من ميدان المعركة كما يشير إلى ذلك ابن حيان الذي أسهب في تفصيل معركة يابرة[3] وفي المرجع في اعتقادي أن انسحاب البرازلة والتخلي عن ابن الأفطس كان بعد مقتل الغربي إسحاق البرزالي قائد قلوبهم في هذه المعركة، مما أدى إلى زعزعة صفوفهم وتراجعهم وليقينهم أن كفة النصر رجحت لصالح بن عباد كما أنهم حضروا بسوء التنظيم في حين ابن الأفطس الذي اعتمد مع المتطوعين وجميع من قدر على حمل السلاح وهم ممن خبر جيش ابن عباد الذي كان جيشا منظما.

وأسفرت المعركة عن مقتل أكثر من ثلاثة آلاف رجل من الجانبين، وهز رأس المعز وبعث به إلى اشبيلية مع رأس ابن عم لابن الأفطس صاحب يابره ويدعى عبد الله الخراز، أما ابن الأفطس فقد اعتصم في قطعة من خيله بمدينة يابره.

1- يابره-مدينة من كور باجة الأندلس وهي قديمة محاطة بالاسوار وبها قصبة كما أنها تمتاز الخصب الكثير الذي لا يوجد بغيرها وهي أحسن البلاد بقعة وأكثرها فائدة وتتشهد حركة تجارية نشيطة / الحميدي عبد المنعم- ص615/ الادريسي أبو عبد الله محمد بن محمد- نزهة المشتاق في اختراق الافاق- عالم الكتب 1409هـ/1989م- ج2 ص544-545.

2- ابن بسام نفسه ج1 ص238..

3- نفسه - ج1 ص239.

يصف ابن حيان موقعه يابرة قائلا: "واقل ما سمعت في إحصاء قتلى هذه الوقيعة من ثلاث آلاف رجل فأزيد، وأخبرني من أثق به أن بطليوس بقيت مدة خالية الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها في وقعة ابن عباد هذه بفتيان أغمار إلا الشيوخ والكهول الذين أجيبوا يومئذ فاستدللت بذلك على فشوا المصيبة"[1].

وأقر القريض عند الشاعر ابن عمار، وانبرى أمام المعتضد بن عباد يهنئه بهزيمته لابن الأفطس وقتل ولد إسحاق بن عبد البرزالي.

ليهن الهدى إنجاح سعيك في العـدا وان راع صنع الله نحوك أوغدا

وبشراك دنيا غضة العهد طلقــة كما ابتسم النوار عن ادمج الندى

دعوت فقال النصر لبيك مــاثــلا ولم تك كالراعي يجاوبه الصدى

وأحمدت عقبى الصبر في درك المنى كما بلغ الساري الصباح فاحمـدا

ولما اعتمدت الله كنت مؤهلا لديه بان الحمى وتكفى وتعضدا[2]

جزع إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي لمقتل ابنه[3] وزاد في نكبته جز رأسه وإلحاقه برأس حدة محمد بن عبد الله الذي جندلت رأسه هو الآخر بنفس الطريقة.

يقول ابن زيدون في سياق القصيدة التي ذكرتها آنفا، يشير إلى المأساة التي آل إليها إسحاق البرزالي.

لبئس الوفاء استني في ابن عقيدة عشية لم يصدره عن حيث أوردا

وأصبح يبكيه المصاب بشكلــه بكاء لبيــد[4] حين فارق اربدا[5]

يقول ابن بسام معلقا على هذه الحادثة: "ولم الرأسان عند آل عباد مع عدة رؤوس أهدتها إليهم الفتنة المبيدة، حتى فتحت إشبيلية على الأمير الآجل سيرين أبي بكر فجيء بجوالق مقفل مطبوع عليه، فأمر بفتحه لا يشك بأنه مال أو ذخيرة فإذا هو مملوء من

1- نفسه - ج1 ص237.

2- نفسه- ج1 ص237.

3- ابن يسام- المصدر السابق- ج1 ص239/ حمدي عبد المنعم- المرجع السابق- ص83.

4- لبيد بن ربيعة العامري فاري وشاعر جاهلي أدرك الاسلام وهومن اصحاب المعلقات وأربد أخوه لخزانة الادب - ج1 ص337.

5- ابن بسام- نفسه- ص238.

رؤوس فأعظم ذلك وهاله، وأمر بدفع كل رأس منها إلى من بقي عن عقبة بالحضرة"[1] لقد ظل إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي على رأس قرمونة إلى سنة اثنان وأربعين وأربعمائة وهي السنة التي نشبت فيها معركة بابرة، التي ذهب ضحيتها العز بن إسحاق، وهنا تجدر الإشارة إلى أمر في غاية الأهمية إلى أمر في غاية الأهمية وهو الخلط الذي وقع فيه أبرز مؤرخي هذه الفترة فابن عذاري المراكشي يذكر أن إسحاق انتهى حكمه سنة أربع وثلاثون وأربعمائة[2] وذلك حين بايع أخوه المستظهر[3]، ويقول ابن عذاري: "بويع في اليوم الذي مات فيه أبوه سنة أربع وثلاثين وأربعمائة وبايعه أخوه إسحاق فتم له الأمر وتمهدت الأمور ورخت الأسعار وبايعت له البلاد"[4]، وفي حين يذكر ابن حيان أن إسحاق كان ممن أمد ابن الأفطس في معركة يابرة التي وقعت سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة واعتمادا على هذه الفرضية يكون إسحاق بن محمد قد امتد حكمه إلى سنة 442هـ[5]، فابن الخطيب يرى أمرا مخالفا تماما لما جاء به أبن عذارى وابن بسام حيث يذكر أن العزيز المستظهر ابن إسحاق، حيث يقول: "فكتب رئيسهم العزيز بن إسحاق بعد هلاك إسحاق في خبر طويل"[6] وعن ابن خلدون يرد اسم: "إسحاق بن "مع إسقاط الاسم الذي يليه وربما يكون الناسخون قد اسقطوا اسم الأب سهوا، مما يجعلني استنسخ أن الخلط في أسماء أمراء بني برزال، وترتيب فترة حكمهم زمنيا أمرا واردا فهم في فترة المستعين سليمان الحكم يذكرون أحيانا عبد الله البرزالي، وأحيانا أخرى محمد بن عبد الله البرزالي[7] وعلى أية حال، لو فرضنا جدلا أن إسحاق البرزالي بايع أخاه المستظهر سنة 434هـ لما ذكرت بعض المصادر أنه عضد ابن الأفطس حين استغاث به وأنه أصيب في لبنه العز في معركة يابرة التي وقعت

1- نفسه- ج1 ص239.

2- ابن عذاري- المصدر السابق- ص312.

3- المستظهر-هوعزيز بن محمد بن عبد الله بن برزال الزناتي وهو أخو إسحاق وهو ممن بايعت له البلاد التي بايعت أباه فسار بسيرة أبيه وزاد احسانه للرعية وهدت البلاد استقرارا عز نظيره من قبل.

4- ابن عذاري- نفسه- ج3 ص312.

5- ابن بسام- المصدر السابق- ج1 ص238.

6- ابن الخطيب لسان الدين- المصدر السابق- ص227.

7- بوزياني الدراجي- دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس- دار الكتاب الغربي 2007م - ص116.

سنة 442هـ حسب ابن حيان[1] غير أن ما يفند هذا التضارب –حسب ظني– هو ما ورد في القصيدة التي امتدح فيها ابن زيدون المعتضد ابن عباد حين انتصاره على ابن الأفطس في موقعة يابرة ومصرع المعز ابن إسحاق وتألم هذا الأخير حيث يقول :

لبئس الوفاء في ابن عقيدة عشية لم يصدره من حيث اورد[2]

وعندما تآلبت القبائل واحتشدت جموعها تحت قيادة باديس ابن حبوس صاحب غرناطة، وأبو نور هلال ابن أبي قرة اليفرني صاحب رندة ومعهم فلول عن جيش ابن جهور صاحب قرطبة، كانت قوات بني برزال حاضرة في هذا الحلف[3] كل ذلك كان يحدث يحدث وابن عباد ممتنع عن دخول الحلف يراقب الموضوع عن كتب، يعلل المؤرخ ابن حيان هذا الاقتناع من قبل المعتضد إلى الحرب التي كانت بينه وبين القبائل المخالفة[4] بيد أن الأرجح في اعتقادي هو يقين المعتضد بن عباد، أن هذه الحرب سوف تضعف القبائل المتحاربة وبالتالي يسهل عليه مواجهتها في المستقبل القريب، واستطاعت هذه الجيوش من اقتحام الحصون، وجالس جيش القبائل المتحالف خلال ديار بني دمر ونكلوا بهم وعاشوا في أراضيهم فسادا يقول ابن حيان: "فقتلوا رجاله عن آخرهم وهتكوا الأستار، وفتكوا بالايكار حتى كانت دعاؤهم تسيل على أقدامهن عاريات باكيات، واستحوذ السودان وسفال العسكر على النساء"[5].

إلا أن المصادر التاريخية التي تمكنت من الاطلاع عليها لم تحدنا بتفاصيل شافية حول أسباب هذا التحالف، لمهاجمة بني دمر الذين لم تكن إعارتهم قوية ولا بالحجم الذي يتطلب هذه الحشود اللهم إلا تلك الإشارات العامة، التي تشير إلى استمرار الحرب كابن

1- ابن بسام- نفسه- ج1 ص238.

2- نفسه - ج1 ص238.

3- ابن عذارى- المصدر السابق- ج3 ص269/ مريم قاسم الطويل - مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر- دار الكتب العلمية بيروت- ص144.

4- ابن عذارى- المصدر السابق- ج3 ص269

5- نفسه- ج3 ص238

الخطيب إذ يقول: "ولم تزل الحروب بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مرور والمعتضد بن عباد إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة"[1].

وبالرغم ما قدمه بنو برزال من تضحيات بسام للدفاع عن إمارتهم، حيث أحفدتهم هذه المغالبة، زعيمهم عبد الله بن برزال، وأحد أحفاده العز بن إسحاق، وبالرغم ما كانوا يعرفونه من تفوق بني عباد عليهم في ميادين الحرب، التي كثيرا ما كانوا ينصحون ببني الأفطس يعدم المجازفة في مواجهة بني عباد[2] ورغم هذا وذاك إلا أنهم واصلوا الاقتتال والمواجهات يقول ابن عذارى: "وانصرف بنو برزال يضربون على إشبيلية من قرمونة وخيل ابن عباد تضرب عليهم"[3].

نهاية برزال الزناتيون بقرمونة:

ما إن اشرف العقد السادس الهجري على نهايته، حتى كان بنو برزال على موعد مع نهايتهم المأساوية، وذلك بعد أن استنفذوا قراراتهم القتالية، التي تميزوا بها أيام الحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر، واستبسالهم في نصرة سليمان المستعين إذ كانوا عصب قوته والثقل الذي رجح كفة النصر لصالحه.

فلما أحسوا بدنو أجلهم خاطب زعيمهم عزيز المستظهر المأمون يحي بن ذي النون[4] صاحب طليطلة يهيب به أن يقبل بان يتنازل له المستظهر عن قرمونة وضواحيها مقابل أن يتنازل له من بلاده عوضا عنها، وذلك تشفيا ونكاية في عدوه المعتضد الذي ظل فاتحا فاه للإستيلاء على بلاده يقول ابن الخطيب: "ولم تزل الحروب بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مرور والمعتضد بن عباد إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة واضطره فكتب رئيسهم العزيز بن إسحاق في خبر طويل إلى ابن ذي النون أي يعطيه قرمونة وأنظارها

1- ابن الخطيب لسان الدين- ص237.

2- ابن بسام- المصدر السابق- ج1 ص238.

3- ابن عذارى- نفسه- ج3 ص

4- يحي بن ذي النون- ملك ازيد من ثلاثمائة مسور (مصر) اتسع ملكه،وتسمى بالمامون ولم يكن في ملوك الأندلس اقوى منه كان كريما شجاعا، تقضى اثر ابيه في استعمال قانون العدل واتسع ملكه توفى سنة سبع وتسعين واربعمائةوولى بعده حفيده القار بالله وينتمي بنوذي النون الى قبيلة هوارة البربرية واشتق لقبهم من اسم جدهم دنون الذي جور من مرور الزمن الى ذي النون/ مجهول- تاريخ الأندلس- ص259-260.

ليمكن عن نكاية عدوه ابن عباد فما أن يعطيه المأمون بن ذي النون عوضا في بلاده الجوفية فاتفقا على ذلك وخرج العزيز بن إسحاق من قرمونة إلى حصن المدود وقبض رجال ابن دنون ما في المدينة"[1].

فاستجاب ابن ذي النون لهذا الغرض المغري فغادر المستظهر قرمونة متوجها إلى حصن المدور وهو حصن يقع شمال شرق قرطبة، ونزل رجال ابن ذي النون قرمونة التي تم إخلاؤها لهم[2]، فلما علم المعتضد بن عباد بهذه الصفقة المبرمة بين بني برزال وبين بني ذي النون كتب سرا إلى المأمون بن ذي النون قائلا: "إن قرمونة قريبة من بلادي وبعيدة عن نظرك وبلادي فأصفرها إلي واجعل يدي مع يدك علي تملك قرطبة حتى أصيرها لك، فاستجاب ابن ذي النون المقترح ابن عباد وأخلى له قرمونة، وحل محل ابن عباد وأمر رجاله بالتمركز فيها، ولم يف ابن عباد لابن ذي النون بشيء مما ارتبط به[3].

وهناك رواية أخرى مفادها أن بني برزال لما شعروا بقرب نهايتهم وأنهم استنفذوا قدراتهم القتالية كما أسلفت، اضطر أميرهم عزيز المستظهر.

أن يتخلى المعتضد بن عباد عن إمارته، شريطة أن يمنحه الأمان وأن يسمح له بالإقامة في إشبيلية، فأجابه المعتضد بن عباد إلى ذلك ودخلت قوات المعتضد إلى قرمونة بعد أن سمح للمستظهر بمغادرة قرمونة مع حاشيته وقومه[4].

وبعد الدراسة المتأنية، أجد نفسي إلى الرواية الأولى إذ لا يعقل في تصويري أن يتنازل المستظهر البرزالي للعباديين عن بلاده وهم أعداؤهم التقليدين، الذين لقي أجداده حتوفهم على أيديهم، وجزت رؤوسهم وحملت إلى قصور بني عباد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن بني برزال على دراية بشيمة الغدر التي يتحلى بها المعتضد وبأنه الشخصية التي لا يؤمن جانبها، حيث قضى على يديه أمراء بني دمر وبني خزرون

1- ابن الخطيب- نفسه- ص237.

2- ابن عذارى- المصدر السابق- ج3 ص269/ ابن الخطيب- المصدر السابق- ص238/ حمدي عبد المنعم محمد حسين- المرجع السابق- ص86.

3 - ابن الخطيب- نفسه- ص237.

4- ابن عذاري- نفسه- ج3 ص312 / محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص151/ شريفة عمر دحماني- المرجع السابق- ص222/ حمدي عبد المنعم- المرجع السابق- ص87.

وهم في ضيافته، ثم إن هناك الانتماء العنصري، حيث عودنا بنو برزال على الاحتماء بالعناصر البربرية حالة تزول الخطر، وعليه وانطلاقا عن هذه الاعتبارات فإنه من المستعبد أن يتنازل بنو برزال عن بلادهم لبني عباد بهذه السهولة وهم ممن بالدهاء وحبك المؤامرات والدسائس كما أشرت إلى ذلك سابقا.

وبقي أن نشير في نهاية هذا الفصل إلى الأسباب التي أدت إلى سقوط هذه الإمارة أن المتتبع لهذه السيرة التاريخية لهذه الإمارة منذ نشأتها إلى يوم انحسارها يمكنه التوصل ببساطة متناهية إلى هذه الأسباب التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

1. تورطها في معمعة التطامل بين القبائل والطوائف المتكالبة على السلطة، والملك في بلاد الأندلس.
2. المواقف المتذبذبة لهذه الإمارة حيث تحالفت مع الطائفة الأندلسية تارة ومع الطائفة البربرية تارة أخرى.
3. اعتمادها على المغامرات والفتن والمؤامرات التي كان يحبكها أجرائهم من حين لآخر.
4. الجبهة الداخلية لهذه الإمارة ويظهر ذلك جليا.
5. اعتمادها على الجانب العسكري ذو الطابع القبلي وإهمالها الجانب الحضاري هذا بالرغم من وجود هذه الإمارة في بيئة تزخر بالمآثر الثقافية والانجازات الحضارية.
6. مصرع أمرائها في المواجهات مع جيوش بني عباد مما أدى إلى فتور الأسرة الحاكمة في قرمونة واعتزال إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي الحكم ومبايعة أخيه المستظهر[1].
7. اعتمادها على العصبية القبلية التي لم تكن تستجيب دائما ولما توفرت هذه الأسباب مجتمعة أطاحت بحكومة بني برزال من قرمونة وأخل نجمهم، وانقرض ملكهم في الأندلس وانحت بذلك معالم ذكرهم ورسوم عزهم كقبيلة في المغرب الأوسط يقول ابن خلدون: "وانقرض ملك بني برزال من الأندلس ثم انقرض من

-1

بعد ذلك حيهم من جبل السلات وأصبحوا في الغابرين والبقاء لله وحده سبحانه"[1].

8. ودل سقوطهم المفاجىء، وإخلاء بلادهم لأعدائهم على هشاشة هذه الإمارة التي قامت على العصبية التي كانت تحركها المغامرات، والفتن والدسائس وعاشت في جو إنعدم فيه الاستقرار، وبات الحذر والشك والخوف في العلاقات مع جيرانها من سيمات هذه الإمارة سواء مع الطائفة البربرية أو الأندلسية الممثلة في حكام اشبيلية.

ثم لم يكن لهم البناء الحضاري من سبيل فقد شحت تربة إمارتهم عن ثمرات الحضارة والإسهامات الفكرية التي ميزت بعض الإمارات التي أبدعت في حجج الحروب في عهد الانقسامات الطائفية.

وهكذا وفي سنة 460هـ 1066م غادر بنو برزال قرمونة، ودخلها المأمون بن ذي النون يوم الثلاثاء وتسلمها المعتضد بعد ثلاثة أيام حسب رواية صاحب تريصع الأخبار[2] ويرى ابن خلدون وابن الخطيب وابن عذارى أنه كان ذلك سنة 459هـ ومنذ هذا التاريخ غدت قرمونة ضمن مماليك بني عباد[3] حيث ملكها المعتضد في آخر مدته حيث توفي في سنة آخر جمادى الثانية سنة 471هـ[4].

وبالرغم من التنكير والتشريد الذي أصاب بني برزال، إلا أنهم لم يعيدوا السيوف التي أغارها، بل ظلوا يلوحون بها على بني عباد حين انضووا تحت لوية بني زيري أصحاب غرناطة الذين واصلوا قتالهم ضد العباديين[5] وهذا ما يعزز رأي حول تنازل بنو برزال عن قرمونة لبني ذي النون ونلمس هذا في النص الذي أورده ابن الخطيب حول

1- ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص84.

2- العذري أحمد بن عمر بن أنس المعروف بالدلائي- "ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع المماليك- "تحقيق /عبد العزيز الاهواني- مطبعة معهد الدراسات الاسلامية مدريد

3- ابن عذاري- المصدر السابق- / ابن الخطيب- المصدر السابق- / وابن خلدون- نفسه- ج7 ص843.

4- مجهول - فتح الأندلس - دراسة وتحقيق لويس مولينا- المجليس الاعلى للابحاث العلمية الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي- ص116.

5- RACHEL arie apercus sur les royaumes bervers d'andalys au v /xi siecle page 154.

شخصية برزالية مقاتلة تحدث عنها ابن الخطيب بإعجاب وهو مقاتل بن عطية البرزالي[1] قال عنه نقلا عن أبي القاسم الفافقي: "كان من الفرسان الشجعان لا يضطر بناره وكان معه من قومه نحو ثلاث مائة فارس حي بني برزال. وولاه الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس مدينة اليسانة[2] والتقى به ابن عباد وأخذ بمخنقها وكان عبد الله يخدره، وعندما تحقق حركة للمتونيين إليه، حرفة عن جهته فقلّ لذلك ناصره وأسرع ذهاب أمره"[3].

مما يدل على أن بني برزال آثروا أن ينظموا إلى بني عمومهم من الطائفة البربرية بعد أن فقدوا كيانهم السياسي، وهي ظاهرة الانتماء والتكتل والتأم الأجزاء المبعثرة، عند حدوث الخطر لدى البربر ظاهرة لازمتهم خلال عهد الطوائف.

1- مقاتل عطية البرزالي - يكن أبا حرب من أهل غرناطة ويلقب بذي الوزارتين ويعرف بالرية لحمرة كانت في وجهة/ ابن الخطيب لسان الدين- الاحاطة في أخبار غرناطة- ج3 ص298.

2- اللسانية -مدينة اليهود ولها ربض يسكنه المسلمون وبعض اليهود وبه المسجد الجامع وهي أي ليسانية محضنة بسور حصين واليهود يسكنون بجوف الممينة ولا بداخلهم فيها مسلم البتة واهلها اغنياء مياسير اكثر غنا من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين ومن اليابسة الى قرطبة أربعون ميلا/ الادريسي أبوعبد الله الشريف- القارة الافريقية وجزيرة الأندلس- تحقيق اسماعيل الغربي- ديوان المطبوعات الجامعية- 1483م- ص299.

3- ابن الخطيب- المصدر نفسه- ج3 ص299-300.

الفصـــــل الثانــــي

بنــو يفرن أصحاب رندة

أصولـهم ومواطنـهم:

يعد بنو يفرن من أهم فروع قبيلة زناتة البترية[1]، وأوسع بطونها[2]، وهم حسب أبي محمد بن حزم، بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديدات بن شانا، وهم -أي بنو يفرن- إخوة مغراوة[3]، لكون مغرو ويفرن أخوين شقيقين[4] وأبوهما يصلتين[5]، وتفرعت من بني يفرن أفخاذ عديدة منها واركو ومرنجيسة[6] وبنو واسين ونمالة وغيرها، وكونت هذه المجموعات حلفا داخليا في المجموعة الكبرى لزناتة، وبنو يفرن من القبائل الرئيسية التي انتشرت في منطقة ما بين نهر الشلف بالمغرب الأوسط ونهر ملوية، إلى جانب قبيلة مغراوة يقول الراشدي صاحب كتاب "القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط": "وهاتان القبيلتان كانتا أكثر عددا وأقوى ملكا وجندا، وقوي تصرفهم في أراضي المغرب"[7].

---

1 - قسم علماء الأنساب القبائل البربرية إلى مجموعتين رئيسيتين- البرانس أعقاب برنس بن بر والبتر المنحدرون من سلالة مادغيس الأبتر بن بر ونسبوا الجد الأعلى بر الذي أعطى اسمه لهذه المجموعة إلى كنعان بن حام بن نوح، ابن خلدون/ القلقشندي- المصدر السابق- ص118/ عبد الوهاب بن منصور- قبائل المغرب- المطبعة الملكية الرباط- 1388هـ/1968م- ص32.

2 - ابن خلدون- نفسه- ج7 ص15.

Encyclopedie de l’islam – tome 3 – article Ifren – et brille – paris 1975.

3 - مغراوة- كانوا أوسع بطون زناتة وهم أهل بائس وهم إخوة بنو يفرن وبني يرنيان ولهم مع إخوتهم بنو يفرن اجتماع وافتراق ومناغاة وهم الذين هاجر أميرهم صولات بن وزمار إلى المدينة ووفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فأكرمه وعقد له على موضومة ووطنه، ابن خلدون- ج7 ص34.

4 - الناصري أبو العباس أحمد بن خالد- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- تحقيق ولديه جعفر الناصري ومحمد الناصري- دار الكتاب البيضاء 1954م- ج1 ص206.

5 - ابن حزم أبو محمد- جمهرة أنساب العرب- ص498/ ابن الخطيب- تاريخ المغرب العربي- ص164.

6 - مرنجيسة- إحدى بطون بني يفرن بضواحي إفريقية وكانت لهم كثرة وقوة وهم ممن ظاهرو أبو يزيد ولما انقرض أمره تعرضوا إلى التنكيل من قبل الشيعة وأولياءهم صنهاجة وشددوا عليهم إلى أن تلاشو وأصبحوا في الغابرين ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص32.

7 - الراشدي أحمد بن عبد الرحمن- القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط- تحقيق ناصر الدين سعيدوني- دار الغرب الإسلامي- 1991م- ص51.

وتوسعت رقعتهم الجغرافية في مناطق متعددة من بلاد المغرب، فاستقر قسم منهم في المنطقة الواقعة بين غرب طرابلس حتى إفريقيا، وهي مواطنهم التي اشتهروا بها، وعرفت في المصادر العربية "بوطن زناتة"[1]، وهي مناطق تتخللها الكهوف والمغاور[2]، ولعل اسم القبيلة مشتق من هذه الأماكن التي تعني بالبربرية "إفرو" البربرية، التي تحمل بين معانيها الكهف أو المغارة[3]، وللإشارة فإن التعريف الذي ورد عند ابن خلدون: "ويفرن "ويفرن في لغة البربر هو الغار"[4]، كما يشير ابن خلدون إلى أماكن تواجدهم بهذه المنطقة بقوله: "وأما إفريقية كلها إلى طرابلس فبسائط فتح كانت ديارا لنفزاوة وبني يفرن ونفوسة، ومن لا يحصى من قبائل البربر[5]، كما كان لهم تواجد في المناطق الشرقية من المغرب الأوسط، أين استقر بنو واركو ومرنجيسة بالجريد وجبال الأوراس ونزح فريق منهم إلى ورقلة عندما أجلاهم الهلاليون[6]، إلا أن المجموعة الكبيرة من بني يفرن استقرت في المناطق الممتدة بين جنوبي وهران وتلمسان إلى جبل بني راشد[7] من المغرب الأوسط، تجاورهم في هذه المنطقة قبائل وأفخاذ كمغراوة ومغيلة ومديونة وجراوة وودانة ومطغرة[8].

ومطغرة[8].

---

1 - ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله- فتوح مصر وأخبارها- ص294.

2 - رضوان البارودي- دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس- مركز الاسكندرية للكتاب 2007م- ص314.

3 - هاشم العلوي القاسمي- مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4هـ منتصف القرن 10م- 1415هـ/1995- ج2 ص131.

Rachel arie – ap sur les royaume berbers d'andalusie VXI siècle – page 154.

4 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص15.

5 - ابن خلدون- نفسه- ج6 ص103.

6 - مبارك بن محمد الميلي- المرجع السابق- ص584.

7 - ابن خلدون- نفسه- ج7 ص17.

8 - البكري- المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب- ص142/ رضوان البارودي- المرجع السابق- ص315/ هاشم العلوي القاسمي- نفسه- ج2 ص133.

وخلال القرن الرابع الهجري زحف قسم منهم إلى المغرب الأقصى، واستقروا بمنطقة سلا[1] على المحيط الأطلسي وتدلا[2].

ولعل المجال الجغرافي الذي انتشر فيه بنو يفرن هو الذي أثمر استقلاليتهم، من شلف شرقا إلى حوض نهر سبو، وهذا المجال الجغرافي كان مجالا مشتركا مع قبائل بربرية زناتية أخرى، وقد يكون هذا التنوع هو الذي طبع حركة بني يفرن بروح المنافسة[3].
المنافسة[3].

وفي اعتقادي أن استقطاب بني يفرن للقبائل والبطون الأخرى يعود بالدرجة الأولى إلى كونهم أشد القبائل مراسا وشوكة، وأكثرهم حضورا في التحالفات الحربية لمواجهة أعدائهم[4]، وقد أشار صاحب مفاخر البربر إلى عديد بني يفرن وكثرتهم بقوله: "وثوار بني يفرن أكثر من أن يعدوا"[5].

وفيما يخص مذهبهم الديني فقد كانوا من الخوارج الصفرية[6] الذين انتقلوا إلى بلاد المغرب فرارا من مركز الدولة[7]، فتلقفه أهل المغرب ودافعوا عنه، وذلك نتيجة السياسة العنيفة التي انتهجها ولاة الأمويين إزاء البربر، الأمر الذي أثار عند هؤلاء الرغبة في التمرد والعصيان والقيام بالثورة ضد العرب[8].

يقول د/ موسى لقبال: "أن أسباب ظهور المذهب الخارجي وانتشاره في بلاد المغرب يرجع بالدرجة الأولى إلى السياسة الإدارية السيئة، وإلى طريقة معاملة البربر

1 - سلا- مدينة تقع على شاطئ المحيط في موقع جميل غير بعيدة عن الرباط يفصلها عنها نهر أبي رقراق شيدها الرومان وتسلمها طارق بن زياد من القوط وبعد تأسيس مدينة فاس انضوت سلا تحت سلطة ملوكها ليون الإفريقي الحسن بن محمد الوزان الفاسي- ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر- دار الغرب الإسلامي- 1983م- ص207/ كتاب المغرب الصديق بن الغربي- دار الغرب الإسلامي – 1404هـ/1984م- ص230.

2 - تدلا- تقع على الضفة اليمنى لوادي أم ربيع اشتهرت بتربية الأغنام وبجودة الأصواف ويعرف إقليمها باسم فزاز- الصديق بن الغربي- المرجع السابق- ص91.

3 - هاشم العلوي القاسمي- المرجع السابق- ج1 ص133.

4 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص15.

5 - مجهول- مفاخر البربر- ص142.

6 - ابن خلدون- نفسه- ج7 ص16.

7 - عبد الكريم غلاب- قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي- دار الغرب الإسلامي- 1996م- ص175.

8 - رضوان البارودي- المرجع السابق- ص318.

المسلمين"[1]، وعلى أي حال، فإن بني يفرن اعتنقوا المذهب الخارجي وذادوا عن حياضه، إذ كان المذهب الخارجي الإطار الروحي والسياسي والثقافي الذي أعطى لجميع الفرق الإسلامية المناوئة للخلافة الأموية فرصة الرفض والتمرد، يقول ابن خلدون: "ففشا في البربر المذهب الخارجي، وضرب فيه بنو يفرن السهم وانتحلوه وقاتلوا عليه، وكان أول من جمع لذلك فيهم أبو قرة من أهل المغرب الأوسط"[2]، غير أن ابن خلدون يورد كلاما آخر مناقضا لما أورده من قبل، على أن بني يفرن كانوا على مذهب السنة، وينسب هذا الكلام لابن حزم[3].

مرحلة الفعل السياسي لبني يفرن في بلاد المغرب:

يعد المنتصف الثاني من القرن الثالث الهجري والأول من القرن الرابع الهجري مرحلة حاسمة في تطور الأوضاع في بلاد المغرب، بسبب المستجدات الطارئة على الساحة السياسية، حيث نجح الفاطميون في إقامة إمامة شيعية إسماعيلية[4] عام 296هـ/908م، بفضل الولاءات التي تحققت لها مع العديد من القبائل البرانسية (كتامة وصنهاجة) اللتان قدمتا لها مساعدات التي أمكنتها من القضاء على دول المغرب التي كانت قد أرست قواعد التوازنات السياسية في بلاد المغرب مثل الأغالبة والرستميين والمدرارين[5].

وكان بنو يفرن إحدى القبائل الزناتية التي وقفت في وجه المد الفاطمي لعدة اعتبارات منها:

---

1 - موسى لقبال- تاريخ المغرب الإسلامي- دار هومه 2002م- ص178.

2 - ابن خلدون- ج7 ص16.

3 - نفسه- ج7 ص18.

4 - الإسماعيلية- مذهب من مذاهب الشيعة ينسب إلى إسماعيل بن جعفر وهم عدة فرق اختلفوا في موته فمنهم من قال لم يمت بل أظهر موته تقية ومنهم من قال أن موته صحيح وأشهر فرق الإسماعيلية (الباطنية التعليمية) الشهرستاني أبو الفتح- الملل والنحل- تحقيق أبو محمد فريد- المكتبة التوفيقية – ص175.

5 - رضوان البارودي- المرجع السابق- ص322.

1- الخلاف المذهبي، فبنو يفرن كانوا خوارج ومذهبهم أقرب إلى المذهب السني[1]

2- العصبية القبلية حيث أثار انحياز كتامة وصنهاجة إلى الفواطم حفيظة بني يفرن الزناتيين، وأعلنوا ولاءهم للمروانيين بالأندلس.

وعندما ثار موسى بن أبي العافية[2] على الفاطمين والدخول في طاعة الأمويين، انضم بنو يفرن الزناتيون مع بقية قبائل المغرب إلى الطائفة المروانية[3].

كما ميز هذه المرحلة ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الخارجي[4] حيث شكلت خطرا حقيقيا على كيان الدولة الفاطمية[5] وهي إحدى الثورات الكبرى التي عبرت عن رفض القبائل الزناتية لنظام الحكم الفاطمي[6] واستغرق الفاطميون أربعة عشر سنة من المنافحة والذوذ حتى تمكنوا من أخمادها[7] وفي اعتقادي أن ثورة يزيد بن كيداد كانت وراء تراجع الفاطميين في توسعاتهم ناحية المغرب الأقصى والأندلس الذي كانوا يرومون الوصول إليها.

---

1 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص16.

2 - موسى بن أبي العافية- المكناسي بن [أي الضحاك الذي يعتبر مؤسس إمارة آل بني العافية عقد له ابن عمه مصالة بن حبوس على سائر بلاد المغرب سنة 306هـ، وأقره العبيديون على ولايته ثم ضم فاس سنة 315هـ، وأجلى الأدارسة عن مملكتهم ثم ما لبث أن تقض الدعوة الفاطمية ومال إلى المروانية ومات سنة 341هـ، ابن عذاري- المصدر السابق- ج1 ص194/ الناصري- الاستقصا- ج1 ص358.

3 - ابن حيان- المقتبس في تاريخ رجال الأندلس- ج5 ص370.

4 - أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الخارجي هو مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرحان بن مخلد بن عثمان بن ورميت بن تبقراس بن سميدان بن يفرن ويفرن هو أبو الكاهنة هبط من جبل الأوراس وتوسم الناس فيه الخير حارب الشيعة وخرب مدنها وكان على مذهب الخوارج النكار، ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص216،217،218/ القاضي نعمان- المجالس والمسايرات- تحقيق مجموع من العلماء- دار الغرب الإسلامي 1997م- ص196/ عبد العزيز سالم- المغرب الكبير- ج2 ص622،623،624/ ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص16.

5 - المقريزي- اتعاض الحنفاء- ص / سامية مصطفى مسعد- العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية- عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية- ص67.

6 - فتحي زغروت- العلاقات بين الأمويين والفاطميين في الأندلس والشمال الإفريقي- 2006- دار التوزيع والنشر الإسلامية- ص50.

7 - عبد العزيز سالم- المرجع السابق- ج2 ص622.

وكان بنو يفرن من أقوى المناصرين لهذه الثورة حيث انضم قسم منهم إليها واستماتوا في قتال الفاطميين[1] واستطاع أبو يزيد خلال ثلاث سنوات أن يقضي على نفوذ الفاطميين في المغرب الأوسط والأقصى إثر سلسلة من العمليات الحربية الناجحة وبظهور صنهاجة وانضمامها إلى جانب الفاطميين رجحت كفتهم وتوالت الهزائم على أبي يزيد إلى أن كانت المعركة الفاصلة التي دارت رحاها عند أسوار مدينة القيروان سنة 335هـ/946م ولما شعر أبو يزيد بالخطر لاذ بالفرار واعتصم بالجبال واختفى عند بني برزال[2] وتتبعته جيوش المنصور بن القائم حتى تمكنت من القبض عليه متأثرا بجراحه ومات سنة 336هـ/947م وبذلك تخلص الفاطميون من إحدى أهم الثورات التي كادت أن تودي بكيانهم.

ولما فرغ الفاطميون من القضاء على ثورة أبي يزيد اليفرني أجهزوا كذلك على بني يفرن وشرعوا في تقليم أظافرهم[3] وكانت أولى المحاولات هي تدبير مقتل محمد بن صالح أمير بني يفرن على يد محمد بن خزر المغراوي بمعية عبد الله بن بكار اليفرني وبعد مقتل محمد بن صالح تولى ابنه يعلى[4] إمارة بني يفرن.

عهد الأمير يعلى بن محمد:

يعتبر عهد الأمير يعلى بن محمد من ألمع العهود التي شهدها بنو يفرن وهي مرحلة الفعل السياسي لبني يفرن[5] وتحريك الأحداث في الداخل والخارج حيث بدأ عهده بالاستيلاء بالاستيلاء على مدينة تاهرت والقبض على قاتل أبيه بواسطة الخير بن محمد بن خزر المغراوي الذي رافقه في هذه الحملة ولما مثل عبد الله بن بكار اليفرني أمام يعلى استهجن شأنه يقول ابن عذاري: "ولا رآه كفؤا لعبده فكيف لوالده ودفعه المذكور إلى رجل من

1 - ابن خلدون- نفسه- ج7 ص19.

2 - بوزياني الدراجي- المرجع السابق- ص157.

3 - محمد بن عميرة- دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي- المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر 1984م- ص217.

4 - يعلى بن محمد هو أمير بني يفرن وخليفة الناصر لدين الله على بلاد المغرب غدر به جوهر الصقلي الذي أغرى من قتله من كتامة مقابل أموال أعطاهم إياها جوهر الصقلي اختط مدينة أفكان وقتل سنة 347هـ، ابن أبي زرع- الأنيس المطرب- ص89،90/ ابن خلدون- ج7 ص25/ ابن الخطيب- المصدر السابق- ص164.

5 - هاشم العلوي القاسمي- المرجع السابق- ج2 ص134.

البربر كان قد قتل ابنه فقتله به"[1] وبغية توسيع نفوذه أغار يعلى بن محمد على مدينة وهران وخربها[2] وأحرقها[3] يقول البكري: "وكانت الوقيعة بينهم يوم السبت للنصف من جمادى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة فدخل يعلى مدينة وهران وملكها ثم نقل أهلها إلى مدينته المعروفة وذلك في ذي القعدة من العام المؤرخ وخرب مدينة وهران ثانية وبقيت كذلك سنين ثم تراجع الناس إليها وبنيت"[4].

وكان قبل ذلك قد اختط مدينة أفكان[5] حتى تكون في منآ عن أطماع الفاطميين ولما شعر الفاطميون بدنو أجالهم في بلاد المغرب أوعز المعز لدين الله قائده الشهير جوهر بتصفية الأمير يعلى الحليف القوي للأمويين بالأندلس.

فآثر جوهر أن يتجنب مواجهة يعلى وأن يلجأ إلى الخديعة والغدر به حسب رواية ابن خلدون: "فلما فصل جوهر بالجنود بادر أمير زناتة بالمغرب يعلى بن محمد اليفرني إلى لقائه والإذعان لطاعته والانحياش إليه ونبذ عهد الأموية إلى لقيه الرحلة من بلده أفكان وأعطاه يد الانقياد وعهد البيعة عن قومه بني يفرن وزناتة فتقبلها جوهر وأضمر الفتك به وتحيز لذلك يوم فصوله من بلده وأسر إلى بعض مستخلصيه من الأتباع وأوقعوا نفرة في أعقاب العسكر طار إليها الزعماء من كتامة وصنهاجة وتقبض على يعلى فهلك في وطيس تلك الهيعة[6] فغص بالرماح على أيدي رجالات كتامة وصنهاجة وذهب دمه هدرا في القبائل القبائل وخرب جوهر مدينة أفكان وخرت زناتة أمامه وكشف القناع في مطالبهم"[7].

---

1 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج2 ص324.

2 - ابن خلدون- نفسه- ج7 ص24.

3 - الراشدي أحمد بن عبد الرحمن- المصدر السابق- ص52.

4 - البكري- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب- ص71.

5 - أفكان- تقع قرب مدينة معسكر حاليا كانت سوقا قديمة من أسواق زناتة رحل إليه خلق كثير من تاهرت وهران ويلل اختطها يعلى بن محمد وهي على سفح جبل وعليها سور من الطوب واشتهرت بكثرة المساجد والأرحاء والحمامات، البكري- المصدر السابق- ص79/ الحميري- الروض المعطار- ص

6 - الهيعة- هاع يهاع ويهيع وهاعا رجل هائع لائع ضعيف جزوع وامرأة هاعة لاعة أي جزوعة موجعة والهيعة صوت الصارخ للفزع وقيل الهيعة الصوت الذي تفزع منه وتخافه من عدو، ابن منظور- لسان العرب المحيط- تقديم عبد الله العلايلي- دار لسان العرب- بيروت- ج3 ص856.

7 - ابن خلدون- ج7 ص25.

ويعقب ابن خلدون على هذه الحادثة على أن بعض المؤرخين ذهبوا خلاف ما ذهب إليه من أن الوقيعة كانت بمدينة تاهرت ولعله يقصد ابن الأثير الذي أخذ بهذا الرأي[1] ولما فرغ جوهر من إنجاز مهمته الرئيسية وهي الغدر بيعلى وقتله[2] ونزل بعد ذلك على مدينة أفكان وأعمل في أهلها السيف وخربها[3].

وكان مقتل يعلى بن محمد ضربة قاتلة قسمت ظهر اليفرنين وتبددت جموعهم ولم يلتئم شملهم إلا بعد عودة يدو بعد مدة[4] ويمم قسم منهم نحو بلاد الأندلس[5] ومعهم بعض زعمائهم كما يذكر ذلك ابن عذاري: "وأن ابن عمه انتصب مكانة بإقامة قومه له ورجع القائد المذكور إلى قرطبة ومعه ولديه قرة ابن عم يعلى بن محمد المتقدم الذكر المقدم بعده في قومه بني يفرن فبولغ في إكرامه"[6] وحسب رواية ابن الخطيب وابن خلدون فإن يدو هو ابن يعلى بن محمد "فلم يجتمعوا إلا بعد حين على ابنه يدو بالمغرب"[7] وبمجيء يدو بن يعلى على رأس بني يفرن كان الصنهاجيون قد كثفوا حملاتهم على الزناتيين بقيادة زيري بن مناد الصنهاجي عام 360هـ/970م وابنه بلكين عام 361هـ/971م المنتقم لأبيه فشن هجوما كاسحا واستولى على تاهرت والمسيلة وطبنة وباغاي[8] وبجاية وبسكرة وتوعدهم بالإبادة والانتقام واتجهوا فارين نحو المغرب الأقصى[9] وفيما يخص يدو بن يعلى فقد ارتمى ارتمى في أحضان بني مروان وأخلص لهم بالطاعة وتحالف مع القوى الموالية للحكم

---

1 - ابن الأثير- المصدر السابق- ج8 ص524.

2 - ابن حيان- المقتبس في أخبار بلاد الأندلس- تحقيق صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية بيروت- 1426هـ/2006- ص118.

3 - ابن خلدون- نفسه- ج7 ص25/ الراشدي- المصدر السابق- ص52.

4 - مجهول- مفاخر البربر- ص95.

5 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص25.

6 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج2 ص332.

7 - ابن خلدون- نفسه- ج7 ص28.

8 - باغاي- تقع بالقرب من مسكيانة تحيط بها أنهار وبساتين وهي على مقربة من جبل أوراس ولها ربض عليه سور وهي أول بلاد التمر، عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص67/ الإدريسي- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس- ص177.

9 - مجهول- مفاخر البربر- ص98.

المستنصر وقتذاك[1] وللإشارة فإن التقارب الذي حصل بين بني أمية في الأندلس وبني يفرن يفرن في بلاد المغرب لم يكن وليد تلك الظروف وإنما هو عبارة عن ولاء قديم يرجع إلى عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان 23-35هـ/643-655م حين أسلم على يديه خزر بن حفص بن صولات بن وزمار وكانوا يظاهرون بالمروانية في الأندلس رعيا لهذا الولاء[2].

بني يفرن في الأندلس

أ- علاقتهم بالأمويين قبيل انتقالهم إلى الأندلس:

لم تبق العلاقات بين بني يفرن وحلفاؤهم من بني مروان[3] كما كانت عليه في السابق السابق فقد شقوا عصا الطاعة وقلبوا ظهر المجن هذا في الوقت الذي كان المنصور بن أبي عامر يواصل سياسته تجاه العدوة المغربية متقفيا آثار من سبقه من الخلفاء عبد الرحمن الناصر وعقبه الحكم المستنصر تلك السياسة التي أراد بها الخلفاء أن يجعلوا من المغرب خطا دفاعيا ضد المد الشيعي في بلاد المغرب[4] وكبح جماح الفاطميين عن طريق المجابهة العسكرية من جهة وتأييد العناصر المغربية من جهة أخرى[5] حيث برزت قبيلة بني يفرن ومن والها من القبائل –التي انضوت تحت لوائها- كجهة فاعلة في معادلة الصراع القائم بين الأمويين في الأندلس والفاطميين في بلاد المغرب وأظهروا بسالة ومراس منقطعي النظير وحسن تمثيل للمروانين في بلاد المغرب طيلة مدة حكم الناصر وابنه الحكم.

إلا أن اليفرنيين أدركوا أن المنصور بن أبي عامر قد أغمطهم هذا الحق ولم يجدوا عنده من التأييد والمكانة التي حضيوا بها أيام أسلافه ذلك أن المنصور تبنى سياسة تقوم

---

1 - نفسه- ص103.

2 - نفسه- ص95/ أبو زكريا يحي ابن خلدون- بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد- تحقيق عبد الحميد حاجيات- المكتبة الوطنية الجزائر- 1400هـ/1980م- ص84/ عبد العزيز فيلالي- المرجع السابق- ص87.

3 - بني مروان- ينتسبون إلى مروان بن الحكم بن سعد بن أبي العاصبن أمية استقدمه عثمان بن عفان من الطائف التي كان منفيا بها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وطوال خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب تولى الخلافة بعد يزيد بن معاوية، القلقشندي- نهاية الأرب- ص85.

4 - عبد المنعم الهامشي- الخلافة الأندلسية- دار ابن حزم بيروت- 1468هـ/2007م- ص

5 - السيد عبد العزيز سالم- تاريخ المسلمين وآثارهم- ص288،287.

على توازن القوى بين هذه القبائل حتى إذا مالت جهة ما إلى خصومه استعان بالجهة الأخرى وأرى أنها سياسة تنم عن حنكة سياسة نالها المنصور بن أبي عامر أثناء توليه المناصب الحساسة التي جعلته يطلع عن كثب على تلك المماحكات السياسية داخل أروقة السلطة.

وانطلاقا من هذه التشنجات بين الطرفين ساد نوع من التوتر في العلاقات بين بني يفرن والمنصور بن أبي عامر.

وحسب ظني أن بني يفرن ما كانوا ليولوا ظهورهم لبني أمية إلا عندما أحسوا أن العدوة الأندلسية لم تعد ذلك الملاذ الآمن الذي طالما احتمى به المغاربة وازداد نفورهم عندما رأوا أن خط الرجعة الذي تسربت عبره شخصيات يفرنية سواء لالتماس العون أو الانقطاع في أرض الأندلس لم يعد آمنا في عهد المنصور كما سوف أوضح ذلك لاحقا.

وكان مؤشرهم الأول الذي جعلهم يقطعون الشك باليقين هو انحياز المنصور بن أبي عامر إلى جانب المغراويين وزعيمهم زيري بن عطية[1] الذي توسم المنصور فيه الثبات والروية والوفاء والصراحة وهذا بالرغم من خوفه وكراهيته له[2] بينما لاحظ التذبذب وعدم الثبات في يدو بن يعلى.

واستطاع عبد الرحمن بن خلدون بذكائه وعبقريته كمؤرخ حاذق أن يثير أسباب هذا النفور سواء من قبل المنصور بن أبي عامر الذي كان يبحث عن حليف تتجسد فيه هذه المواصفات التي افتقدها في يدو بن يعلى هذا الأخير الذي كان على جانب من الحيطة والحذر من شخصية المنصور بن أبي عامر يقول ابن خلدون: "وكان يدو بن يعلى هذا من بين ملوك زناتة كثير الاضطراب على الأموية والمراوغة لهم بالطاعة وكان المنصور بن أبي عامر يضرب بينه وبين قرينه زيري بن عطية ويقرب كلا منهما بمناغاة صاحبه في الاستقامة وكان إلى زيري أميل وبطاعته أوثق لخلوصه وصدق طويته وانحياشه فكان

---

1 - زيري بن عطية- بن عبد الله بن خزر بن محمد بن خزر من بطون زناتة البربر عقد له المنصور على المغرب وأمره بضبطه وغلب على تلمسان مجدد له العهد وهو الذي اختط مدينة وجدة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة وأنزل بها جيشه وسكنها مع حشمه، القلقشندي أبو العباس أحمد- صبح الأعشى- دار الكتب الخديوية 2004م- ج5 ص186/ الناصري- الاستقصا- ج1 ص213.

2 - دوزي راينهارت- المرجع السابق- ص136.

يرجو أن يتمكن من قياد يدو بن يعلى لمناغاته"[1] فلما جفاه صاحبه[2] –أي زيري بن عطية- ويمم نحو العدة المغربية مغاضبا بسبب ما لم يلقه عند المنصور بن أبي عامر ما كان يرجوه من النفوذ والسلطة[3] عندها لجأ إلى يدو بن يعلى يحاول استمالته فقال يدو لبعض رسله: "قل لابن أبي عامر متى عهد حمر الوحش تنقاد للبياطرة"[4].

فلما تبين للمنصور أنه عدو مشاكس لا أمل في إخضاعه تبرأ منه وجهز إليه جيشا عرمرما بقيادة حليفه زيري بن عطية محرضا بعض الوجوه على تقديم المساعدة لزيري فالتقى الجمعان يوم الثلاثاء لاثنتين عشرة ليلة بقيت من محرم سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة بالملوية وكان إلى جانب يدو بن يعلى أخوه زيري بن يعلى[5] وانتهت الحرب بانهزام زيري بن عطية فكلم المنصور بن أبي عامر وانكسر خاطره لهزيمة زيري بن عطية وبهذه المناسبة انشد الشاعر الطبني يرثي ابن أبي عامر:

لاشك أن سجال الحرب مختلف ففيما روى الناس مذكانوا وقد عرفوا
فهون عليك فنصر الله يعقبــه يا رب كره إلى المحبوب ينصـرف
يا غرة السعد الميمون طائـره لا تكترث فإليك النصر ينعطــف
لو هلك الناس لا ينغصك هلكهم فأنت وحدك عنهم كلهم خلــف
لله عند عادات سيكملهــــا فعادة الله قسم ليس ينحــــرف
كم قد رأينا الذي يرتضي سببا إلى رضى بجميل الصنع يأتلـف[6]

واستشاط المنصور بن أبي عامر غضبا وثارت ثائرته لنبأ الإنتصار الذي أحرزه يدو بن يعلى وراح يشد أزر صاحبه زيري بن عطية[7] ويغريه بالألقاب حيث ولاه بلاد

1 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص28.
2 - القلقشندي أبو العباس- صبح الأعشى- ج5 ص186.
3 - رضوان البارودي- المرجع السابق- ص346.
4 - مجهول- مفاخر البربر- ص112/ ابن خلدون- نفسه- ج7 ص28/ الناصري- المصدر السابق- ج1 ص218.
5 - يشير أ/د عبد القادر بوباية على أن صاحب مفاخر البربر انفرد بذكره.
6 - مجهول- مفاخر البربر- ص113.
7 - ابن خلدون- ج7 ص28.

المغرب عوضا عن الوزير الحسن بن عبد الودود[1] وطلب من بعض القبائل الموالية له من مؤازرة زيري في صراعه ضد بني يفرن وتمكن زيري بفضل تلك المساعدات من إحراز النصر والثأر لهزيمته السابقة في موقعة عنيفة انتهت بهزيمة يدو بن يعلى ومصرعه وذلك سنة 383هـ/993م.

وهناك أمر في غاية الأهمية أرى أنه من الضرورة بمكان أن أجلي بعض جوانبه ويتعلق الأمر بنهاية يدو بن يعلى.

فصاحب مفاخر البربر يذكر أن يدو بن يعلى لاذ بالفرار وهام على وجهه في الصحراء حيث يقول "ومضى على وجهه لا يلوى على شيء ولاذ بالصحراء منكوبا واستحوذ زيري وأصحابه على قيطونه وماله فأخذ من ما لا كفاء له كثرة وأخذ أمه وأخته وكثيرا من حرمه وقتل من رجاله أزيد من ثلاثة آلاف فارس"[2] ويؤيد هذا الطرح ابن خلدون بقوله: "وخرج من الصحراء شريدا"[3] في حين يذكر ابن أبي زرع[4] وابن الخطيب[5] الخطيب[5] يذكران أن زيري بن عطية أقتحم عليه مدينة فاس وأخرجه منها وقتله ومثل به ثم ثم احتز رأسه وبعث بها إلى المنصور بن أبي عامر بالأندلس.

إلا أنني أميل إلى الطرح الأول الذي أورده كل من صاحب مفاخر البربر وابن خلدون وذلك للاعتبارات التالية.

أولا: لو فرضنا جدلا أن المنصور بن أبي عامر تلقى على رأس يدو بن يعلى لما غفلت المصادر الأندلسية عن ذكر هذا الحدث.

ثانيا: يفترض أن يدو بن يعلى كان مثخنا بالجراح التي أصيب بها أثناء المواجهة

1 - الحسن بن عبد الودود السلمي عينه المنصور عقب مقتل الحسن بن كنون فضبط المغرب وهابته البرابرة فعز سلطانه وكثر جمعه وانظم إليه ملوك النواحي حتى خشي المنصور بن أبي عامر مغبة استقلاله، ابن خلدون- نفسه- ج7 ص28.

2 - مجهول- مفاخر البربر- ص115.

3 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص29.

4 - ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص

5 - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص165.

ثالثا: العامل النفسي الذي أصيب به حيث رزئ في أهله وحريمه[1] جعلته يعتصم ويلوذ بالصحراء ليقضي بقية حياته هناك.

جواز بنو يفرن إلى الأندلس:

ذكرت أن أول مجموعة توجهت إلى الأندلس سنة 347هـ/958م في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وذلك بعد وفاة يعلى بن محمد وسقوط إمارته[2] تحت قيادة أحد أبناء أبي قرة بن دوناس بن محمد واستقبله استقبالا حافلا وحظي عنده بالتكريم والتجلة[3] ويشير عبد الرحمن ابن خلدون أن بين الفترة التي قضى فيها يعلى بن محمد على يد جوهر الصقلي وقيام ابنه يدو بن يعلى غادرت جموع غفيرة من بني يفرن أرض العدوة المغربية متوجهة نحو الأندلس[4] إذ ظل تيار الهجرة متواصلا ولم يتوقف حتى خلال الفترة الحرجة خلال عهد المنصور بن أبي عامر الذي تبنى سياسة التوازنات بين القبائل كما أشرت إلى ذلك من قبل.

لم يكن سقوط يعلى بن محمد أمرا هينا بالنسبة لبني يفرن المهاجرين إذ يحتمل حسب ظني أن يكون زعيما روحيا يلهب صدور أتباعه بروح الإقدام والاستشهاد هذا فضلا عن كونه زعيما عسكريا محنكا.

ومن هنا تكون شوكة بني يفرن وغيرهم من قبائل زناتة المنضوية تحت سلطة بني يفرن قد انكسرت في أعقاب الحملة التي قام بها القائد الفاطمي جوهر الصقلي على بلاد المغرب عام 347هـ، مما اضطر بني يفرن إلى مغادرة المغرب الأوسط والاتجاه غربا إما إلى المغرب الأقصى أو إلى العدوة الأندلسية لائذين بحماية الأمويين.

---

1 - مجهول- مفاخر البربر- ص115/ السيد عبد العزيز سالم- المغرب الكبير- ج2 ص633.

2 - ارزقي محمد فراد- المرجع السابق- ص79.

3 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج2 ص222.

4 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص25.

أما المجموعة الثانية فقد دخلت الأندلس بعد هلاك يدو بن يعلى يقول صاحب مفاخر البربر: "وكان سبب جواز بني يفرن مهلك أميرهم يدو بن يعلى"[1] والتنكيل باليفرنيين بمدينة فاس في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

وكان هذا الانحياز نحو الأندلس بعد الاضطراب والتصدع الذي أصاب بني يفرن على مستوى قيادتهم فبعد اختفاء يدو بن يعلى من الساحة السياسية برز ابن أخيه حبوس بن زيري بن يعلى[2] فلم تدم رياسته طويلا حيث وثب عليه ابن عمه أبو يداس بن دوناس[3] فأرداه قتيلا.

ومما لا شك فيه أن أبو يداس بن دوناس كان مؤيدا ومدفوعا في نفس الوقت من قبل حكومة قرطبة[4] التي كانت تراقب الوضع ومستجدات الأحداث عن كثب إد أن استقرار الأندلس كان مرهونا باستقرار المغرب وتبعيته للحكومة العامرية بالأندلس خاصة وأنها سخرت جميع إمكانياتها السياسية والعسكرية من أجل إخضاع بلاد المغرب لسيطرتها.

إلا أن الأغلبية من بني يفرن كانوا يميلون إلى إبقاء الإمارة في عقب يدو بن يعلى وأسرته واحتدام الجدل بين بني يفرن وتقلبت على أبي يداس بن دوناس واختلف عليه قومه[5] وعندما أيقن أنه لا جدوى من رياسة قوم هم له كارهون ولى وجهه نحو الأندلس ومما جاء في كتاب مفاخر البربر: "فاختلف عليه بنو يفرن واضطر إلى دخول الأندلس مستأمنا فيمن كان معه عند تلك الفتكة فجاء بجمع عظيم كانوا في الأصل في تكاثر هذه القبيلة"[6].

ومما هو جدير بالملاحظة أن رحيل أبو يداس بن دوناس نحو الأندلس جاء بإيعاز من حكومة قرطبة بعد إذ توسط له اخوته الذين كانت اقدامهم قد وطئت أرض الأندلس أبو

1 - مجهول- مفاخر البربر- ص136.

2 - حبوس بن زيري بن يعلى- هو أخ يدو بن يعلى وقد خلفه على بني يفرن بعد الهزيمة التي مني بها من قبل زيري بن عطية، مفاخر البربر- ص115/ ابن خلدون- ج7 ص29.

3 - أبو يداس بن دوناس- وهو قاتل حبوس بن زيري بن يعلى وهو من عبر إلى الأندلس مع نفر عظيم من قومه، مفاخر البربر- ص115.

4 - أرزقي محمد فراد- المرجع السابق- ص79.

5 - مفاخر البربر- ص115/ ابن خلدون- ج7 ص30.

6 - نفسه- ص116،115.

قرة وأبو يزيد وعطاف لدى المنصور ابن أبي عامر الذي كان يرغب حسب ظني إلى تمزيق الصف اليفرني وإضعاف من بقي منهم ببلاد المغرب حتى لا يقدرون عن مواجهة المغراويين وربما لتحقيق التوازن وإبقاء تبعية المغراويين للأمويين بالأندلس.

وعلى أي حال فقد استقبل المنصور وفد بني يفرن الذي كان يضم شخصيات هامة يقول ابن خلدون: "فحل كلهم من المنصور محل التكرمة والإيثار ونظمه جملة الرؤساء والأمراء وأسنى له الجراية والإقطاع وأثبت رجاله في الديوان ومن أجاز من قومه فبعد صيته وعلا في الدولة كعبه"[1].

وبذلك يكون بنو يفرن قد تفرقوا إلى شقين قسم منهم آثر الانحياز إلى الدعوة المروانية والجدير بالملاحظة أن فلول اليفرنيين الذين هاجروا إلى الأندلس كانوا في غالبيتهم من أبناء وأحفاد دوناس بن محمد بن صالح اليفرني في حين أن أبناء وأحفاد يعلى بن محمد هم الذين استقروا ببلاد المغرب[2] وأسندوا رياستهم للأمير حمامة بن زيري بن يعلى واتخذوا من مدينة سلا عاصمة لهم وانقضت أيامهم في مقارعة المغراويين وجهاد برغواطة[3] المارقين على أيام أبو الكمال تميم الذي استطاع أن يقهر ضلالتهم ويستوطن ديارهم[4] إلى أن كانت نهايتهم على يد المرابطين الذين دخلوا مدينة فاس عام 462هـ/1070م[5] وأفلت بذلك شمسهم وأصبحوا في الغابرين.

---

1 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص30.

2 - رضوان البارودي- المرجع السابق- ص359.

3 - برغواطة- يرجع أصل الكلمة إلى وادي برباط الأندلس الذي منه صالح بن طريف المتنبئ فقيل لكل من دخل ديانته برباطي فأحالته العرب بألسنتهم فقالت برغواطي وهم في الأصل من زناتة رحل إلى المشرق فقرأ على عبيد القادري المعتزلي واشتغل بالسحر فمهر فيه وقدم بالمغرب فاستمال خلقا كثيرا بما أظهر من الإسلام والزهد والورع وغالط من لقيه، مفاخر البربر- ص139/ ابن الخطيب- المصدر السابق- 182،181،180.

4 - البكري- المصدر السابق- ص131.

5 - ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص141.

بنو يفرن في جيش المنصور بن أبي عامر

لقد صادف عبور بني يفرن هوا في نفس الحاجب المنصور بن أبي عامر إذ أن سياسته كانت ترمي إلى إحداث التوازنات[1] في الجيش الأندلسي والقضاء على العصبية الأحادية في صفوف هذا الجيش.

وفي حقيقة الأمر فإن بوادر سياسة الاعتماد على العناصر البربرية وإقحامها في صفوف الجيش الأندلسي بدأت إرهاصاتها مع الخليفة الحكم المستنصر لمجابهة المد الفاطمي في بلاد المغرب وإلحاقهم بالثغور الشمالية لمجابهة المد الصليبي الذي بدأت طلائعه تتململ في الشمال.

وتنفيذا لهذه القناعات شرع المنصور في استقدام القبائل والجماعات البربرية الواحدة تلوى الأخرى عبر الموانئ التي أعدها المنصور خصيصا لهذا الغرض لاستقبال القوى المغربية عبر موانئ الجزيرة Algeziras ومالقة Malaga وألمرية Almerie وكانت الطليعة الأولى من المتطوعين المغاربة في عصر المنصور والتي عبرت المضيق إلى الأندلس هي تلك التي صاحبت جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي عامله على المغرب 367هـ/987م واجتازت معه إلى الأندلس لتغذي جيشه بالمقاتلين وكان عددهم نحو ستمائة فارس وذلك بعد النكبة التي مني بها جيشه إثر مواجهة برغواطة[2] وفيما بعد وصلت قوات الحسن بن قنون[3] أحد الثائرين في وجه الأمويين سنة 375هـ/985م ثم وصل أبو يداس بن

---

1 - انظر الفصل الأول من هذا البحث ص

2 - مفاخر البربر- ص105.

3 - الحسن بن قنون- بن محمد بن القاسم بن إدريس الحسني ولي بعد انصراف أخيه للجهاد الذي مات فيه وهو آخر ملوك الأدارسة بالمغرب عدل عن موالاته للأمويين وتمسك بدعوة العبيديين كان شديد الجرأة قاسي القلب جاهلا متهورا يطرح من ظفر به أعدائه من شاهف الجبال قتل أثناء عبوره إلى الأندلس حين أرسل إلأيه المنصور من اغتاله في جمادى الأولى

دوناس من بني يفرن سنة 381هـ/995م بعد مقتل يدو بن يعلى اليفرني وللإشارة فإن بربر صنهاجة ظلوا مترددين في الدخول إلى الأندلس للجفوة التي كانت بينهم وبين المنصور بن أبي عامر وظلوا على هذه الحال إلى قبيل وفاة المنصور الذي سمح لهم بالدخول تحت قيادة زعيمهم زاوي بن زيري بن مناد[1].

وعليه فإن المنصور بن أبي عامر أراد أن يضيف إلى هذه السياسة المنتهجة من قبل أسلافه من الأمويين أمرا جديدا لا يقل أهمية عما سبق ألا وهو عزمه على إعادة تنظيم الجيش وإحداث الهيكلة العامة في صفوفه[2] فبعد أن كان قائما على نظام الأجناد أو الكور المجندة[3] واستبدل المنصور هذا النظام العسكري بنظام جديد يجعل الجيش فرقا متعددة تتألف كل فرقة من عناصر مختلفة كالعرب والبربر والصقالبة حتى تمكن من اجتثاث العصبية القبلية من بين الفرق المختلفة المشكلة لقوة الأندلس العسكرية[4].

وبعبارة أخرى أراد المنصور بن أبي عامر أن يجعل من الجيش الأندلسي جيشا قوميا لا يخضع للأقلية التي تتحد معها مصادر القرار وبالتالي يتعذر على السلطة المركزية التحكم في دفة الجيش انطلاقا من حرصه على جعله أداة طيعة تقمع كل محاولة تهدد السلطة المركزية في قرطبة وذلك بعد أن أدرك المنصور ببعد نظره أن زعماء الجند كانوا يجمعون معظم القوة في أيديهم[5].

وبعد هيكلة الجيش أطلق المنصور على الجيش المغربي الجديد اسم الحضرة أي جند العاصمة يخضعون لرئاسته وقيادته المباشرة ولا يطيعون غيره وعليه وإثر هذا التقسيم أصبح الجيش الأندلسي مقسما إلى قسمين قسم يديره الحاجب المنصور بن أبي عامر بنفسه

سنة خمس وسبعين وثلاثمائة كانت مدة حكمه ستة عشرة سنة، مفاخر البربر- ص100/ ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص89/ ابن الخطيب- المصدر السابق- ص224.

1 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص320/ أرزقي محمد فراد- ص20.

2 - عبد المنعم الهاشمي- المرجع السابق- ص540.

3 - حسين مؤنس- فجر الأندلس ص

4 - عبد القادر بوباية- البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري- رسالة دكتوراه غير مطبوعة- جامعة وهران 2002/2001م- ص33.

5 - دوزي راينهارت- المرجع السابق- ص111.

وهو جيش الحضرة والقسم الثاني يديره القائد غالب صاحب مدينة سالم ويدعى جيش الثغر[1].

ولقد أشار الأمير عبد الله الزيري آخر أمراء بني زيري في غرناطة في كتابه التبيان: "وتوقع -أي المنصور- أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته إذ كانوا صنفا واحدا وتألبهم على أمره متى أمر بما أحبوا أو كرهوا فنظر في ذلك بعين اليقظة وسول له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتا متفرقة إن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة غلبها بسائر الفئات مع احتياجه إلى تقوية عسكره والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلل بلاد العدو وتدويخها متى شاء فاستجلب من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغه فروسيته وشدته"[2].

ودأب المنصور بن أبي عامر في استقدامهم وأسبل عليهم النعم ويبذل إليهم الإحسان وتدافعوا نحوه وهم ينثالون عليه انثيالا فأقبلوا عليه من كل فج يرومون الانضمام إليه مسرعين لا يلوون على شيء[3] حتى أن الرجل منهم كان يجيء إلى الأندلس بلباس الخرق الأعجب فيبدل بلباس الطرازي وغيره ويركب الجواد العتيق ويسكن القصر حتى صاروا أكثر الأجناد في الأندلس[4].

وعرفانا بهذا التكريم وحسن الاستقبال انضم بنو يفرن إلى جيش المنصور وأصبحوا من أكثر العناصر البربرية إخلاصا للدولة الأموية بوجه عام وللمنصور بن أبي عامر بوجه خاص وسجلوا حضورهم بقوة في الحروب التي خاضها المنصور ضد نصارى الشمال وفي بلاد المغرب وخدموا في الدولة والجيش أسوة بباقي الوافدين من القبائل البربرية[5] التي التي كان يحسن احتوائها واستخدامها كقاعدة صلبة في جيشه.

وعندما شق زيري بن عطية عصا الطاعة لبني مروان وقلب للمنصور بن أبي عامر ظهر المجن استقدم واضحا الصقلبي وقلده حرب زيري بن عطية واحدة لمجموعة

---

1 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج2 ص265.

2 - الأمير عبد الله الزيري- التبيان- ص57.

3 - عبد العزيز فيلالي- المرجع السابق- ص266.

4 - ابن عذاري المراكشي- نفسه- ج2 ص294،293.

5 - عبد الله عنان- المرجع السابق- ص150.

من قواد البربر وأمرائهم وكان بنو يفرن ممن حضر في هذه الحملة تحت قيادة أبو البخت بن عبد الله بن بكر[1] وحتى بعد وفاة المنصور بن أبي عامر ظل بنو يفرن على أمشط أرجلهم في صفوف الجيش العامري يذودون عن حياض الدولة العامرية وكانوا كغيرهم من القبائل المغربية التي شاركت في الغزوة التي أزمع فيها عبد الرحمن بن المنصور الملقب "بشنجول" غزوة ليون وجليقية عام 399هـ/1009م[2] وأثناء عودته من غزوته تلك التي لم يحقق أية نتيجة تذكر وفي طليطلة بلغته الأنباء بقيام الثورة في قرطبة ضد العامريين وأن زعيم هذه الثورة هو أحد الشخصيات المنتمية للبيت المرواني وهو الأمير محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر والملقب بالمهدي وقبل أن يقطع عبد الرحمن بن أبي عامر خط رجعته نحو قرطبة تخلى عنه زعماء البربر حين أدركوا أن نجم الدولة العامرية قد أخل وأن ساعة الحسم قد أزفت فاندفعوا مسرعين لمبايعة الخليفة الجديد وكان أبو زيد بن دوناس وعبد الرحمن بن عطاف وأبو نور بن أبي قرة زعماء بني يفرن في مقدمة من أعلنوا بيعتهم للمهدي[3].

---

1 - أبو البخت بن عبد الله بن بكر-

2 - ابن عذاري المراكشي- ج3 ص

3 - نفسه- ج3 ص71.

دور بني يفرن في الفتنة القرطبية:

مع نهاية العقد العاشر من القرن الرابع الهجري كانت الأندلس على موعد مع حدث تاريخي احتل بأبعاده وانعكاساته مكانة بارزة في التاريخ الأندلسي بوجه خاص والإسلامي بوجه عام انهار معه الكيان الأندلسي وتحول إلى أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة[1] وكان للبربر دور بارز في هذه الأحداث إن لم أقل كانوا قطب رحى الفتنة القرطبية باعتبارهم شريحة بربرية واسعة استطاعت أن تتنفذ في العديد من القطاعات[2] وخاصة قطاع الجيش –مطيتهم للقطاعات الأخرى- الذي قادتهم إليه سياسة المنصور بن أبي عامر وأبناؤه من بعده وخاصة عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر الذي أمعن في سياسة والده[3] يقول ابن بسام: "وانهمك –أي عبد الملك- في اصطناع البرابرة العدويين ودعا القبائل منهم إلى الدخول إليه والخدمة له وكان من أعظم من هاجر إليه منهم زاوي بن مناد الصنهاجي"[4].

وعليه فعندما اشتعلت نار الفتنة في قرطبة كان بنو يفرن طرفا فيها شأنهم شأن بقية العناصر البربرية الأخرى في الأندلس يقول صاحب مفاخر البربر: "فأقاموا بالأندلس إلى أمد الجماعة ونزول الفتنة المبيدة فكسحوا في الفتنة كما فعل غيرهم واستقر أمرهم آخرا بمدينة رندة وأحوازها" فهم –أي بنو يفرن- عندما لاح لهم نهاية العامريين في الأفق انفضوا عنهم مع بقية العناصر البربرية وكان على رأسهم أبو زيد بن دوناس اليفرني

1 - د حمد بن صالح السحيباني- الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم "عصر ملوك الطوائف- مطابع الأهرام – 2002م- ص45.

2 - André clot – l’Espagne musulmane VIII / XV siècle – librairie academique perrin – 1999 France – page 186.

3 - السيد عبد العزيز سالم- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس- دار النهضة العربية- 1971م- ج1 ص84.

4 - ابن بسام الشنتريني- المصدر السابق- ج4 ص50.

وانضموا إلى المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار[1] إلا أن هذا الأخير خيب آمالهم وقابلهم بالإساءة وقد أشرت إلى ذلك في الفصل التمهيدي لهذا البحث.

وعندئذ أدرك البربر أن المهدي وأهل قرطبة يضمرون لهم الشر رحلوا عن قرطبة وانضموا إلى أحد المنافسين للمهدي من البيت الأموي وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمستعين[2].

وهنا يمكن الإشارة إلى أن بني يفرن وبالرغم من الخلافات القائمة مع العناصر البربرية الأخرى إلا أنهم ساءهم ما فعله المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بإخوانهم البربر فدفعهم إلى التحول عنه.

ودخل بنو يفرن في جيش المستعين ليس مقاتلين لمنافسين لهم على الحكم فحسب بل مقاتلين لأطراف يحملونهم مسؤولية ما حصل في بلدهم[3] ويريدون تصفيتهم من الأندلس حتى قال قائلهم وهو المرتضى المرواني:

قد بلغ البربر فينا بنا   ما أفسد الأحوال والنظما[4]

لذلك قاتل البربر وبنو يفرن باستماتة منقطعة النظير وتمكنوا بعد عدة اشتباكات مع المهدي وأنصاره من إحراز النصر والدخول إلى قرطبة كان ذلك في شهر ربيع الأول عام 400هـ/1009م[5].

فلجأ المهدي إلى الاستعانة بنصارى الشمال والدخول إلى قرطبة من جديد وهكذا أصبحت مدينة قرطبة يتجاذبها الطرفان إلى أن كان موقعة "وادي آره Guadiaro" حيث نشبت معركة عنيفة بين الطرفين وشارك فيها بنو يفرن تحت قيادة زعيمهم أبو يداس بن دوناس الذي أعلن مساندته للمستعين في حربه ضد المهدي[6].

---

1 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص71.

2 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص71.

3 - ابن بسام- المصدر السابق- ج1 ص22.

4 - المقري- المصدر السابق- ج1 ص430.

5 - عبد الواحد المراكشي- ص77/ ابن الخطيب- أعمال الأعلام- ص113.

6 - أرزقي محمد فراد- المرجع السابق- ص79.

وأبلوا في هذه الموقعة البلاء الحسن مما جعلهم يتميزون عن غيرهم من المقاتلين حيث يذكر ابن خلدون أن الزعيم اليفرني أبي يداس بن دوناس ومن معهم من يفرن تميزوا عن غيرهم من المقاتلين لما أبدوه من مراس وشجاعة في هذه الموقعة: "فكانت بين الفريقين جولة عظم بلاء البرابرة وطار لأبي يداس فيها ذكر وانهزم المهدي والطاغية وجموعهم بعد أن تضايقت المعركة وأصابت أبا يداس بن دوناس جراحات كان فيها مهلكه ودفن"[1] لقد كان لمصرع أبي يداس بن دوناس في ميدان القتال تأثير عميق ليس فقط على بني يفرن وحدهم بل على جميع البرابرة كما يذكر ذلك أبو بكر ابن الغربي نقلا عن سعيد المرابط: "وطعن فارسهم أبو يداس في الحرب بعد بلاء عظيم كان منه فحزنت له جماعة البرابرة ثم هلك فدفنه البرابرة هناك"[2].

وقتل من بني يفرن وبني برزال سبعة عشر فارسا[3] مما يدل –كما أشرت سلفا- أن بني يفرن ارتموا في هذه المعركة وقاتلوا قتال من لا يرجو الحياة إلا مع النصر هذا فضلا عن كونهم مقاتلين أشاوس جبلوا على القتال يتقدمهم أمراءهم الذين كانوا يلقون حتفهم في جميع المواقع التي خاضوها سواء في بلاد المغرب أو الأندلس وكان مصرع أبو يداس بن دوناس دليلا قويا على جسارة هؤلاء المقاتلين من بني يفرن ومما يدل على الحضور القوي لبني يفرن هو ما أورده ابن حيان برواية أحد رجالات بني يفرن حيث يقول: "ويجوز الفارس الثلاثين دابة وفوقها ودونها فلا يساهم فيها وكذلك الخيام والأمتعة ولقد سبق زيري بن مرين اليفرني ورجلان معه من بني عمه إلى مضرب المهدي فهتكوه وسبقوا إلى جوالق مال فيها عشرون ألف مثقال اقتسموها بينهم فشهروا فيما بعد بالثراء والمكانة"[4].

وقد أشار ابن خلدون إلى أن أبناء وأحفاد أبو يداس بن دوناس مضوا على نهج آبائهم في الاستبسال والمنافسة والقتال ضد أعداءهم كما كان لهم دورهم وبروزهم في المناصب التي وزروها أو ترأسوها : "وكان لابنه خلوف وحفيده تميم بن خلوف من رجالات زناتة

---

1 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص30.

2 - أبي العربي أبو بكر- شواهد الجلة- تحقيق محمد يعلى- المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- ص379.

3 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص70.

4 - ابن العربي ابو بكر- المصدر السابق- ص381.

بالأندلس شجاعة ورياسة وكان يحي بن عبد الرحمن ابن أخيه عطاف[1] من رجالاتهم وكان له اختصاص بني حمو ثم القاسم منهم ولاه على قرطبة أيام خلافته والبقاء لله وحده"[2].

ومن هنا يمكن القول أن للبربر عامة وبنو يفرن خاصة الفضل الأكبر في انتصار سليمان المستعين ودخوله قرطبة محاطا بالعناصر البربرية التي قادته إلى هذا النصر.

غير أن المستعين وبالرغم من الانتصار الذي أحرزه بمعية البربر ورغم الدور الرئيس الذي قامت به العناصر البربرية إلا أنه كان قلقا من وجودهم داخل قرطبة[3] فبادر إلى طريقة المكافئة التي كانت بداية النهاية لتمزيق الأندلس وظهور ما يسمى بملوك الطوائف وقد أشرت إلى ذلك بالتفصيل في الفصل التمهيدي وكذا الفصل الأول من هذا البحث.

فكان نصيب بني يفرن من حصة التقسيم كورة جيان[4] Jean وذلك بالاشتراك مع بني برزال إلا أن بني يفرن لم يستطيعوا الاحتفاظ بها فلم يلبث حبوس بن ماكس صاحب غرناطة أن استولى عليها وضمها إلى مملكته[5].

ويذكر صاحب المغرب في حلى المغرب أن مدينة جيان تنازعها بنو عباد وبنو زيري طيلة عهد الطوائف: "كانت في مدة ملوك الطوائف تارة لبني عباد وتارة لصنهاجة ملوك غرناطة"[6].

<u>بنو يفرن في رندة وعلاقتهم بدول الطوائف:</u>

---

1 - عبد الرحمن بن عطاف اليفرني- استخلفه على قرطبة أبو القاسم يحي بن علي وبقي الأمر على ذلك إلى سنة 417هـ، عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص48.

2 -

3 - المقري- المصدر السابق- ج1 ص430/ رضوان البارودي- المرجع السابق- ص365.

4 - جيان- تقع بين غرناطة وطليطلة شرق قرطبة وهي من أعظم مدن الأندلس منيعة لا ترام بقتال ولها حصون عديدة وقرى متصلة ومن مدنها مدينة أبدة وبياسة وننكشة وبسطة أراضيها خصبة تتميز بعذوبة المياه وكثرة الثمار والعيون وكثرة الحرير والأخشاب- مجهول- تاريخ الأندلس- ص91/ ابن غالب- فرحة الأنفس- ص284.

5 - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص229.

6 - ابن سعيد علي موسى- المغرب في حلى المغرب- تحقيق خليل المنصور- دار الكتب العلمية بيروت- 1417هـ/1997م- ج2 ص43.

عندما تردت الحالة السياسية في بلاد الأندلس وانفرط عقد الوحدة بين مسلمي الأندلس انتهزت العناصر البربرية فرصة سقوط الخلافة الأموية بقرطبة فأعلن زعماؤهم استقلالهم بالمناطق التي انحازوا إليها[1] بموجب التنازلات التي حصلوا عليها من الخليفة سليمان المستعين وأقرهم عليها حيث يقول عبد الواحد المراكشي: "وأما حال سائر الأندلس بعد احتلال دعوة بني أمية أن أهلها تفرقوا فرقا وتغلب في كل منها متغلب وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه"[2].

وفي غمرة هذا التصدع والانشطار الذي أصاب الأندلس انزوت العناصر البربرية في الجزء الجنوبي من الأندلس فقد استقل بنو زيري الصنهاجيون بغرناطة وبنو برزال بقرمونة وبنو دمر الإباضيون بموررور وبنو أبي قرة برندة[3].

ومما تجدر الإشارة إليه فإن تمركز البربر في هذه المناطق الجنوبية يعود بالدرجة الأولى إلى قرب المنطقة من بلدهم الأصلي وقد أشرت إلى ذلك في الفصل الأول من هذا البحث.

وكان نصيب بني يفرن من هذا التقسيم إقليم تاكرونا الذي تدفقت عناصرهم نحوه وجعلوا من مدينة رندة عاصمة لهم ومركزا لرياستهم[1].

1- luis suarez fernandez – historie de espana edad- media editorial – gredos madrid – page 165-166.

2 - عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص59.

3 - رندة- مدينة قديمة أحد معاقل الأندلس الممتنعة وقواعدها السامية المرتفعة تحيط بها الأودية التي استحلبت منها المياه من ناحية الشرق وناحية الغرب فتوافي المياه داخلها وبها زرع واسع وضرع سائغ إلا أن هناك من الشعراء من استثقلها وتطير بنزولها كالشاعر أبو الفتح ابن فاخر التونسي الذي هجاها بهذه الأبيات-

قبحا لرندة مثلما   قبحت مطالعة الذنوب
بلد عليه وحشة   ما إن يفارقه القطوب
ما حلها أحد فينـ   ـوي بعد بين أن يؤوب
لم آتها عند الضحى   إلا خيل لي غروب
أفق أغم وساحة   تملأ القلوب من الكروب

- يقوت الحموي- معجم البلدان- دار صادر- ج3 ص73/ ابن سعيد الغرناطي- المصدر السابق- ج1 ص257،258/ القزويني زكريا بن محمد بن محمود- آثار البلاد وأخبار العباد- دار صادر بيروت- ص535/ المقري- المصدر السابق- ج4 ص132،133.

كما يمكن الإشارة إلى أنه من السهولة بمكان أن يهتدي الباحث من خلال الكتب الجغرافية التي تناولت المدن والقرى الأندلسية أن مدينة رندة كانت من أحصن المدن لذلك آثر بنو يفرن الاحتفاظ بها والتنازل لبني زيري عن مدينة جيان هذه المدينة التي كانت محل نزاع بين بني زيري ملوك غرناطة وبني عباد ملوك إشبيلية كما أشرت إلى ذلك سابقا.

وفي هذه الظروف الحرجة برزت إحدى الشخصيات اليفرنية لتتولى القيادة برندة ألا وهي شخصية أبو نور هلال بن أبي قرة بن دوناس اليفرني أحد إخوة أبو يداس صاحب الدور الرئيس[2] لبني يفرن في هذه الأوقات الحرجة وصاحب اليد الطولى في استقرار بني يفرن في إقليم تاكرونا[3] واستطاع أبو نور هلال بن أبي قرة أن يدخل إلى رندة وينتزعها من صاحبها عامر بن فتوح الفائقي من موالي الأمويين[4] وهو أول من ثار بمالقة في بداية عهد ملوك الطوائف وظل بها إلى أن انتزعها منه علي بن حمود بالخديعة[5] إلا أن المصادر التي وقفت عليها لم تشر إلى أسباب وظروف التي اكتنفت حدث دخول أبي نور هلال اليفرني إلى رندة وخروج عامر بن فتوح الفائقي منها.

بيد أن صاحب أعمال الأعلام يصفه بأوصاف متناقضة حيث يقول: "كان زعيما جسورا جشعا مقداما عزيز الجانب ببأس رجاله ووعورة رحاله وحصانة قلاعه ولكنه كان في نفس الوقت عاطلا عن كل فضيلة وكل خلة حسنة شارعا في لذاته لا تنفق درهما واحدا على دأبه في الباطل فوق طوقه"[6].

---

1 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص150.

2 - ارزقي محمد فراد- المرجع السابق- ص79.

3 - تاكرونا- تقع بمقربة من مدينة أستجة وهي مدينة أولية إليها تنسب الكورة وبها بلاط من بنيان الأول (الأقدمون) لم يتغير ومن مدنها الهامة مدينة رندة عاصمة بني يفرن خلال عهد الطوائف كثيرة الجبال والعيون ومنها كانت تجلب المياه إلى المدن المجاورة وبها حصون منيعة كما يشتهر هذا الإقليم بوفرة مياهه وتنوع منتجاته الزراعية/ مجهول- تاريخ الأندلس- ص124/ الحميري- المصدر السابق- ص129/ الزهري محمد بن أبي بكر- كتاب الجعرافية - تحقيق محمد حاج صادق- مكتبة الثقافة الدينية- ص90.

4 - rachel arie- revista de l'intituto egipcio de estudios islamilos en madrid V XXX III (85-86) – p154.

5 - ابن سعيد - المصدر السابق- ج1 ص350/ ابن خلدون- ج7 ص32.

6 - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص238/ محمد عبد الله علوان- المرجع السابق- ص150.

العلاقة مع الحموديين:

لم يمض وقت طويل على هذه الترتيبات التي أحدثها سليمان المستعين حتى برز بنو يفرن كعناصر فاعلة في الصراعات التي دارت رحاها بين حكام الأقاليم قبل سقوط الخلافة الأموية بالأندلس.

فلما علا شأن الحموديين وتولى الخلافة القاسم بن حمود بقرطبة انضم بنو يفرن إلى جانب بني حمود وشرعوا في خدمتهم حيث يذكر ابن بسام نقلا عن ابن حيان أن محمد بن زيري بن دوناس اليفرني كان من رجالات الخليفة الحمودي القاسم[1] وكان ابنه المسمى الحسن بن القاسم بن حمود مصاهرا لليفرنيين إذ تزوج من بنت أبي قرة بن دوناس اليفرني.

وكان القاسم بن حمود عندما عاد إلى قرطبة بعد فرار يحي بن علي بن حمود منها سنة 413هـ/1022م قد ترك ولديه محمد والحسن في إشبيلية على أن يتولى محمد أمر إشبيلية ويكون محل ثقته والمدبر لأمره محمد بن زيري بن دوناس اليفرني[2] إلا أن محمد بن زيري هذا لم ترقه هذه المكانة التي حظي بها من قبل القاسم بن حمود حيث كان طامعا بالظفر بإشبيلية فلما غادر القاسم بن حمود سنة 414هـ تحت وطأة القرطبيين الذين أخرجوه منها وتوجه نحو إشبيلية التي أراد أن يجعلها عوضا له عن قرطبة ويتخذها عاصمة لدولته لكنه وجد أن محمد بن زيري اليفرني قد تغلب عليه[3] وانضم إلى أهل إشبيلية واشترك معهم في قتال القاسم بن حمود واتفق محمد بن زيري اليفرني مع القاضي محمد بن إسماعيل هذا الأخير الذي كان أطمعه في تملك إشبيلية بعد أن يقوم بطرد القاسم بن حمود ومنعه من دخول إشبيلية[4] مما شجعه على محاربة القاسم بن حمود وبذل الجهود للحيلولة دون الوصول إلى إشبيلية[5] إلا أن ابن عباد لم يف من تلك الوعود بشيء إذ سرعان ما غدر به وطرده ومن معه من اليفرنيين والبربر.

---

1 - ابن بسام- المصدر السابق- ج1 ص485.

2 - المقري- المصدر السابق- ج2 ص32.

3 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص187.

4 - ابن بسام- نفسه- ج1 ص485/ ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص134.

5 - شريفة دحماني- المرجع السابق- ص141.

ومن الشخصيات التي برزت في العهد الحمودي الوزير عبد الرحمن بن عطاف بن دوناس اليفرني الذي دخل في خدمة الحموديين[1] ونجح في كسب ثقة علي بن يحي بن علي بن حمود الملقب بالمعتلي الذي عينه نائبا عنه لحكم قرطبة وذلك عندما خلع أهلها طاعة الخليفة الأموي المستكفئ[2] ونادوا بخلافة المعتلى[3] مرة ثانية في رمضان عام 416هـ/أكتوبر 1025م وظل عبد الرحمن في منصبه إلى أن ثار أهل قرطبة على المعتلي وخلعوا طاعته فلحق بالخليفة الحمودي وهلك عام 417هـ/1026م[4].

إلا أن هناك رواية أخرى مفادها أن عبد الرحمن بن عطاف بقي بقرطبة إلى محرم سنة 417هـ، فسار إليه مجاهد وخيران العامريان في جيش كثير فلما كانوا على مشارف مدينة قرطبة ثار أهلها بعبد الرحمن وانقلبوا عليه فأخرجوه وقتلوا من أصحابه جماعة كثيرة ونجا الباقون[5].

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن بالرغم من وجود مجال جغرافي لاحتواء العناصر اليفرنية إلا أن هناك فئة منهم آثرت البقاء في قرطبة طوال مدة الفتنة البربرية رغم كل ما كان يحيط بالبربر من أخطار حيث كان أهل قرطبة رهن الإشارة للانقضاض على البربرية الذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم سبب كل بلية ومحنة حلت بدارهم كما أشرت إلى ذلك من قبل.

وفي ظني أن بني يفرن كانوا يستثنون من هذه النظرة المريبة للشريحة البربرية وذلك لمكانتهم الاجتماعية وإخلاصهم للمروانية كما يوضح ذلك ابن حيان في حديثه عن

---

1 - ancyclopedie de l’islam – page 1069.

2 - هو عبد الرحمن وكنيته أبو عبد الرحمن أمه أم ولد اسمها "حوراء" وكان يلقب بالمستكفي بالله دامت ولايته ستة أشهر كان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ثار عليه أهل قرطبة وأقاموا بدله يحي بن علي الفاطمي/ الحميدي- المصدر السابق- ص36/ عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص49.50.

3 - محمود مقيدش- نزظهة انظلر في عجائب التواريخ والأ**خبار- تحقيق علي الزاوي ومحمود محفوظ- دار الغرب الإسلامي- 1988م- ج1 ص425.**

4 - الحميدي- نفسه- ص35/ عبد الواحد المراكشي- نفسه- ص48/ المقري- المصدر السابق- ج1 ص433.

5 - ابن الأثير- المصدر السابق- ج1 ص278.

أبي حزم جهور بن محمد حينما تولى أمر قرطبة عقب خلع الخليفة الأموي هشام المعتمد بالله عام 1422هـ/1031م[1].

حين اتخذ إجراء قاسيا يتمثل في إجبار البربر على مغادرة قرطبة مستثنيا بني يفرن الذين كان يثق بهم يقول ابن حيان: "واقتصر –أبو حزم جهور- من الجند على أعيانهم وسد باب البرابرة جملة إلا ما قد صار في البلد من بني يفرن الموثوق بهم وأقصى من سواهم من فرق البرابرة من غير إيحاش فنال منهم الرضى وملكهم عما قليل وأصبح في ذلك عجبا"[2].

والمستخلص من كلام ابن حيان هو أن بني يفرن كانوا يتميزون عن العناصر البربرية الأخرى لحسن سمعتهم ومكانتهم بين المجتمع القرطبي كما أنهم لم يكونوا منساقين في تيار البربر الذين كانوا يستجيبون لكل ناعق في قرطبة.

وفي اعتقادي أن بني يفرن كانوا ممن أيد تعيين أبي حزم جهور ليتقلد زمام الأمور بعد الفلاتان الأمني الذي منيت به قرطبة لذلك استثناهم حين أمر بجلاء البربر عن قرطبة.

كما أنه لا يستبعد –حسب رأيي- أن يكون أبو الحزم جهور قد استبقاهم –أي بني يفرن- في قرطبة لتحقيق التوازن الأثني لأن تفريغ قرطبة من كامل العناصر البربرية يعطي الفرصة للبربر خارج قرطبة للالتآم في جبهة واحدة قد تشكل خطرا في المستقبل القريب.

ومما هو جدير بالذكر حول العلاقة بين بني يفرن والحموديين فقد ارتقت العلاقة بينهما إلى درجة التنازلات وإلى اقتطاعات حيث يذكر عبد الواحد المراكشي بأن إدريس بن يحي الحمودي الملقب بالعالي[3] تنازل عن بعض الحصون لأبي نور هلال ابن أبي قرة:

---

1 - المعتد بالله- هو أبو بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر وهو أخو المرتضى بويع بالخلافة في شهر ربيع الأول سنة 418هـ وتلقب بالمعتد بالله وكان سنه يوم بويع بالخلافة أربع وخمسون أمه أم ولد اسمها "عاتب" أمضى بقية حياته بين الثغور إلى أن لحق بابن هود ومات بحضرته سنة 427هـ/ ابن بسام- المصدر السابق- ج3 ص324/ عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص50.

2 - ابن بسام- نفسه- ج1 ص373.

3 - هو إدريس بن يحي بن علي بن حمود الملقب بالعالي بويع سنة أربع وثلاثين بعد أن أخرج من سجنه ومن صفاته الحميدة كان أرحم الناس قلبا كثير الصدقات يتصدق كل يوم بخمسمائة دينار ومن صفاته الذميمة كان لا يصحب إلا ساقط

"وكل من طلب منه حصنا من حصون بلاده يجاوره من صنهاجة أو بني يفرن أعطاه إياه"[1].

وهكذا وبالرغم مما أصاب بني حمود من نكسات في آخر دولتهم إلا أن بني يفرن ظلوا أوفياء لشخصيات بني حمود الذين ترددت أحوالهم فلما خلع إدريس بن يحي العالي من قبل ابن عمه محمد ابن إدريس بن علي بن حمود عام ثمانية وثلاثين وأربعمائة وتوجه إلى العدوة ظل اليفرنيون بقيادة أبي نور متمسكين بدعوته إلى أن عاد إلى الأندلس سنة 444هـ ونزل على أبي نور هلال اليفرني وأقام عنده مدة يقول ابن عذاري: "ووجهوا إلى ابن عمه محمد بن إدريس وبايعوه بالخلافة وتلقب بالمهدي وتوطد أمره بمالقة مدة حياته وانصرف إدريس بن يحي العالي إلى العدوة ثم رجع بعد ذلك إلى الأندلس واستقر عند أبي نور بن أبي قرة اليفرني صاحب رندة شهورا ودعا له بالخلافة"[2].

وبقي بنو يفرن على هذه الحال مع بني حمود ولم تزل مالقة قاعدة مملكتهم يخطب لهم فيها إلى أن تسلمها منهم إدريس بن حبوس صاحب غرناطة سنة سبع وأربعمائة وانتهى أمر الحموديين بالأندلس[3].

صراع بني يفرن مع العباديين أصحاب إشبيلية:

قد أشرت في الفصل السابق على أن بني عباد ومنذ استقرارهم في إشبيلية كانوا يرومون تحقيق مشروعهم التوسعي وذلك بالقضاء على أكبر هذه الدويلات البربرية الواقعة في الجزء الجنوبي من إشبيلية وكانت دولة بني الأفطس في بطليوس هي أكبر هذه الدويلات التي رأى فيها بنو عباد أنها القاعدة التي يحتمل أن تلتئم حولها الأجزاء المبعثرة من المماليك البربرية المنتشرة في الجنوب بدافع العصبية التي بدأت تتململ مع نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس التي يمكن أن نعتبرها حلقة من حلقات الصراع المتأصل بين العرب والبربر.

رذل لا يحجب حرمه عنهم، عبد الواحد المراكشي - المصدر السابق- ص56/ ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص217/ ابن الأثير- المصدر السابق- ج9 ص281.

1 - عبد الواحد المراكشي- نفسه- ص56.

2 - ابن عذاري- ج3 ص217.

3 - ابن الأثير- المصدر السابق- ج9 ص292.

ربما لن أكون مغاليا بهذا الطرح عندما لا تلاحظ طائفة عربية قائمة بذاتها خلال القرن الخامس الهجري إلا أنها في حقيقة الأمر لم تكن غائبة على الساحة السياسية[1].

لقد أصبحت قرابة العصب هي الرابطة القوية والرئيسية بين السلالات الارستقراطية وتمسك بنو عباد بأهداب هذه الرابطة.

وعلى أية حال فعندما فرغ بنو عباد من مقارعة بني الأفطس بعد تدخل ابن جهور وإن كانت المهادنة الحقيقية بين الفريقين لم تتم إلا في سنة 444هـ/1052م[2] إلا أن الأستاذ محمد عبد الله عنان يذكر أن ذلك كان سنة 443هـ/1051م[3].

وشرع المعتضد بن عباد في محاربة من كان يليه من أمراء البربر المستقلين بهذه الإمارات البربرية الصغيرة القائمة في شرق الوادي الكبير كإمارة بني يفرن في رندة وإمارة بني دمر في مورور وإمارة بني خزرون في أركش وشذونة وإمارة بني برزال في قرمونة[4].

إن المواجهة العبادية لهذه الإمارات إقتضت أن يتودد العباديون إلى أمرائهم في الجنوب وهي السياسة التي اتبعها القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد 414،433هـ/1023،1041م وقد تكون هذه السياسة نابعة عن حسن نية القاضي بن عباد لكونه كان يؤثر الإصلاح وحسن التدبير[5]، واتبع هذه السياسة ولده من بعده المعتضد 433-461هـ/1041-1068م، وعمل هو الآخر على استمالة هذه الدويلات البربرية وخاصة بني يفرن، خصهم بالزيارات المتكررة[6].

وهي في نظري سياسة مصطنعة، ظاهرها التودد وتحقيق حسن الجوار، وباطنها التربص وتحين الفرص، ومن ناحية أخرى اتقاء لشرهم المحتمل، حيث كانوا يشكلون قوة عسكرية كبرى قد تشكل خطرا على العباديين إذا ما هي أجتمعت وتوحدت، لذلك عمد على

---

1 - امحمد بن عبود- المرجع السابق- ص62.

2 - ابن عذاري- ج3 ص242.

3 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص42.

4- ابن بسام- المصدر السابق- ج1 ص38/ ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص214/ محمد عبد الله عنان- 45.

5 - عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص72.

6 - ابن بسام- نفسه- ج2 ص20.

تأمين جناحه الدفاعي في تلك الناحية ويصبح حرا طليقا في العمل والحركة تجاه الشمال[1]، و لم يتوان في اللجوء إلى زرع سياسة التفرقة وزرع الفتن والقلاقل بينهم: "ثم غمس المعتضد يده بعد فيمن كان يليه من أمراء البربر فصدم شرهم بشرهم وضرب زيدهم بعمرهم"[2].

وبناء على ما تقدم فإن المعتضد أقدم على مخالفة البرزالي الذي استعان به على بني الأفطس ثم على قتال يحي بن حمود فيما بعد وقد أشرت إلى ذلك في الفصل المتقدم.

كما أقدم على مخالفة بني يفرن والتقرب منهم حيث يذكر ابن خلدون أن المعتضد بن عباد أقر أبا نور هلال بن أبي قرة على ولاية تاكرونا ورندة وما حولها وكتب له كتابا بذلك عام 443هـ/1051م[3].

واستمرت هذه الصداقة والمودة بينهما وكان المعتضد يبعث إليه وإلى باقي الأمراء البربر بالهدايا والصلات الجزيلة كل ذلك ليضمن حيادهم ومودتهم ريثما تحين فرصة الغدر بهم والانقضاض عليهم[4]، يقول ابن بسام: "وسلمه شر غير مأمون ومتاع إلى أدنى حين"[5]، وحتى يقوي المعتضد من هذه العلاقة مع أبي نور ولضمان الوثوق من صدق خطواته زارهم في أقاليمهم حيث قام بزيارة أبي نور هلال بن أبي قرة صاحب إمارة رندة وسر هذا الأخير باستقباله وضيافته وأوسع في إكرامه.

إلا أنه فوجيء أثناء زيارته بمجموعات من جاليات عربية يبدو أنه قرأ في عيونهم أنهم مستائون من أمراءهم وأنهم رهن إشارته فشجعهم سرا وأمدهم بالأموال لينقلبوا على أمراءهم المغاربة[6]، وبينما هو مع جلسائه إذ أومأ أحد الأجناد ولوح بقتل المعتضد فاسترق المعتضد هذه الإيمائة، ففهم أن القوم يأتمرون به ليقتلوه، إلا أنه تظاهر بعدم الفهم وأسرها في نفسه ولم يبدها لهم.

---

1 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص44.

2 - ابن عذاري- ج3 ص214.

3 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص32.

4 - محمد عبد الله عنان- ص45.

5 - ابن بسام- امصدر السابق- ج2 ص11.

6 - محمد عبد الفتاح شرف الدين- المرجع السابق- ص270.

يقول ابن بسام: "وأراد أن يطلع عليه من ثنية مكره فواطأهم يومئذ بغدره ورمز لهم بالاستراحة من شره، ففهمها المعتضد وجعل تلك الكلمة دبر أذنه"[1].

وهكذا استطاع المعتضد أن ينجو من هذه المكيدة ويعود سالما إلى إشبيلية[2]، إلا أن هناك رواية أخرى[3] يوردها النويري صاحب نهاية الأرب[4] والذهبي صاحب سير أعلام النبلاء[5] ملخصها: أن المعتضد حصلت له واقعة غريبة، فقد ذكر أن المعتضد بن عباد خرج خرج يوما إلى قرمونة بعد أن شرب الخمر مع رجاله وندمائه، وكان يومئذ على قرمونة صاحبها إسحاق ابن سليمان البرزالي ولم يكن مع المعتضد سوى عبد واحد من جملة عبيده، واستأذن بالدخول فأذن له واستقبل من قبل إسحاق البرزالي، فلما شرع في الأكل تفكر ما فعل وانتابه الخوف من مصيره لما يعلم ما بينه وبين بني برزال من حروب دامية، وأراد قادة البربر في قرمونة انتهاز هذه الفرصة لتصفيته والتخلص من شره وتهديداته وكان من بين الجند معاذ بن أبي قرة اليفرني وحال بينهم وبين ما يريدون فعله وبين لهم خطورة الإقدام على هذا الفعل وأقنعهم بعدم تنفيذ ذلك.

ويضيف النويري أن المعتضد سمع ما كان يدور بين زعماء البربر بشأنه وعلم أن معاذ بن أبي قرة هو من أبطل هذه المؤامرة وحفظ له المعتضد هذا الجميل وأبقاه في إشبيلية.

وفي اعتقادي أن النويري وقع في خلط سافر إذ كيف يعقل أن يغادر المعتضد إشبيلية ويقف عند مدخل قرمونة بمعية عبد من عبيده بسبب الخمر التي احتساها مع ندامه.

ثم كيف يسمح للمعتضد أن يغادر إشبيلية دون حرسه وفي جنح الليل كما أن هناك قرينة أخرى لبطلان هذه الرواية وهي: ما هي المهمة التي سار من أجلها المعتضد إلى

---

1 - ابن بسام- نفسه- ج2 ص20.

2 - شريفة دحماني- المرجع السابق- ص212.

3 - انظر القصة مفصلة ضمن ملحقات هذا البحث.

4 - النويري أحمد بن عبد الوهاب- المصدر السابق- ص154،153.

5 - ذكر الذهبي أن المعتضد- "سكر يلة وخرج في الليل معه غلام وسار مخمراحتى وافى قرمونة وصاحبها إسحاق البرزالي وبينهما حروب"/ الذهبي شمس الدين محمد- سير أعلام النبلاء- تحقيق شعيب الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة – ج19 ص58-59.

قرمونة؟ فهل إذ كان قد تاه بسبب الخمر التي لعبت برأسه كيف يخلي البرازلة سبيله بهذه السهولة وبناء على هذه الحجج التي أوردتها فإنني أرجح أن الرواية التي أوردها كل من ابن بسام الشنتريني وابن عذاري المراكشي هي الأصح.

صحيح أن معاذ ابن أبي قرة استقر بإشبيلية قادما إليها من رندة في وفد ابن أبي قرة ونظرا لشجاعته وثقته به عينه المعتضد على رأس الجيش الذي أرسله لإغاثة المقتدر حاكم سرقسطة بعد استنجاده بالمعتضد وكان قد انتهز فرصة الصراع بين مملكة أرجون وقشتالة فأمده المعتضد بجيش قوامه خمسمائة فارس[1] لاستعادة قلعة بربشتر[2] التي كانت قد تعرضت للهجوم الصليبي عام 456هـ/1064م وبفضل هذا القائد اليفرني الشجاع تمكن ابن هود من استرجاع مدينة بربشتر وذلك في الرابع من جمادى الأولى عام 457هـ/1065م[3] وفيما يخص المؤامرة التي نجا منها المعتضد وتمكنه من العودة إلى إشبيلية فقد ظل هذا الأخير حاقدا على هؤلاء البربر ولما لم تكن له القوة اللازمة للدخول معهم في مجابهة عسكرية سافرة آثر سلاح الغدر والمكيدة[4] فأغفلهم مدة ستة أشهر وكتب إليهم يستدعيهم لوليمة[5] زعم أنها لإعذار أبنائه[6] وكان قد دعاهم قبل ذلك في نهاية زيارته لهم إلى زيارة مماثلة لإشبيلية ولم يكن أحد منهم يعرف أن في زيارتهم له موت زؤام يرتقبهم[7] فأقبلوا عليه يرفلون في ثياب جميلة تحيط بهم حاشيتهم : "فأتوه في أحسن زي

---

1 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص229.

2 - بربشتر- مدينة حصينة على نهر إبرو وهي من أمهات مدن الثغر الفائقة غزاها أهل غليش من جنوب فرنسا والرنمانون، البكري أبو عبد الله- جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك- تحقيق د عبد الرحمن علي الحجي- دار الإرشاد 1968م- ص93،92، وحول موضوع نكبة بربشتر وتحريرها انظر ابن عذاري المراكشي- ج3 ص225.226.227 وكذا عبد الله عنان- المرجع السابق- ص265،264.

3 - ابن الكردبوس أبو مروان عبد الملك التوزري- تاريخ الأندلس وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء- تحقيق د أحمد مختار العبادي- المعهد المصري للدراسات الإسلامية- مدريد سنة 1971م- ص73،72.

4 - رضوان البارودي- المرجع السابق- ص373.

5 - النويري- المصدر السابق- ص155/ مجهول- تاريخ الأندلس- ص261.

- André clot – l'Espagne musulmane VIII / XV siècle – librairie academique perrin – 1999 France – page

6 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص270.

7 - محمد عبد الفتاح شرف الدين- المرجع السابق- ص208.

وأبهى ملبس وأفخم عدة وقد كانت زيارتهم له قبل ذلك مترددة فجاؤوا إليه يباهون عليه في نحو مائتي فارس من رؤساء قبائلهم"[1]، وتظاهر المعتضد بالحبور وحسن الترحاب والتكريم[2] وأنزل الأمراء بقصر من قصوره وفي اليوم الثالث أمرهم بالدخول عليه وأخذ يؤنبهم على تقصيرهم في محاربة أعدائه فلما أرادوا المناصفة لأنفسهم وبخهم وتوجه إليهم بكلام خشن ووكز أحدهم بيده[3] فأمر عبيده بالقبض عليهم وتكبيلهم بالأغلال ووضعهم في سجن انفرادي يقول ابن عذاري: "وضيق عليهم في معاشهم وكانت الكبول ضيقة عليهم فأثرت في سوقهم حتى كان أحدهم لا يستطيع الرسفان إلى حاجته حتى تحمله العامة من الرجال"[4]، واستولى على سائر متاعهم وخيلهم وسلاحهم وبعد مدة أمر بإخراجهم وقد أعد لهم طعاما متنوعا وادخلوا عليه فأكرمهم ثم أمر بتجهيز الحمام ودعاهم إلى الاستجمام[5] وكان هذا الحمام يدعى بحمام الرقاقين[6] وجلسوا إزاء الحوض وبينما هم يغتسلون إذ أمر عبيده بالبناء فبني عليهم على دفة بيت الحمام وسدت جميع المنافذ وأمر السخان أن يكثر الوقود فالتهف الحمام بالحرارة فاستبقوا الباب يرومون الخروج فلم يهتدوا إلى منفذ أو ثغرة فهلكوا جميعا[7].

وبهذا الصدد يمكن الإشارة إلى أن صاحب أعمال الأعلام يشير إلى أن الأمراء الثلاث هلكوا جميعا بما فيهم أبو نور هلال بن أبي قرة مستعملا عبارات التأكيد يقول ابن الخطيب: "وأمر بتطبيب الحمام لهم وحملهم إليه عبيده وهم الثلاثة أمراء المذكورون أبو نور وابن نوح وابن خزرون"[8].

---

1 - ابن عذاري المراكشي- المصدر السابق- ج3 ص270.

2 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص45.

3 - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص270.

4 - نفسه- ج3 ص295.

5 - anwar gchejne – historia de espana musulmana – edition catedna – SA 1980 – madrid – p62.

6 - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص295.

7 - نفسه- ج3 ص271/ ابن الخطيب- المصدر السابق- ص239.

8 - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص

كما أن صاحب مفاخر البربر يذكر نفس الطرح حيث يقول: "وقتل رؤساؤهم في الحمام في أخبار طويلة في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة"[1].

غير أن ابن عذاري يستدرك ما نفاه عند الحديث عن عز الدولة صاحب موروور من أنهم قتلوا جميعا ولم يستثني من هذه الحادثة سوى أبو نور هلال بن أبي قرة[2] الذي أطلق المعتضد سراحه لليد التي كانت له عنده في مثلها[3] كما يفهم من كلام ابن عذاري أن المذبحة لم تقتصر على الأمراء فقط وإنما شملت بعضا من الحاشية المرافقة لهم.

ومهما يكن من تضارب في هذه الروايات إلا أنني أرجح ما ذهب إليه كل من ابن عذاري[4] وابن خلدون[5] من أن أبو نور لم يلق حتفه في حادثة الحمام بل أطلق سراحه للاعتبارات التي شفعت له عند المعتضد.

ولم يتوقف غدر المعتضد عند هذا الحد بل عمد إلى عمل في غاية الدنائة دلت على سوء سريرته وفساد أخلاقه فقد صنع أمام قصره حديقة عريضة وطويلة الخطة

ملأها من رؤوس ضحاياه من الأمراء قال ابن حيان: "وقد كانت لعباد وراء هذه الحديقة[6] المائلة قلوب البشر ذعرا مباهاة بخزانة بلوى أكرم لديه من خزانة جواهره مكنونة

---

1 - مجهول- مفاخر البربر- ص136.

2 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص295.

3 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص188/ صلاح خالص- المرجع السابق- ص128.

4 - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص295.

5 - ابن خلدون- نفسه- ج4 ص188.

6 - تغنى بهذه الحديقة شعراء المعتضد ومنهم صاعد بن الحسين من قصيدته أولها-

جلاء العين مبهجة النفوس حدائق أطلعت ثمر الرؤوس

هناك الله مهدي المساعي جنى الهامات من تلك الفروس

فلم أر قبلها وحشا جميلا كريه رواع أنس الأنيس

فماذا يملأ الأسماع منها إذا ملئت من أنباء الطروس

- ابن بسام- المصدر السابق- ج2 ص13.

مكنونة جوف قصره أودعها هام الملوك الذين بسيفه منها رأس محمد بن عبد الله البرزالي شهاب الفتنة ورؤوس ابن خزرون وابن نوح وغيرهم"[1].

ولاشك أن غدر بن عباد بالزعماء البربر بهذه الطريقة كان له أسوء وقع في نفسية القبائل البربرية[2] خاصة بنو زيري أصحاب غرناطة التي ما إن علم أميرها باديس بن حبوس بما حدث لبني جلدته المغاربة من تآمر وقتل وتنكيل على يد العباديين العرب بإشبيلية حتى أقسم بأن يقوم بإبادة الجالية الغرناطية العربية وسعى إلى التخلص منهم مدفوعا بعصبيته البربرية فهجر ملذاته وأقلع عن خمره وهداه فكره إلى ضرورة التخلص من أهل غرناطة العرب انتقاما لما حدث للبربر على يد المعتضد بن عباد واستشار في ذلك وزيره يوسف بن إسماعيل الإسرائيلي الذي نصحه بالتروي وعدم التهور حتى لا يتسبب في إثارة غضب الأندلسيين عليه وتآلبهم ضده وطمأنه على حال المجتمع وأن لا يربط بين ما حدث في الجنوب وما يقدم عليه الآن إلا أن حبوس ركب رأسه ولم يلتفت لهذه النصائح وتحمس لتنفيذ خطته فجهز جيشه وأعده للقتال وحدد يوم الجمعة لتنفيذ المذبحة إلا أن وزيره يوسف بن إسماعيل دس النساء إلى جماعة من المقربين إلى الأندلسيين يحذرهم من الحضور إلى المساجد في اليوم الذي أعده للمؤامرة وبهذا التدبير الذي حاكه يوسف بن إسماعيل فشلت خطة باديس بن حبوس بالإطاحة بزعماء الأندلسيين وامتعض باديس لهذا العمل وأرسل يعاتب وزيره يوسف على إفشاء سره مما تسبب في فشل خطته ولكن الوزير أقنعه بأن الأندلسيين أنفسهم هم الذين تنبهوا للمكيدة عندما لاحظوا حشوده العسكرية تتأهب لأمرها ففهموا أنهم مستهدفون ما دام ليس هناك تهديدات خارجية فاقتنع بذلك وعدل عن فكرته على مضض استجابة إلى رأي الشيوخ البربر لثقته فيهم[3].

ومع ذلك لم تهدأ ثورة باديس وظل يضرب أخماس بأسداس لمعاقبة العباديين لاقترافهم هذا العمل الشنيع الذي أقدم عليه المعتضد في حق البربر وسار بجيوشه نحو

---

1 - نفسه- ج2 ص13.

2 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص271/ محمد عبد الله علوان- المرجع السابق- ص45.

3 - ابن الخطيب- الإحاطة

الشرق يريد إشبيلية والتحم الجيشان في معركة ضارية أسفرت عن انهزام جيش باديس بن حبوس[1].

وفيما يخص أبا نور هلال بن ابي قرة الذي نجا من الموت فهو لم ينج من سجن بن عباد حيث ظل معتقلا لدى بن عباد إلى حين أطلق سراحه على إثر مكيدة دبرها له[2] وفي هذه المدة التي ربما طال أمدها يأس أهل رندة من عودة أبي نور وبما بلغهم أنه قضى نحبه مع الحجاب الذين رافقهم إلى إشبيلية عندئذ قام أهل رندة بتعيين ابنه باديس وبايعوه على الإمارة.

إلا أن باديس هذا كان ذا أخلاق فاسدة عربيدا فاسقا لا يتورع في ارتكاب المنكرات وعاث في البلاد بالفساد حتى ضاق منه أهل رندة : "وكان فاسقا مجرما فسأم الناس الخسف وامتحنهم في أحوالهم بالنهب وفي نساءهم وبناتهم بالعهر واباح لرجاله الحرام فكانوا يأخذون النساء من أزواجهن والبنات من آبائهن"[3].

مما أثار غضب أبيه الذي لم يترد في إنزال أقصى العقوبات وهي إعدامه سنة 449هـ/1057م.

وتشير المصادر إلى أن المعتضد أراد التخلص من أبي نور وابنه باديس بأن سعى إلى إبلاغ أبي نور بواسطة كتاب زعم المعتضد أنه من إحدى الجواري أبي نور تشكو ابنه باديس ما نالها منه من حرام[4] وبلغه أيضا أن ابنه اقترف جريرة أفضع من سابقتها وهي الزنا بعمته[5] -أي عمة باديس-[6] فلما استكملت حلقات التآمر وحيكت خيوطها بإحكام من قبل المعتضد أطلق سراح أبي نور فلما وصل إلى رندة أمر على عجل بإلقاء القبض على ابنه

1 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص189.

2 - نفسه- ج7 ص32.

3 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص313.

4 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج3 ص32.

5 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص313.

6 - ارتبط أبو قرة بن دوناس مع الحموديين برباط المصاهرة فقد تزوج الحسن بن القاسم الحمودي ببنت أبي قرة وأنجب معها هاشم وعقيل قتلها أخوها أبو نور بن أبي قرة إذ اتهما بابنه باديس يسميه ابن حزم إدريس، ابن حزم أبو محمد- جمهرة أنساب العرب- تحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم- دار الكتب العلمية- بيروت 2007- ص51.

باديس ودون أن يعمد أبو نور إلى التحريات والمساءلة أمر بضرب عنقه وألحق به عمته[1].

لكن أبا نور بعد مدة قليلة من مصرع ابنه وعمته أدرك أنه وقع في شراك المعتضد ودرى فضيع جنايته التي أقدم عليها وتبين له أن المعتضد بن عباد كان يسعى للتخلص من ابنه باديس فشعر بالذنب وألم به الأسى وندم على هذا التسرع في اتخاذ قرار الإعدام ضد ابنه باديس وظل خاطره منكسرا يتجرع مرارة ما حدث إلى أن اعتل ثم توفي سنة 449هـ/1057م أسفا على ابنه البريء[2].

سقوط دولة بني يفرن في رندة:

بعد وفاة أبي نور بن أبي قرة اليفرني سنة 449هـ/1057م خلفه في الإمارة ولده أبو نصر فتوح بن أبي هلال بن أبي قرة بن دوناس اليفرني وبايعته بلاد رية[3] وخطب له على منابر مالقة وسائر كور تاكرونا[4].

وكان هذا الأخير عل العكس من أخيه باديس لقد كان دمث الأخلاق عدلا لينا ومحسنا لأهله ومع الرعية بيد أنه كان منهمكا في اللهو معاقرا للخمر دوما ويؤثر الراحة والدعة[5].

وكان المعتضد في كل ذلك يراقب هذه الإمارات الصغيرة عن طريق العيون التي بثها وكانت تمده بكل ما يحدث من مستجدات[6] وخاصة إمارة بني يفرن التي كان يعدها

---

1 - ابن حزم- المصدر السابق- ص51/ ابن عذاري- نفسه- ج3 ص313.

2 - ابن خلدون- نفسه- ج7 ص32/ شريفة دحماني- المرجع السابق- ص215.

3 - رية- كورة من كور الأندلس هي قبيلتي قرطبة وجوفي الجزيرة نزلها جند الأردن من العرب كثيرة الخيرات مطردة الأنهار لها سهل متسع وجبل ممتنع، كثيرة المدن وجد في حجر أساسها نقش فيه "مالق لا يأس عليها ولا فرق آمنة من جوع وسبي ودم وغرق وهي مدينة أزلية ابن الخراط الإشبيلي- اقتباس الأنوار في اختصار اقتباس الأنوار- تحقيق إيميليو مولينا وفامنثتيو بوسك بيلا- المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- مدريد 1990- ص114/ مجهول- تاريخ الأندلس- ص123.122/ الحميري- المصدر السابق- ص280.279.

4 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص313

5 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص313/ محمد عبد الله عنان- ص151.

6 - عبد الواحد المراكشي- ص75.

المعتضد أخطر هذه الإمارات على حد قول الشاعر الإشبيلي أبو الحسن علي بن حصن[1] ممتدحا المعتضد بن عباد:

به دمر الرحمان دمر وانطوى بنو يفرن أعدى الأعادي وأمرق

ومن آل يرنيان أنكث أمة لعد وميثاق وأغوى وأفســق

ثلاثة رهط بدد الله شملهم أثافي كانوا للفساد فرقــوا[2]

وعليه فإن المعتضد أدرك عن طريق هذه المراسلات أن إمارة بني يفرن برندة قد آلت إلى الضعف والتفكك وأن قيادتها لم يعد في مقدورها تجميع القوى اليفرنية للدفاع عن نفسها وخاصة عندما علم المعتضد بانصراف أبو نصر إلى اللهو ومعاقرة الخمر.

وعندئذ انتهز المعتضد تطور الأوضاع على هذا النحو وأصر على ضمها إلى دائرة نفوذه.

ويبدو في اعتقادي أن هذا التصميم في ضم رندة وسائر الإمارات البربرية نابع من حقده على باديس بن حبوس أمير غرناطة الذي شن على المعتضد حربا استعان فيها بخلفائه من البربر[3] انتقاما لما فعله المعتضد بأمراء البربر في حادثة الحمام.

فاهتدى المعتضد كعادته[4] إلى مكيدة وانتهى به الأمر إلى أن اتفق مع أحد الخونة[1] من رعيته يقال له ابن يعقوب كان قد ذاع صيته واشتهر بالإقدام والاستبسال في المواجهات[2].

---

1 - أبو الحسن علي بن حصن الإشبيلي من مشاهير شعراء المعتضد كان خزينا للمعتضد ثم أصبح وزيرا له إلا أن الشاعر ابن زيدون سعى في حتفه بمكره إلى أن تمكن من إقناع المعتضد بضرورة قتله ففك به المعتضد بن عباد ابن بسام- المصدر السابق- ج2 ص96،97/ الضبي أحمد بن يحي بن عمير- المصدر السابق- ص396/ ابن سعيد الغرناطي- المصدر السابق- ج1 ص181.180.

2 - ابن بسام- نفسه- ج2 ص110.

3 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص189.

4 - اشتهر المعتضد بحبك المؤامرات والدسائس للإطاحة بخصومه في الداخل والخارج ولم ينج منه حتى العامة من الناس وكان يعمد إلى اتخاذ الجواسيس والمخبرين والمرتزقة لتنفيذ الاغتيالات، عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص73.

وفي اليوم الذي اختير للوثوب على أبي نصر داهم ابن يعقوب وأصحابه أبواب القصر ودخلوا على أبي نصر وهو مع ندامه يعاقر الخمر في إحدى شرفات القصبة العليا وصاحوا بشعار بني عباد وأحدث ذلك هلعا في حاشية أبي نصر وحاول هذا الأخير أن يلوذ بالفرار فوثب من الشرفة فتدحرج إلى الأسفل فوقع على صخرة فمات على الأثر.

والجدير بالذكر فإن رعية رندة لم تكترث لما حصل لأميرهم أبي نصر ولم يتعرضوا للجناة بأدنى أذى يقول ابن عذاري: "ولم يرفع أحد من المدينة يدا لابن يعقوب بل سد كل أحد بابه وطلب العافية وذلك في سنة سبع وخمسين وأربعمائة فكانت دولة بني دوناس لرندة وجهاتها خمسين سنة"[3].

مما يدل على أن بني يفرن أدركوا أنه لا جدوى من مقارعة أعدائهم خصوصا بعدما وقفوا على الهوان الذي آلت إليه الأسرة الحاكمة وهشاشتها.

وفي اعتقادي أن مكانة هذه الإمارة تضعضعت منذ أن وقع أمراء الدويلات البربرية الصغرى في الجنوب أسرى لدى المعتضد بن عباد وخاص بني يفرن الذين أطلق سراح أميرهم الذي عاد إلى رندة بمعنويات محبطة لينزلق مرة أخرى في مؤامرة من تدبير المعتضد وينزل عقوبة الإعدام بأخته وابنه دون جريرة اقترفوها كما أشرت إلى ذلك سابقا.

لذلك لم يجد أهالي رندة كما يشير صاحب ترصيع الأخبار إلى الثورة ضد بني يفرن ودعوا إلى المعتضد الذي أصبح مطلق التصرف فيها: "وثارت رعية رندة على بني يفرن بها ليلة الخميس الحادية عشر من ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وأربعمائة فتملكوا معقلها ودعوا إلى المعتضد عباد بن محمد بن عباد[4].

وأحدث استيلاء المعتضد بن عباد على رندة سعادة غامرة وعم الحبور أرجاء إشبيلية وثار قريض المعتضد بهذه الأبيات:

---

1 - encyclopédie de l'islam tome 3 – article ifren public avec le concours des principaux orientalistes / B. lewis VL ménage ch pallat et J schachi lyde ej brille – paris 1975 – page1069.

2 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص314/ محمد عبد الله عنان- ص151.

3 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص314.

4 - العذري أحمد بن مر بن أنس- المصدر السابق- ص108.

لقد حصلت يا رنـدة فصرت لملكنا عقـدة
أفادتناك أرمـــاح وأسياف لها حـــدة
وأجناد أشـــداء إليهم تنتهي الـشدة
غدوت يرونني مولى لهم وأراهم عــدة
سأفني مدة الأعـدا ء إن طالت بي المـدة
وتبلى بي ضلالتـهم ليزداد الهوى جـدة
فكم من عدة قتلـــ ـت منهم بعدها عدة
نظمت رؤوسهم عقدا فحلت حبة الســده[1]

ومع هذا فقد استطاعت إمارة بني يفرن أن تعمر أكثر من نصف قرن[2] إذا أخذنا بعين الاعتبار تواجد هذه الطائفة من بني يفرن في إقليم تاكرونا قبل الاستقلال به في بداية عهد الفتنة.

وما هو جدير بالملاحظة –هنا- هو تمكن صمود بني يفرن طوال هذه المدة أمام أطماع دولة بني عباد التي ما فتئت تهدد أمن واستقرار إمارة رندة التي كانت تستميت في الدفاع طمعا في البقاء.

ولما حلت أسباب السقوط تعذر عليهم الاستمرار في مواجهة العباديين - الذين أصبحوا أقوى إمارات الطوائف في جنوب الأندلس- هذا بالرغم من تلك التحالفات القائمة بين العناصر البربرية التي كانت على ما يبدو مخترقة من قبل العناصر الأندلسية ومن عملاء العباديين من البربر.

وعليه فإن بني يفرن قد وهنت عصبيتهم وتفرقوا على وجوههم في بلاد الأندلس واجتاز قسم منهم مضيق جبل طارق ونزلوا بسبتة ثم غادروها بعدما طردهم سقوت

1 - ابن بسام- المصدر السابق- ج

2 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص314.

البرغواطي[1] صاحب سبتة ولم يجدوا ملاذا أو أرضا تأويهم وتعرضوا لمجاعة شديدة أتت على الكثير منهم[2].

وإن المتأمل في التاريخ الاجتماعي والسياسي لبني يفرن خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين يدرك أن بداية النهاية للفعل السياسي لدولتهم قد انتهى عند الانقسام الذي أصاب أمراء هذه القبيلة بين يداس بن دوناس وأنصار يدو بن يعلى.

وما وجودهم في الأندلس وانزوائهم في رندة طيلة هذه المدة سوى تشنجات قبلية قامت في ظل الانقسامات والشروخات التي عرفتها العدوة الأندلسية في مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي إلى حين التهمتها الكيانات الكبرى وضمتها إلى ممتلكاتها وبذلك ذوت شمعة بني يفرن وانطوت صفحتها إلى الأبد واختفت معها مثيلاتها من القبائل البربرية في الأندلس.

---

1 - سقوت البرغواطي- مولى يحي بن علي بن حمود اشتراه من رجل حداد من سبي برغواطة تلقب بالمنصور حين تولى أمور سبتة ولما زالت دولة بني حمود سعى سقوت إلى ضم طنجة إلى إمارته وانتزاعها من يد زميله رزق الله الذي كان واليا على تلك المدينة كانت له مع المعتضد مشادة دامية حول الجزيرة الخضراء التي آلت إلى المعتضد فقتل سقوت على يد المرابطين حين أعلن معارضتهم والدخول في حلفهم سنة 471هـ/1078م ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص250/ ابن خلدون- ج4 ص186/ السلاوي محمد الناصري- المصدر السابق- ج1 ص224.

2 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص189.

الفصـــل الثـالث

بنو دمر في مرور

أصولهم:

بنو دمر هم ثالث الإمارات البربرية التي استقرت في مرور أو مورون جنوب الأندلس عقب الفتنة القرطبية[1] وهي على غرار الإمارات البربرية الصغيرة التي أنشئت بمحاذاتها تتربع على وقعة جغرافية صغيرة شملت ضواحي مرور وامتدت جنوبا حتى وادي لكة[2] الذي يعد حاجزا طبيعيا لأغلب هذه الإمارات.

---

1 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص152.

2 - وادي لكة- موضع من أرض الجزيرة الخضراء من الساحل الأندلسي القبلي فيه التقى طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ومجموعة من الداخلون الأندلس مع لذريق آخر ملوك القوط/ الحميري عبد المنعم- المصدر السابق- ص605.

وبنو دمر هؤلاء ينتمون إلى إحدى بطون زناتة[1] وجدهم هو زانا بن يحي وتفرعت عن دمر بطون كثيرة[2] أهمها بنو ورغمة الذين سكنوا جبال طرابلس وبنو ورنيد أوسع البطون المنحدرة من دمر[3] فعرف منهم بنو برزال الذين تعرضت لهم في هذا البحث.

وكانت مواطنهم بإفريقية في نواحي طرابلس وكانوا أكثر انتشارا في جبالها المحيطة بها وكان منهم آخرون رحل لا يعرفون الاستقرار[4] يتنقلون عبر سهوب إفريقية والمغرب الأوسط ومن بني ورنيد منهم جماعة في الجبل المشرف على تلمسان انتقلوا إليه من السهوب الجنوبية لتلمسان بسبب ضغوط بني راشد الذين كانوا مزاحمين لهم في تلك البسائط ومنهم كذلك من كان بجبال السلات بنواحي المسيلة وهم أحياء من بني برزال.

وعند ابن عذاري هم من سكنوا الجبل المحاذي لقابس[5] إلا أن الأستاذ محمد عبد الله عنان ينسبهم إلى بربر تونس[6] وكذا محمد أرزقي فراد[7].

وكانت ننلتهم الدينية إباضية على مذهب الخوارج[8] غير أن أبو محمد بن حزم يصنفهم ضمن المعتزلة[9] حيث يقول: "... وكل من ذكرنا معتزلة حاشا بني برزال وبني واسين فهم إباضية وأما جمهور بني مغراوة وبني يفرن فسنية"[1].

---

1 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7

2 - دمر بن الغانا الذي هو والد واردیزن بن دمر فولد واریزن بن دمر وانتين بن واردیزن فولد وانتين بن واردیزن- ورنيد بن وانتين- فولد ورنيد بن وانتين برزال ويزدرين وصغمار، وبطوفت أشقاء ورتتين وعرزول وتفورت أشقاء جننو ورتاتين هو الذين ينسبون بني دمر/ ابن حزم – جمهرة أنساب العرب- ص498.

3 - مبارك الميلي- المصدر السابق- ص

4 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص71.

5 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص215.

6 - محمد عبد الله عنان- نفسه- ص152.

7 - محمد أرزقي فراد- المرجع السابق- ص80.

8- ابن عذاري- ج3 ص295.

- Claudio Sanchez – al bornoz la España musulmana – tome II – Madrid 1982 – page 11.

9 - المعتزلة- فرقة من الفرق الإسلامية ولقبوا بالمعتزلة لأن واصلا وعمرو بن عبيد اعتزلا حلقة الحسن واستقلا بأنفسهما على تقريرهما أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن مطلقا بل هو في منزله بين المنزلتين فسموا بالمعتزلة كما قامت عقيدتهم على نفي الصفات القديمة للذات الإلهية واتفقوا على أن العبد خالق لأفعاله خيرها وشرها وستحق على ما يفعل

وفي اعتقادي أن مذهب بني دمر كان مماثلا لمذهب القبائل البربرية المنتشرة في جنوب الأندلس على اعتبار أن المذهب الإباضي الخارجي كان أكثر انتشارا في بلاد المغرب حيث ساعدت تعاليمه على الانفلات من قبضة بني أمية المروانيين الذين قبضوا على الحكم في بلاد المغرب بيد من حديد في العهود الأولى للفتح وقد أشرت إلى هذ الطرح من قبل في حين أن مذهب الاعتزال كان أقل انتشارا في بلاد المغرب وهذا يرجع في اعتقادي إلى التعاليم التي تتطلب الفهم العميق وإمعان العقل وبخلاف نظرائهم من بني برزال ظل بنو دمر متمسكين بمذهبهم[2] ومما يذكر عن بني دمر أيام الفتح الإسلامي للأندلس كانوا ضمن الكتائب البارزة التي قادها موسى بن نصير لنجدة الطلائع الأولى للفاتحين بقيادة طارق بن زياد وابلوا فيها البلاء الحسن[3].

جوازهم نحو الأندلس:

تجمع أغلب المصادر التاريخية على أن جواز بني دمر نحو الأندلس كان على عهد الخليفة الأموي الحكم المستنصر الذي كان قد جنح إلى سياسة الاعتماد على العناصر البربرية في مقاومة أعدائه والتصدي للظروف الحرجة التي كانت تمر بها الأندلس في آخر أيامه إلا أن هذه المصادر لا تشير إلى الأسباب التي دفعت بنو دمر إلى مبارحة أوطانهم ببلاد المغرب كما أنها لم تشر إلى الظروف والملابسات التي أحاطت بهذا الجواز.

إلا أنني لا أستبعد أن يكون جوازهم ضمن الجموع الزناتية التي تعرضت إلى تلك الحملة المسعورة التي قادها بلكين بن زيري بتحريض من الفاطميين من جهة وانتقاما لمقتل والده والتمثيل به كما أشرت إلى ذلك من قبل وبلا ريب فقد كان بنو دمر في طلائع من يمم نحو الأندلس على اعتبار أن بنو دمر هم من إحدى القبائل الزناتية الهامة في بلاد المغرب.

توابا وعقابا/ محمد بن عبد الكريم- الملل والنحل- تحقيق محمد يزيد- المكتبة التوقيعية- ج1 ص65-66/ أحمد أمين- فجر الإسلام- دار الكتب العربي – بيروت 1979م- ص288.

1 - ابن حزم- جمهرة أنساب العرب- ص198.

2 - بوزياني الدراجي- المرجع السابق- ص171.

3 - Gaid mouloud – les berberes dans l’histoire en Espagne musulmane – tome IV – edition mimouni – page 195.

يقول صاحب مفاخر البربر: "فأوغل أي –بلكين بن زيري- في ديار زناتة وقتل منهم خلقا لا يحصيهم إلا الله في مواطن كثيرة واستولى على تاهرت والمسيلة وباغاي[1] وبجاية وبسكرة وجميع المدن بالمغرب حتى لم يبق لزناتة في شيء منها أمر"[2] وتحت وطأة هذه الحملات المبيدة اضطرت القبائل الزناتية وسائر البربر إلى الهجرة نحو العدوة الأندلسية.

وكان ضمن النازحين من بني دمر شخصيات بارزة من أعيانهم ورجالات حرب اشتهروا بشدة المراس وكانوا من قبل موالين للدعوة المروانية والمنافحين تحت لوائها فرحب بهم الحكم المستنصر وأجل قدومهم وعبء بهم صفوف جيشه.

يقول ابن خلدون: "وكان قد أجاز إلى الأندلس من بني دمر هؤلاء أعيان ورجالات حرب فيمن أجاز إليها من زناتة وسائر البربر أيام أخذهم بدعوة الحكم المستنصر فضمهم السلطان إلى عسكره"[3].

بنو دمر في جيش المنصور بن أبي عامر:

ظل المنصور بن أبي عامر مولعا بهذه الفتنة من البربر التي استهوته طوال حياته وجعل منها سما زعافا يقهر بها أعداءها في الداخل والخارج وحتى يضمن ولاء البربر من صنهاجة وزناتة فقد قرب أعيانهم وسراتهم فقد كان نوح الدمري أحد كبار أعيان بني دمر والمقربين عند المنصور: "وكان من رجالاتهم نوح الدمري وكان من عظماء أصحاب المنصور"[4].

1 - باغاي- مدينة بإفريقية أولية بالقرب من مسكيانة ذات أنهار وثمار ومزارع وهي على مقربة من جبل أوراس عليها سوران من حجر ولها ربض عليه سور وهي أول بلاد التمر/ عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص67/ الإدريسي- المصدر السابق- ص177.

2 - مجهول- مفاخر البربر- ص97-98.

3 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص71.

4 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص71.

ومن جهة أخرى كانوا عصب الجيش العامري الذين استظهر بهم المنصور على خصومه[1] في غزواته المعروفة التي ناهزت ست وخمسون غزوة[2] في التخوم الشمالية في بلاد الروم.

كانت غزوة جربيرة[3] إحدى غزوات التي ابتلى فيها جيش المنصور وزلزلوا زلزالا عنيفا حتى أنهم ودعوا بعضهم بعضا بعد أن أيسوا من الحياة لتتبجس في غمرة اليأس ثلة من فرسان البربر وعلى رأسهم كيدير الدمري الأبرص الذي شق طجريقه نحو قوامس بن غومس ويجيء برأسه ليحول الهزيمة إلى نصر يقول ابن الخطيب ملخصا هذه الحادثة: "... ومعه أبطال من أعلام المسلمين الأندلسيين والعدويين عامتهم فرسان البرابرة على أن الاسم منهم في هذا اليوم ذهب إلى كيدير الدمري الأبرص من كبار القواد وأحد ملوك بني دمر بالعدوة وكان له أقدام عظيم قتل في احتدامه ذلك أحد قوامس بني غومس وجاء برأسه فاستمرت الهزيمة على أثره وما قصر عبد الرحمن بن المنصور في شدة الإقدام وثبت المقام وكانت حربا عظيمة تعتاض عن الصفة"[4].

ومن هذه الوقيع وغيرها يتبين لنا أن المنصور بن أبي عامر أدرك بحس تدبير وبعد نظره أهمية وجود البربر في الجيش الأندلسي.

ولعل الانتصارات التي أحرزها المنصور على أعدائه في الشمال يعود الفضل فيها إلى هؤلاء البربر الذي لم يستغنى عنهم بل ظل يستدعي كبراءهم وأعيانهم من صنهاجة وزناتة[5].

---

1 - نفسه.

2 - مجهول- تاريخ الأندلس- ص226.

3 - جربيرة- نسبة إلى الجبل الذي وقعت فيه الغزوة قدم إليها المنصور من مدينة سالم أين احتشد الروم من جميع بلادهم فاجتمع منهم خلق عظيم لا يحصى وثبت المسلمون لحربهم حتى استشهد منهم نحو سبعمائة رجل ثم مال عليهم المسلمون وركبوهم بالسيف وسبوا محلاتهم وأخذوا منها الأموال والسلاح ما لا يحصى/ مجهول- تاريخ الأندلس- ص235.

4 - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص70.

5 - ابن خلدون- ج4 ص147.

كما أن معظم المؤرخين يجمعون على أنهم مقاتلين من الطراز الأول لا يقاتل الأعداء إلا بهم يقول ابن حيان: "وقاموا مقام الفولاذ في الحديد فلا يقتل الأعداء إلا بهم ولا تعمر الأرض إلى في جوارهم"[1].

دورهم في الفتنة القرطبية:

لما قامت الفتنة القرطبية سنة 399هـ/1008م انضم بنو دمر إلى سليمان المستعين الذي أصبح يلقب بإمام البربر أسوة بإخوانهم البربر من بني برزال وبني يفرن وفلول أخرى من البربر الذين أعلنوا انسحابهم من جيش المهدي بعد إذ قلب لهم ظهر المجن وصار يصرح بضرورة التخلص منهم ويحرض أهل قرطبة عليهم يقول ابن عذاري: "وكان الأصل في هذه الفتنة ابن عبد الجبار فإنه استفسد إلى البربر وكان يصرخ نكبتهم ولا يقدر على كتم ذلك وإذا جاء أكابرهم إلى بابه منعوا ووبخوا وضرب رأس خيلهم"[2].

ليس هذا فحسب بل كان يسره أن ينكل بهم حيث وصل إلى مسامع البربر شيء من هذا القبيل يقول ابن خلدون: "وكان مع ذلك مظهرا لبعضهم مجاهرا بسوء الثناء عليهم وبلغهم أنه سره الفتك بهم فتمشت رجالاتهم وأسروا نجواهم"[3].

وأجد من الضروري أن أشير هنا إلى أمر في غاية الأهمية وقد أومأت إلى ذلك من قبل وملخص ذلك أن البربر كانوا يدركون أهمية الشخصية الرمز التي يمكن الالتفاف حولها لإضفاء صبغة الشرعية على حركتهم الجديدة لمجابهة الطائفة الأندلسية التي كانت تكن لهم العداوة وتنعتهم بشتى النعوت التي تحط من كرامتهم حيث لم يسلموا حتى من العامة الذين كانوا يعربون عن بغضهم لجنود البربر دون تحفظ أو مواربة[4] لذلك لم يترددوا في الانضمام إلى أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر الذي توفرت فيه هذه الشروط.

وعلى أية حال فقد شكل البربر الأغلبية في جيش المستعين وخاضوا معه جميع الوقائع وشكل بنو دمر قطعة من هذا الجيش حيث برزت عناصرهم كمقاتلين أشاوس طار ذكرهم في الآفاق وأصبحوا مضربا للأمثال ففي موقعة "وادي آره" التي دارت رحاها بين

1 - ابن بسام- المصدر السابق- ج2 ص9.

2 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص264.

3 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص193.

4 - ليفي بروفنسال- المرجع السابق- ص515-517.

المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار وحليفه واضح الصقلبي وبين سليمان المستعين وأنصاره البربر أبلى بني دمر البلاء الحسن وأظهروا شجاعة فائقة، حيث كانت هذه الموقعة بالنسبة لهم ولإخوانهم من الفصائل الأخرى من البربر الفرصة الأخيرة للذوذ عن كيانهم في هذا البلد الذي يتطلب مغالبة شديدة لإثبات ذواتهم لهذا فقد صمدوا صمود الأبطال ودافعوا عن أنفسهم دفاع من لا يطمع في الحياة ووجهوا للمهدي وحلفائه الفرنجة ضربة قاصمة وتمكنوا من هزيمتهم وقتلوا من الفرنجة نحو ثلاثة آلاف من بينهم وزير الملك الفرنجي وغرق منهم بالوادي أعداد كثيرة واستولوا على أسلابهم من سلاح ومال ودواب[1].

ويلخص لنا صاحب كتاب شواهد الجلة دور بني دمر في ساحة القتال وما أظهره أحد أعلامهم المحاربين بهلول بن تمايت الدمري ونال بعد ذلك شهرة كبيرة حيث وصف لنا ابن عربي شجاعة وجسارة هذا الفارس البربري ومآثر ثلاث شخصيات ذاع صيتها في هذه المعركة حتى أصبحت مضرب مثل بين الناس في ذلك الوقت لدرجة أن المغاربة اتخذوها مادة للدعاية لأنفسهم وللتفاخر على أعداءهم.

وفي ذلك يقول: "وكان من عجائب الضراب بوادي آره المتحدث عنه في الآفاق إلى اليوم ثلاث ضربات ما سمع بمثلها في الدهر مضاء بسيوف وقوة سواعد منها ضربة ابن أبي دوليت لبيضة التي حملت إلى مدينة برشلونة والتي وضعهتها الفرنجة في الكنيسة هنك اعتبارا ومعذرة وضربة حباسة بن ماكس الصنهاجي فارسا آخر منهم بدرع حصينة ثقيلة فهتكت الزرد[2] وقدته وقدت جنب لابسه فجدلته وضربة بهلول بن تمايت الدمري بخطم[3] فرص علج منه ففصلت حديدتي اللجام ولحيتي الفرس جميعا ورمت بخطمه وما تكنفه من الحديد وخر الفرس لفيه فصارت هذه الضربات أعجوبة عند الناس"[4].

---

1 - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص125.

2 - الزرد- الزرد هو حلق المغفر والدرع والزردة حلقة الدرع والسر ثقبها والجمع زرود والزراء صانعها/ ابن منضور أبو الفصل- المصدر السابق- ج3 ص195.

3 - الخطم- الخطم من كل دابة مقدم أنفها وفمها والأنوف يقال لها المهاطم وخطمه يخطمه خطما يقال ضرب مخطمه وخطم فلان فلانا بالسيف إذا ضرب وسط أنفه/ ابن منضور- نفسه- ص186.

4 - أبو بكر بن عربي- شواهد جلة- تحقيق محمد يعلى- المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- ص381.

وحين دخل جيش البربر قرطبة واستوى المستعين على عرش أسلافه أقدم على مكافئة البربر الذين ساهموا في انتصاراته على جيش المهدي فعلى غرار ما كافء به العناصر البربرية الأخرى لم يتردد في مكافئة بني دمر فقد منهم شذونة ومرور مشاركة مع وردزاجة[1].

وللإشارة فإنه لا يمكن تعليل هذه التنازلات من قبل المستعين لصالح البربر عامة ولبني دمر خاصة إلا للدور الذي قام به هؤلاء في الجبهات القتالية التي خاضها المستعين ضد خصمه العنيد الذي كاد أن يوقع به لولى استماتة البربر وثباتهم في معمعة التطاحن.

وفي غمار تلك الخطوب التي أفرزتها الفتنة القرطبية سارع نوح بن أبي تزيري[2] الدمري زعيم بني دمر إلى الاستحواذ على مرور وبط نفوذه بها أسوة بما فعله غيره من أمراء الطوائف الذين تفرقوا فرقا[3] واقتسموا خطط الملك وولايات الأعمال[4].

واستغلالا لهذه الظروف الحرجة التي كانت تمر بها الأندلس أعلن نوح بن أبي تزيري استقلاله بالمنطقة بعد وفاة والده أبو تزيري سنة 403هـ/1013م الذي كان وفد إلى الأندلس أيام المنصور بن أبي عامر وخدم كسائر زملائه الزعماء البرابرة في الجيش وعند قيام الفتنة القرطبية واختلال دعوة بني أمية انحاز منذ الأيام الأولى للفتنة إلى منطقة الجنوب التي كانت موئلا للبربر منذ القديم واستقر بها وبسط عليها سلطانه[5].

وفي حقيقة الأمر حسب ظني فإن هؤلاء الأمراء من البربر كانوا قد بسطوا نفوذهم على هذه المناطق قبل نشوب الفتنة إلا أنهم أرجؤوا الإعلان عن الاستقلال إلى حلول الظروف المواتية.

---

1 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص113.

2 - نوح بن أ[ي تزيري- من عظماء أصحاب المنصور ولاه المستعين أعمال مرور وأركش فاستبد بها في غمار الفتنة وأقام بها سلطانا لنفسه إلى أن هلك سنة 433هـ/ ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص71.

3 - المراكشي- المصدر السابق- ص59.

4 - ابن خلدون- نفسه- ج7 ص71.

5 - محمد عبد الله عنان- ص152.

يقول صاحب مفاخر البربر: "فأقاموا بالأندلس إلى أمد الجماعة ونزول الفتنة المبيدة فكسحوا في الفتنة كما فعل غيرهم واستقر أمرهم أخيرا بمدينة رندة وأحوازها وبلاد شذونة وتاكرونا ومرور"[1].

ظل الأمير نوح الدمري يسوس بلاده زهاء ثلاثين عاما إلى أن هلك سنة 433هـ/1013م.

وهناك ملاحظة لابد من إثارتها خلال فترة حكم نوح بن أبي تزيري ألا وهو غياب بني دمر في بؤرة الصراع المتأجج في منطقة الجنوب وهذا حسب المصادر التي تمكنت من الاطلاع عليها.

مما يستنتج أن نوح بن أبي تزيري قد نهج سياسة الاعتزال تجاه ما كان يجري من مناوشات واقتتال بالقرب من إمارته بين بني برزال وبني الأفطس وخصومهم بنو عباد.

ومن وجهة نظر أخرى ربما تكون المصادر قد غفلت عن الضجيج الخافت لبني دمر خلال هذه الفترة في منطقة الجنوب

إمارة بني دمر في عهد محمد بن نوح الدمري:

لما هلك نوح بن أبي تزيري 433هـ/1013م خلفه ابنه أبو مناد محمد بن نوح الدمري وتلقب بالحاجب عز الدولة شأن ملوك الطوائف[2] الذين استكثروا من هذه الألقاب[3].

وكان محمدا هذا فتى غرا وجنديا جاهلا حديث عهد بالإمارة[4] وكان لا يعير أي اعتبار للفضائل والمكارم إلا أنه كان جسورا مقداما لا يبالي من اعترضه واستطاع بجرأته وحزمه أن يحافظ على سلطانه وأراضيه متقفيا آثار أبيه في التعامل مع جيرانه البربر ومداهنة بني عباد.

---

1 - مجهول- مفاخر البربر- ص136.

2 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص71.

3 - عدد ابن الخطيب هذه الألقاب مستخفا بملوك الطوائف الذين لم يكونوا في مستوى هذه الألقاب قائلا- "وإن كانوا لم يبالوا اغترارا من معتمد ومعتضد ومرتضى وموفق ومستكف ومستظهر ومستعين كما يقول الشاعر-

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد

- ابن الخطيب- المصدر السابق- ص144.

4 - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص239.

يقول ابن عذاري: "وثار بمرور –أي محمد بن نوح- سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وكان له بأس ونجدة وجرأة وبسط الكف مدة وحفظ بلاده وسلم من الجور رعيته"[1] إلا أن المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ظل متوجسا من قيام تلك الإمارات الصغيرة بجوار مملكته القوية والشاسعة وظل يعمل الفكرة في تصفيتها والتخلص منها إلى الأبد[2].

لذلك ظلت سياسته تجاه هذه الإمارات تتأرجح بين المهادنة تارة وإعلان الحرب عليها تارة أخرى[3].

ولم تكن مصانعته إياهم إلا بسبب الحرب التي أعلنها على رؤساء الغرب وبالتالي يتجنب خطر تعدد الجبهات[4] حيث أورد لنا صاحب الذخيرة مجسدا هذه الازدواجية في التعامل بني دمر وذلك حين شرع بالهجوم على مرور بعد أن كان قد ناوش إخوانهم من البربر من بني برزال وبني يفرن وبني خزرون وذلك حين تسللت قواته عبر أراضي محمد بن نوح يقول ابن بسام: "كان أول ما بدأ به من حربهم هجومه على الحاجب ابن نوح المنتزي منهم كان بكورة مرور وفي غير كتيبة نظمها ولا مقدمة إليه قدمها إلا فتيان ينهبان عليه ويحملان الأموال بين يديه تجاسرا على ركوب الخطر الذي تحاماه اللبيب واستنامة لصرف القدر وهو لا يدري أيخطئ أم يصيب فخلص إلى ابن نوح هذا"[5].

إلا أن محمد بن نوح بالرغم من الأوصاف التي نعته بها ابن الخطيب وقد سبقت الإشارة إليها وما ذكره ابن بسام من أن ابن نوح كان سفاحا يسفك الدماء ولا يتورع في إزهاق الأرواح ولا يبالي دم من تجرع ولا يحفل بأي شيء يصنع[6] إلا أنه قابل عدوان

---

1 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص295.

2 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص152.

3 - ابن عذاري- نفسه- ص214.

4 - André Clot – l'Espagne musulmane VIII XV siècle – perrin 1999 – page 190.

5 - ابن بسام- المصدر السابق- ج2 ص20.

6 - ابن بسام- المصدر السابق- ج2 ص21.

المعتضد بالحلم والأناة والصبر ولم يقابله بعدوان مثله[1]: "فبالغ ابن نوح في بره وتضاءل الأمر وحمل ذلك من فعله على أحد أسباب السلامة وأتم وجوه الإستقامة"[2].

واستحسن المعتضد صنيع ابن نوح وجنح إلى مهادنته واستمالته بالعطاا والصلات كما فعل مع أقرانه من أمراء الإمارات البربرية الأخرى أبي نور بن أبي قرة صاحب رندة وعبدون بن خزرون صاحب أركش[3].

واستدراكا لما ذكرته آنفا فإن ابن خلدون يرى رأيا آخرا في وقوع المعتضد بن عباد بين أيدي رجال ابن نوح حيث يذكر على أن ذلك حصل لما كان المعتضد يمر بمحاذاة حصن أركش أثناء أسفاره ولم يذكر هجوم المعتضد على أركش حيث يقول: "ومر المعتضد في بعض أسفاره بحصن أركش وتطوف به متخفيا فقبض عليه بعض أصحاب ابن نوح وساقه إليه فخلى سبيله وأولاده كرامة احتسبها عنده يدا وذلك سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة"[4].

وأما فيما يخص العلاقة مع الإمارات البربرية المجاورة في عهد هذا الأمير فيبدو أنها لم تكن من نوع العلاقات الودية التي تتطلبها قرابة العصب التي كثيرا ما تعلقت بأهدابها مختلف العصبيات.

صحيح أن العلاقات بين أمراء الطوائف من أصول إثنية مختلفة كانت عدائية بسبب العوامل المغذية لها إلا أنها كانت سلمية في كثير من الأحيان[5] وخير مثال على ذلك هو ما حدث لبني دمر عندما تعرضت إمارتهم إلى الهجمات الكاسحة من قبل الإمارات البربرية

---

1 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص152.

2 - ابن بسام- نفسه- ج2 ص20.

3 - محمد عبد الله عنان- ص150.

4 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص73.

5 - يذهب الدكتور امحمد بن عبود على أنه يستحيل قبول نمط واضح للتحالفات العرقية للدول الطائفية التي امتاز سكانها بالتحام اثني مماثل بين بعض ملوك الطوائف الذين تحالفوا مع ملوك الطوائف من أصل عرقي مخالف، امحمد بن عبود- المرجع السابق- ص61.

المجاورة وعلى رأسها زعيمهم باديس بن حبوس المتحالف مع بني جهور الذين أرسلوا جنودهم للمشاركة في هذه الغارة على بني دمر[1].

وبالرغم من حضور ابن عباد القوي في جميع الأحداث التي دارت رحاها في المنطقة الجنوبية وصناعته لأغلب هذه الأحداث إلا أنه امتنع من المشاركة في هذا الحلف الذي استهدف بني دمر بسبب ما كان من خصومه وحروب مع الفصائل المشاركة.

وعندما اجتمع رؤساء القبائل البربرية سنة 439هـ/1058م لمبايعة محمد بن القاسم بن حمود الحسيني بالجزيرة الخضراء كان محمد بن نوح الدمري ضمن المجموعة البربرية التي سارت تحت إمامهم الجديد لمجابهة المعتضد بن عباد ولم يقضوا من ذلك وطرا وباءت حملتهم بالفشل.[2]

ويبدو أن مواقف محمد بن نوح الدمري حيال بني عباد جلبت إليه سخط المعتضد وحيث كانت هذه المؤامرة إحدى الأسباب التي جعلت المعتضد يقدم على إنزال أقصى العقوبات على رؤساء هذه الإمارات حيث دعاهم وصحبهم كما تقدم إلى زيارته وفي اليوم الثالث من وصولهم أمرهم بالدخول عليه فلما انتهو إلى مجالسهم فاتحهم في موضوع علاقته مع أعدائه، فخاطبهم بلهجة خشنة فلما لاحظوا شدة الغضب في نبرة صوته وملامح وجهه أرادوا المناصفة لأنفسهم وناب عنهم محمد بن نوح الدمري محاولا إقناع المعتضد بالعدول عن رأيه فلطمه المعتضد بيده وأمر عبيده فأقاموهم أسوء قيام وانهالوا عليهم بالشتم

---

1 - عرض ابن حيان أبو مروان وقائع هذه الهجمات على بني دمر بشيء من التفصيل حيث يقول- "إن هذه القبائل تحالفت وتعاضدت على غزو بلاد بني دمر ودخل معهم في ذلك ابن جهور ولم يدخل بينهم ابن عباد لأنه كانت بينه وبينهم الحرب وقصدت هذه القبائل بعدما حشدت رعيتها مع زعيمهم باديس ومع أبي نور ومعهم جمع من عسكر ابن جهور حصنا من حصون بني دمر ونازلته منازلته بلاد الروم وأقام هذا العسكر على هذا الحصن أياما يقاتلونهم مقاتلة الكفار حتى دخلوه عنوة فقتلوا رجاله عن آخرهم وهتكوا الاستار وفتكوا الأبكار حتى كانت دماؤهن تسيل على أقدامهن عاريات باكيات واستحوذ السودان وسفال العسكر على النساء فكانت أخبتهم مملوة منهن إلى أن برح باديس بعد ثلاثة أيام عليهن فطردوهن عاريات حافيات وخرج نساء هذا الحصن إلى سائر القرى والحصون على ما ذكرنا"

- ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص269.

2 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص239.

يجرونهم من لحاهم واقتادوهم إلى مواضع شتى لا يلتقي أحد منهم بغيره[1] إلى أن كانت حادثة الحمام التي كان فيها مهلكهم[2] وذلك سنة 445هـ/1064م.

إلا أن هناك رواية أخرى مفادها أن محمد بن نوح نجا من هذه الحادثة المأساوية لليد التي كانت له لدى المعتضد ولم ينس جميلا قد أفل يقول ابن خلدون: "وتخلف ابن نوح عنده من بينهم فلما حصلوا داخل الحمام أطبقه عليهم وسد المنافس للهوى دونهم إلى أن هلكوا ونجا منهم ابن نوح لسالفة يده"[3].

ولبث محمد بن نوح في معتقل المعتضد حتى توفي سنة 449هـ/1057[4] ودامت دولته حوالي تسع عشرة سنة وكان قد أوصى إلى ابنه مناد وكتب له عهد بذلك[5].

وقد ذكر أحد الشعراء المعتضد أبو الحسن علي بن حصن الإشبيلي أسباب قدوم المعتضد على هذا الفعل الشنيع.

وكل غدا رهنا بما كان عامــلا   وكل على ما خيلت سوف يغلق
فأشكل ملبوس تخيرته لهـــم   جوامع أغلال بها يتأنـــق
وأفضل مركوب عليه حملتهــم   أداهم إلا يعتقوا ليس تعنــق
هم وردوا الحوض الذي عنه ذدتهم   ووارد ذاك الماء لابد يعلــق
هم نقضوا ميثاق عهدك عنـــوة   فأوثقهم في ربقة الأسر موثـق
هم انضجوا ذاك الشوء فرمــدوا   وهم طبخوا ذاك القدير فازعقوا[6]

نهاية بني دمر في مرور:

بالرغم من القضاء على رؤساء الإمارات البربرية على يد المعتضد بن عباد إلا أنه لم يستطع إخضاعها لمملكته إلا بعد صراع مرير أنفقت في إمارة اشبيلية تضحيات جسيمة تمكن بعدها المعتضد من القضاء على خلفائهم.

---

1 - نفسه- ج3 ص271.

2- Claudio Sanchez – al bornoz la España musulmana – page 11.

3 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص72.

4 - ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

5 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص296.

6 - ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

وفي مرور خلف محمد بن نوح الدمري الذي هلك داخل أسوار اشبيلية ولده مناد بن محمد بن نوح الدمري يوم موت أبيه واقتفى سيرة أبيه في الحزم والصرامة[1] بل فاقه في بعض مواصفات التيقظ وحس الإدارة.

و تحولت إمارته موئلا لمن يرومون العدل والاستقرار، وقصده الناس من إشبيلية وأستجة حتى ذاع صيته في الآفاق وكثرت جموعه وشغل أعداءه وفي مقدمتهم المعتضد بن عباد الذي لم ترقه تصرفات الأمير الجديد[2].

وفي تقديري فإن الأمير مناد بن محمد بن نوح الدمري سلك سياسة جديدة سعى من خلالها إلى تقوية إمارته للوقوف في وجه بني عباد حتى يتفادى مصير والده المشؤوم واستمر محافظا على سلطانه[3].

لم يمهل المعتضد بن عباد الأمير الجديد لاستكمال مشروعه في بناء دولته حتى شرع المعتضد في الإغارة على بلاده يحرق قراه وزروعه ويناوشه من جميع الجهات بطريقة قاسية منظمة.

فلما شعر الأمير مناد بشدة الضغط وأنه لم يعد بمقدوره مغالبة المعتضد ولا رد عدوانه كتب إليه يسأله الأمان والمسالمة على أن يسلمه أراضيه ويقيم في إشبيلية يعيش في كنفه[4] فأجابه المعتضد طلبه.

ومشى مناد بن محمد نحو إشبيلية في جو مهيب رفقه أهله وسلم للمعتضد بن عباد الحصن وما يتبعه من حصون وأعمال[5].

وعند وصوله إشبيلية حضى باستقبال يليق بمقامه من قبل المعتضد الذي بالغ في إكرامه وأسبغ عليه النعم وذلك سنة 458هـ/1066م وبقي مناد الدمري بإشبيلية يرفل في نعم ابن عباد إلى أن مات بها سنة 468هـ/1067م.

---

1 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص153.

2 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص296.

3 - محمد عبد الله عنان- نفسه - ص153.

4 - صلاح خالص- المصدر السابق- ص129.

5 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص153.

فكانت دولته بمرور من يوم ولايته إلى يوم خلعه ثلاثين سنة وأقام بإشبيلية عشرة سنوات[1].

وأمام هذا الانحدار والمأساة التي آلت إليها الإمارات البربرية وسقوطها تترى في يد المعتضد انتفض باديس بن حبوس وبادر بالخروج لمواجهة ابن عباد كما أشرت إلى ذلك سلفا.

ولما كان باديس بن حبوس لم يوفق في محاولته إنقاذ بني جلدته من البربر المستقلين بإمارة رندة ومرور وأركش وشذونة فإنه تمكن من إلحاق الهزيمة بالمعتضد بن عباد سنة 458هـ/1065م، وذلك عندما حاول المعتضد ضم مالقة إلى مملكته وكان باديس بن حبوس قد نتزعها من يد محمد بن إرديس بن يحي العالي الملقب بالمستعلي سنة 449هـ/1057م[2].

سير المعتضد بن عباد حملة إلى مالقة بقيادة ابنيه جابر والمعتمد تلبية لطلب الطائفة الأندلسية من أهلها الذين سئموا حكم البربر وآثروا الانضواء إلى دولة الطائفة الأندلسية[3] هذا بالرغم من مساوئ المعتضد وقبيح أعماله[4] واقتحمت جيوش بني عباد مالقة وكادت المدينة تسقط في أيديهم لولى نجدة العصبة البربرية بقيادة مخلوف بن ملول[5] الذي استمات ومعاونيه في الدفاع عن مدينتهم[6].

وكان المعتضد إنما قدم إلى مالقة بتحريض من البربر المجندين في صفوف جيشه إذ ذللوا له العامة وأوهموه بهشاشة الدفاع عن قصبة مالقة.

وبلا ريب فإن ذلك كان بدافع انتمائهم إلى العصبة البربرية وخاصة بعد سقوط الإمارات البربرية في يديه الأمر الذي جعلهم يحقدون عليه ويتربصون به الدوائر وفي ذلك

---

1 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج 296.

2 - الأمير عبد الله الزيري- المرجع السابق- ص76/ المقري- نفح الطيب- ج1 ص410-411.

3 - الأمير عبد الله الزيري- نفسه- ص89.

4 - ابن عذاري- نفسه- ص273.

5 - مخلوف بن ملول من المقربين من باديس بن حبوس عرف بدماثة الخلق الأمير عبد الله الزيري/ المصدر السابق- ص89.

6 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص273-274.

يقول ابن خاقان: "واطمعوه في استنزالهم وإنما كان ذلك أبقى على الأقارب واتقى على أولئك المغارب"[1].

فاستجاب المعتضد لنصحهم وأمر رجاله بالإناخة والاستراحة من عناء مسيرهم وعكف هو على لهوه ولعبه مع جنده.

فمالت جيوش ابن باديس عليهم ميلة واحدة ودارت بين قوات ابن عباد معركة ضارية أبيد فيها معظم قوات بن عباد وأصبحوا بين قتيل وأسير وفازع لاذ بالفرار[2].

وغضب المعتضد بن عباد لهذه الهزيمة حتى هم كعادته أن ينكل بابنه المعتمد ولما بلغ هذا الأخير ما عزم عليه والده من أذايته نظم قصيدة يستعطف فيها أباه:

سكن فؤادك لا تذهب به الفكر   ماذا يعيد عليك البث والحــذر
فإن يكن قدر قد عاق عن وطر   فلا مرد لما يأتي به القـــدر
يا فارسا تحذر الأبطال صولية   صن حد عبدك فهو الصارم الذكر
فالنفس جازعة والعين دامعةوالصوت منخفض والطرف منكسر
لم يأت عبدك ذنبا يستحق به   وهاهو قد ناداك يعتـــــذر[3]
ما الذنب إلا على ذوى دغل وفي لهم عدلك المألوف إذ غدروا[4]

بنـو خـزرون

أصولهم وموطنهم ببلاد المغرب:

1 - ابن خاقان- المصدر السابق- ص21.

2 - نفسه- ص21/ ابن عذاري- ج3 ص275.

3 - يقصد ابن عباد المعتمد في هذا البيت بقوله "قوم ذي دغل" البربر فهو يريد أن يبرئ نفسه من الهزيمة ويلقى تبعاتها على البربر وحدهم وينعتهم بأنهم ذوي غدر ودغل.

4 - ابن خاقان- المصدر السابق- ص21.

يعد بنو خزرون رابع هذه الإمارات البربرية الصغيرة[1] التي انزوت في جنوب الأندلس على إثر الفتنة التي عصفت ببلاد الأندلس وقد يكون من الأليق أن أشير هنا إلى أن بني خزرون لم يقع اختيارهم لمنطقة جنوب الأندلس للاعتبارات التي أشرنا إليها آنفا وهي قرب العدوة المغربية التي يسهل التسلسل إليها عند شعورهم بالخطر وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى كونهم قبيلة صغيرة لا ترقى إلى مصاف القبائل الأخرى ذات الصيت البعيد التي استطاعت أن تشيد إماراتها على عهد ملوك الطوائف وتساهب في صنع الأحداث في منطقة الجنوب مدافعة ومغالبة.

وعليه يمكن القول أن اختيار بنو خزرون لمنطقة الجنوب راجع بالدرجة الأولى إلى وجود القبائل البربرية التي هي في الأصل قبائل زناتية تقاسمت معها ظروف الجواز نحو الأندلس ناهيك عن قرابة العصب التي تجمع بينهما.

لذلك آثر بنو خزرون أن يجدوا موقعا بجانب إخوانهم البربر في منطقة النوب التي اجتذبهم منذ القديم[2] أي منذ العقود الأولى للفتح الإسلامي للأندلس.

وبنو خرون هؤلاء ينسبون إلى قبيلة يرنيان وهم إخوة مغراوة[3] وبني يفرن الزناتيين الذين الحديث عنهم في الفصل الثاني من هذا البحث وبني يرنيان هؤلاء الذين ينتسب إليهم إليهم بني خزرون هم من بطون زناتة المنتشرون في بلاد المغرب[4] وهم إخوة مغراوة وبني يفرن الذين ينتسبون إلى جدهم يصلتين[5].

---

1 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص153.

2 - عبد الواحد ذنون طه- الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس- المدار الإسلامي 2004- ص261.

3 - مغراوة- هم أبناء مغراو بن يصلتين وجدهم الأكبر هو زانا وهم إخوة بني يفرن وبني يرنيان وبني واسين ومن بطون مغراوة (لقواط والأغواط) وبنو ورا وعرفت مغراوة فتنا عديدة وصراعات شديدة بينها وبين الدول المعاصرة لها آنذك بالمغرب الإسلامي مثل الدولة الفاطمية والدولة الصنهاجية بشقيها (الزيرية والحمادية) بالإضافة إلى الحروب الطاحنة بينهم وبين إخوانهم من بني يفرن ولمغراوة مدينة تسمى باسمهم حسب ابن خلدون وكانت رئاسة زناتة لمغراوة ابن خلدون- ج / الميلي مبارك- المرجع السابق- ص581.

4 - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص238.

5 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص66.

وكان بنو يرنيان نبثين في مواطن زناتة وكانت تجمعاتهم على حواف وادي ملوية مجاورين لمكناسة[1] ثم اختلطوا ببني مرين لما ظهرت دولتهم[2] وتعددت بطونهم وأفخاذهم في تلك الجهات وكان منهم بنو وطاط المتوطنون لهذا العهد بالجبال المطلة على وادي الملوية وبهم تعرف تلك القصور لهذا العهد ويصفهم ابن حوقل ضمن القبائل البربرية التي استرسل في ذكرها وهي القبائل البربرية الخارجة من صلب زناتة[3] وفي مقدمتهم قبيلة مغراوة دون أن يذكر أماكن تواجدها[4].

وهي نقطة ضعف في نظري عند ابن حوقل الذي كثيرا ما يذكر أسماء القبائل دون ذكر الجهات التي سكنتها على اعتبار أن كتابه جغرافي ويتعلل ابن حوقل بعدم الخوض في تشريح هذه القبائل بأن العلماء العارفين بأنسابهم أي القبائل البربرية وآثرهم هلكوا اللهم إلا بعض الرسوم التي حصل عليهم من بقاياهم[5] وعرف بنو يرنيان بين أقوامهم أقوامهم بالشجاعة والاستبسال حيث يصفهم ابن خلدون بالصولة والاعتزاز[6].

جوازهم إلى الأندلس:

ونظرا لحسن بلاءهم في الحروب وشدة المراس فيها فقد أجازهم الحكم المستنصر الذي كان قد عدل عن سياسة والده كما أشرت إلى ذلك في الفصل التمهيدي من هذا البحث

---

1 - مكناسة- مدينة أصيلة جانبها مريع وخيرها سريع من كبريات المدن المغربية ذات الماضي العريق تحيط بها السهول وغابات الزيتون اشتهرت بذوبة المياه وجودة المناخ تأسست في القرون الهجرية الأولى في مكان يسمى تكرارات وتوسع عمرانها وتأسست بها عدة حصون ومدارس وأسواق بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو الشرق ومنها إلى فاس مرحلة واحدة ياقوت الحموي- معجم البلدان- دار بيروت للطباعة والنشر- 1984م- ج5 ص181/ الزهري محمد بن أبي بكر- كتاب الجغرافية- تحقيق محمد الحاج صادق- مكتبة الثقافة الدينية- ص115/ ابن الخطيب- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار- تحقيق محمد كمال شبانة- مكتبة الثقافة الدينية- 2002م- ص165.

2 - ابن خلدون-نفسه- ج7 ص66/ الميلي- المرجع السابق- ص583.

3 - أعطى ابن حوقل صورة للقبائل المنحدرة من زناتة في القرن الرابع الهجري وهي تتضمن 144 اسما قبليا وذكره- 1* القبائل الزناتية الخلص(صلب زناتة) 2* القبائل عصبة زناتة 3* القبائل المتحالفة / ابن حوقل- المصدر السابق- ص103.102.

4 - ابن حوقل – صورة الأرض

5 - نفسه- ص103.

6 - نفسه- ج7 ص66.

ثم جاء المنصور بن أبي عامر الذي فتح الباب على مصراعيه واستكثر من البربر للأسباب التي ذكرتها آنفا.

يقول ابن خلدون: "وكان لبني يرنيان هؤلاء صولة واعتزاز وأجاز الحكم المستنصر منهم والمنصور بن أبي عامر من بعده فيمن أجازوه من زناتة في المائة الرابعة وكانوا من أفحل جند الأندلس وأشدهم شوكة"[1].

ومما يدفعني للتساؤل هو كيف أن ابن خلدون لاحق القوى البربرية بقلمه في بلاد المغرب وبعد انتقالها إلى الأندلس كما فعل مع بني برزال وبني يفرن وبني زيري أصحاب غرناطة بيد أنه أحجم عن متابعة بني خزرون حيث لم يذكر أسباب الانتقال ودواعيه مما جعل العديد من المؤرخين المعاصرين يشكون في انتماء بني خزرون إلى بني يرنيان ويرجحون انتمائهم إلى مغراوة[2] ويكتفي ابن خلدون بالإشارة إليهم في عبارة قصيرة في معرض كلامه عن القوى المغربية بجنوب الأندلس: "وكان بشريش[3] خزرون بن عبدون ثار بها سنة اثنتين وأربعمائة فتقبض عليه ابن عباد وطالبهم وطاف على حصونهم وصار بهم وأسجل لهم بالبلاد التي بأيديهم فاسجل لابن نوح بأركش ولابن خزرون بشريش ولابن أبي قرة برندة وصاروا في حربه ووثقوا به"[4].

وفي اعتقادي أن ابن خلدون عزف عن ذكر بني خزرون في الأندلس لشغور حلقة الانتماء لهذه الإمارة أو لخشيته من الوقوع في الالتباس بين كونهم ينتمون إلى مغراوة أو لبني يرنيان.

---

1 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص66.

2 - بوزياني الدراجي- القبائل الأمازيغية- دار الكتاب العربي- 2003 – ج1 ص164.

3 - شريش- من كور شذونة بالأندلس تقع بمحاذاة البحر تعرف بكثرة روعها وبها حصن روطة الذي يقع على شاطئ البحر وكان موضع رباط ومئلا للصالحين من جميع الأقطار وبروطة هذه بئر عز نظيره في بلاد أخرى فكلما اجتمعت إليه المرابطة طغى الماء في البئر ويرتوي الناس باليد من رأس لبئر دون معاناة ولا مشقة وشريش مدينة حصينة الجهات وتكثر بها الكروم الكثيرة وشجرة الزيتون والتين ونبات الحنتة، عبد المنعم الحميري- المصدر السابق- ص340/ ياقوت الحموي- معجم البلدان- دار بيروت للطباعة والنشر- ج3 ص340.

4 - ابن خلدون- نفسه- ج7 ص202.

وبالرغم من أنني أشك في هذا الانتماء إلى بني يرنيان وإلا أنني انضم برأيي المتواضع إلى من نسبهم إلى بني يرنيان إلى أن يثبت العكس وحسب ابن خلدون فإن بني يرنيان انقسموا إلى قسمين.

فقسم منهم قد نزحوا إلى الأندلس أيام حكم المستنصر ثم الحاجب المنصور ابن أبي عامر أما الذين بقوا في مواطنهم فقد بقوا في مكناسة أيام ملكهم ثم كانوا مع مغراوة أيام ملكهم المغرب الأقصى وفي عهد لمتونة والموحدين من بعدهم تفرقوا على وجوههم في وبقي من لا يستطيع ذلك في أحيائهم ورضت عليهم والمغارم والجبايات[1] وظلوا على هذه الحال إلى أن حل بنو مرين بالمغرب فأكرموهم وأقطعوهم الأراضي بضواحي سلا والمعمورة زيادة إلى وطنهم الأول بملوية[2].

جواز بني خزرون نحو الأندلس:

عرف المنتصف الثاني من القرن الرابع الهجري سلسلة من الهجرات البربرية بسبب ما كانت تشهده بلاد المغرب من الحروب الداخلية اضطرتهم للهجرة نحو الأندلس التي كانت ملاذا آمنا للطائفة الزناتية الموالية للمروانيين والمعادية للفاطميين الذين سخروا كامل قواهم من أجل السيطرة على بلاد المغرب ومنازلة المروانيين في عقر دارهم.

وبنو يرنيان هؤلاء الذين من أصلابهم بني خزرون كانوا في مقدمة من نزح إلى الأندلس بعد الغارة الت شنها بلكين بن زيري[3] انتقاما لمقتل أبيه والتمثيل بجثته ثم حز رأسه والدخول بها إلى الأندلس كما أشرت إلى ذلك في الفصل الأول.

ولقد أشار ابن حيان إلى هذه الوفود التي صاحبت يحي بن علي المعروف بالأندلسي في رحلته نحو الأندلس وفيها بعض الأعيان من بني خزرون حيث يقول ابن حيان: "فلما كان يوم الأربعاء لسبع خلون من شوال منها ورد الخبر من الساحل القبلي بحلول يحي بن

1 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص66.

2 - نفسه- ج7 ص66.

3 - ابن حوقل- المصدر السابق- ص93.

علي المعروف بابن الأندلسي بمرسى محملة من عمل بجانة[1] وبحلول رجال بني خزر القادمين بمرسى ألمرية وأن احتلالهم بهذين المرسيين كان يوم الاثنين لخمس خلون من شوال منها وأن رؤساء الواصلين على ألمرية من بني خزر: عبدون بن الخير بن محمد بن خزر ومسعود بن عطية بن عبد الله بن خزر ومقاتل بن أبي خزرون بن أبي العزيز خزر"[2].

ومما سبق نستنتج أن بني خزرون قد شاركوا مشاركة فعالة في الأحداث التي دارت رحاها في بلاد المغرب بين الفاطميين وحلفائهم من صنهاجة من هة والزناتيين من جهة أخرى وذاع صيتهم بين أهل الأندلس لذلك هبوا لاستقبالهم وأوسعوا لهم في التكريم ولقوا حضوة فائقة لدى الحكم المستنصر الذي أعجب بشجاعتهم واستماتتهم في القتال فاستخدمهم في طبقات جنده وعزز صفوف فرق القبائل الزناتية وسائر البررب المجندين من قبل[3].

وعندما اعتلى المنصور بن ابي عامر سدة الحكم تحولت الأندلس إلى منطقة جذب للعناصر البربرية[4]، فدخلوا في خدمته وخدمة ولديه عبد الملك وعبد الرحمن شنجول من بعده[5].

دورهم في الفتنة القرطبية:

كغيرهم من الطوائف البربرية لما نشبت الفتنة القرطبية 399هـ/1008م كان لبني خزرون نصيب منها واكتووا بنارها.

فلما شرع كل متغلب على ناحيته ويستأثر بحكمها خاصة بعد أن رأى هؤلاء الصغار من الملوك الحال الذي آلت إليه قبضة البلاد بقرطبة[6] من الضعف والتفسخ[7] يقول

---

1 - بجانة- من كورة إلبيرة في الأندلس ويكر أن مدينة بجانة كانت قريتين يقال إحداهما بجانة والأخرى مورة وكانتا من عمل أرش اليمن أي نحلتهم وعطيتهم واليمن الذي ينسب إليهم هذا الإقليم غسان ورعين وبقرب بجانة كان جامع الإقليم الأعظم وكانت ملاذا آمنا أيام الفتنة وكانت ألميرة تجلب إليها من العدوة وكان ذلك من الأسباب.

2 -

3 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص73.

4 - دوزي راينهارت- المرجع السابق- ص124.

5 - ابن الآبار- المصدر السابق- ج2 ص274.273.

6 - pierre guichard – andalus 711-1492 – hachette litteratures – page 100.

7 - محمد عبد الفتاح شرف الدين- المرجع السابق- ص199.

ابن الخطيب معلقا على هذا التحول والفوضى التي آلت إليها الأندلس: "فاقتطعوا الأقطار واقتسموا المدائن الكبرى وجبوا العملات والأمصار وجندوا الجنود"[1].

وكان من بين هؤلاء المنتزين الطائفة البربرية التي أقامت إماراتها الصغيرة في جنوب الأندلس للأسباب التي سبقت الإشارة إليها وكان أول من شق عصا الطاعة من بني خزرون وخرج عن الجماعة[2] أبو عبد الله محمد خزرون بن عبدون[3] أمير بني يرنيان الذي الذي ثار بقلسانة[4] calsena إحدى كور شذونة[5] سنة إثنتين وأربعمائة وهي السنة التي بلغت فيها الفتنة القرطبية أوجها واستحكمت حلقاتها[6] بسبب مقتل أحد الشخصيات القيادية من البربر والتمثيل بجثته وتشطيرها ثم أكلها يقول ابن عذاري: "فقاتلوهم وقتلوا من أهل قرطبة عددا كثيرا ثم طعنه أحدهم طعنة تجدل فيها صريعا عن فرسه وهرب عنه أصحابه فأخذ أسيرا فلما عرفوه قتلوه وقطعوه قطعا وتهادو لحمه فأكلوه لما كان أكثر من قتلهم وما جربوه من شجاعته نكاية ولو أنهم عرفوه قبل أخذه ما تجاسر أحد عليه"[7].

لاشك أن مقتل حباسة بن ماكس والتمثيل به كان له ما بعده حيث أدى ذلك إلى التآم الأجزاء البربرية المبعثرة من صنهاجة وزناتة والدخول في مواجهة عنيفة ضد الأندلسيين

1 - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص144.

2 - نفسه- ص239.

3 - أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون- الخزري أمير بني يرنيان الملقب بعماد الدولة ثار بقلسانة عندما اشتد أزر الفتنة في قرطبة وسع من إمارته وضم أركش وكان فتاكا هتاكا قتالا سفاكا للدماء توفي في حدود عشرين وأربعمائة، ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص294.

4 - قلشانة- أيضا بالسين والشين من كور شذونة وهي مدينة سهلية على وادي لكه ويصب فيه على مقربة منها نهر بوطة وموقعه في نهر لكة ولها قصبة مشرفة بغربيها ويفتح بابها إلى القبلة وفي المدينة جامع حسن البناء فيه ست بلاطات بناه الإمام عبد الرحمن بن محمد وقلشانة متوسطة المدن بينها وبين شذونة خمسة وعشرون ميلا، الحميري عبد المنعم- المصدر السابق- ص466/ ابن الخراط الإشبيلي- اقتباس الأنوار في تحقيق إيميليو مولينا وخانثيتو بوسك بيلا- ص183.

5 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص294.

6 - نفسه- ج3 ص294.

7 - نفسه- ج3 ص112.111.

لم يسبق لها مثيل في المواجهات بين البربر والأندلسيين : "وباتو مستعدين –أي البربر- للقتال فلما أصبح قاتلوا أهل قرطبة قتالا شديدا لم يسمع قط بمثله"[1].

فلما أيقن أهل الأندلس أن الحكومة المركزية أصبحت أثرا بعد عين وأنه لا أمل من عودة بني أمية إلى سدة الحكم حينها راح كل متغلب يعلن الاستقلال بما كان في حوزته.

وكان بنو خزرون إحدى الطوائف التي أعلن زعيمها أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزري الاستقلال بقلسانة سنة 402هـ/1011م ثم غلب على أركش واتخذها قاعدة لدولته لموقعها المنيع على وادي لكة[2] وهي أعظم معاقل الأندلس يومئذ فملكها وأحكم قبضته عليها وعرفت الإمارة في عهده استقرارا ورخاء وزاد دخلها من الأموال[3] واستطاع واستطاع أن يدير شؤونها بحزم[4] إلا أنه كان ذا بطش ودهاء والدماء عنده هوان[5] من أجل أجل ذلك خافته وهابه الناس[6].

إلا أن ابن الخطيب يورد وصفا لهذا الأمير يكاد يكون مناقضا لما أورده ابن عذاري من حيث علامته بالرعية: "ومنهم عبدون بن خزرون الرنداجي أمير بني إرنيان وبطونهم من القبائل الزناتية المتغلبين على كورة شذونة لأول الفتنة النازلين بقصبة قلسانة قام بسلطانه وراثة من والده أحد أكابر البرابرة المتآمرين لما خرجوا عن الجماعة وهو متى دمث أنيث ماكر عطل من الفضائل لا تضاف إليه منها خلة صالحة إلا أنه رفق بقومه وأخذ عقولهم فاستقاموا له"[7].

إمارة بني خزرون في عهد عبدون بن خزرون:

ظل عماد الدولة أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزري يسوس شؤون البلاد إلى أن توفي سنة 420هـ/1029م فخلفه ولده عبدون ابن خزرون الذي تقفى سياسة

---

1 - نفسه- ج3 ص112.

2 - وادي لكة- موضع من أرض الجزيرة الخضراء من الساحل الأندلسي القبلي فيه التقى طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ومجموعة من الداخلون الأندلس مع لذريق آخر ملوك القوط/ الحميري عبد المنعم- المصدر السابق- ص605.

3 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص294.

4 - أرزقي محمد فراد- المرجع السابق- ص81.

5 - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص294.

6 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص153.

7 ؟؟؟؟؟؟؟

والده في توسيع إمارته وبايعته البلاد المجاورة لأركش وقلناشة وشريش[1].

إلا أن سياسته الخارجية ظلت متأرجحة بين التأييد للحلف البربري تارة والالتزام بالحياد تارة أخرى.

ففي سنة 439م أقدم ابن خزرون مع أمراء البربر على مبايعة محمد بن القاسم بن حمود الحسني بالخلافة و خطبوا له على المنابر يقول ابن حيان: "وفي سنة تسع و ثلاثين و أربعمائة فيها تجمع رؤساء القبائل من البربر وأمراؤها على البيعة لمحمد بن القاسم بن حمود الحسني[2] وقدموه لخلافة بالجزيرة الخضراء وهم أربعة أمراء إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة ومحمد بن نوح الدمري صاحب مرور وعبدون بن خزرون صاحب أركش وكبيرهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة وأعمالها واستجة[3] وغيرها فبايع جميعهم له بالخلافة وتسمى من الألقاب الخلافية بالمهدي وخطب له جميع هؤلاء الأمراء في بلادهم على المنابر"[4].

إن التفاف جماعة البربر الجنوبيين حول محمد بن القاسم بن حمود كان بهدف التصدي لأمرا بني عباد بإشبيلية الذي أبدوا تصميمهم لتصفية العناصر البربرية في جوب الأندلس والاستيلاء على إماراتهم.

ودرءا لخطر بني عباد اتفق زعماء البربر وعلى رأسهم باديس بن حبوس وإسحاق البرزلي صاحب قرمونة ومحمد بن نوح الدمري صاحب مرور وعبدون بن خزرون صاحب أركش والمظفر محمد بن عبد الله ابن الأفطس[5] صاحب بطليوس وفتح الله بن يحي

---

1 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص294.

2 - محمد بن القاسم بن حمود الحسني- بويع له سنة تسع وثلاثين وأربعمائة بعد أن خلع المستعلي وتسمى بالمهدي ثم تخلى عنه أمراء البربر ورجع خاسئا إلى الجزيرة ومات بعد ذلك بأيام وقيل أنه مات غما وترك نحو ثمانية ذكور ثم تولى أمر الجزيرة ابنه القاسم بن محمد بن القاسم إلا أنه لم يتسم بالخلافة / الضبي بن عميرة- بغية الملتمس- ص42-43.

3 - أستجة- متصلة بأعمال قرطبة وهي مدينة قديمة أزلية منفسحة البطاح كثيرة المرافق وبها ضروب من الفواكه والأزهار ولها أعمال كثيرة تزيد على ألف قرية بين حصون وقرى صغيرة وبروج واشتهرت أستجة بأسواقها العامرة وفنادق كثيرة كما توجد بها آثار قديمة ورسوم تحت الأرض/ الحميري- المصدر السابق- ص53.

4 - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص230.

5 - المظفر محمد بن عبد الله ابن الأفطس- ولي بعد أبيه فاستقامت أموره كان شاعرا أديبا وعالما لبيبا وبطلا شجاعا واشتهر بالتأليف الكبير المسمى بالمظفري ألفه بخاصة نفسه ولم يستعن فيه بأحد من العلماء واحتوى هذا الكتاب على

يحي اليحصبي[1] صاحب لبلة[2] على مواجهة المعتضد بن عباد في عقر داره ومعهم المهدي بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء فنازلوا المعتضد وانتسفوا أرضه وانصرفوا عنه فلم يقض الله لهم ما أرادوا ولم يكن لهم بعد ذلك اجتماع ولا اتفاق[3].

وعندما نقف بإمعان أمام هذا النص الذي أورده كل من ابن عذاري وابن الخطيب تتبين الأسباب الخفية للمجزرة التي ارتكبها المعتضد في حق أمراء البربر والتي يمكن حصرها في مواقف البربر المتقلبة حيث كانوا بالأمس حلفاء لإشبيلية يقول ابن حيان: "وفريق آخر من أملاك الأندلس ... ومن ولاه من الأمراء الأصاغر مثل ابن نوح وابن خزرون وغيرهما يلتفت جميع هؤلاء النمط لعباد المعتضد صاحب إشبيلية وكلهم على دعوته الهشامية"[4].

فلذلك أمعن المعتضد في الإيقاع بهم حين دعاهم لحضور الوليمة التي أعدها لهم وغدر بهم في حمام استعمله لهم على سبيل الكرامة وأطبق عليهم فهلكوا جميعا وقد أشرت إلى ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا البحث ولا بأس أن أشير إلى الحادثة التي ذكرها ابن خلدون بإيجاز حيث قال: "ثم استدعاهم لوليمة وغدر بهم في حمام استعمله لهم على سبيل الكرامة وأطبق عليهم فهلكوا جميعا إلا ابن نوح فإنه سالمله من بينهم لليد التي كانت له عنده في مثلها ثم بعث من تسلم معاقلهم وصارت في أعماله"[5].

الأخبار والسير والآداب المتخيرة والطرف المستملحة والنكت البديعة والغرائب واللغات الغريبة لا يوجد لهذا المؤلف نظير جاء نحو خمسين مجلد وكانت له حروب ومهادنات/ ابن عذاري- ج3 ص237.

1 - فتح الله بن يحي اليحصبي- بويع له قبل خروج عمه من لبلة فاستقامت حاله سالم المعتضد على مال يوديه إليه كل سنة فانقض عليه المعتضد وحاصره بالحرب وجرت بينهما حروب كانت الدائرة فيها على ابن يحي إلى أن ضاق ذرعا بالمعتضد فخرج من لبلة وسلمها له/ ابن عذاري- ج3 ص301.

2 - لبلة تقع في غرب الأندلس وهي مدينة قديمة وتعرف بالحمراء وتحتوي على آثار كثيرة وهي مدينة جميلة متوسطة القدر ويخترقها نهر عليه قنطرة يجاز عبرها إلى لبلة وبها أسواق وأنشطة تجارية/ الحميري عبد المنعم- المصدر السابق- ص508.

3 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص229-230/ ابن الخطيب- المصدر السابق- ص142.

4 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص219-220.

5 - ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص200.

إن ظاهرة التحالف عند البربر وتذبذبهم ظلت تؤرق المعتضد وخاصة عندما هددوا هذا الأخير في عقر داره فلم يكن المعتضد لينسى صنيعهم فظل يبحث عن الفرص للإيقاع بهم إلى أن كانت حادثة الحمام والتي كانت فيها نهاية عبدون بن خزرون 445هـ/1053م.

وقد صور ابن بسام نهاية ابن زرون المأساوية تصوير لاذعا لم يتحفظ في شخصه عندما وصفه بالخيانة والسذاجة التي قادته إلى حتفه حيث لم يكن مدعوا لهذه المأدبة : "وتطفل عليهما الخائن ابن خزرون المنتزي كان وقته بأركش فلله أبوه من وافد لم تجه الوفادة وواها له من قتيل لم يحل بطائل الشهادة فجرع الكل الحتوف وحكم في عامتهم السيوف"[1] وبات البربر في كل ناحية من منطقة الجنوب على وجل بسبب إقدام ابن عباد على هذا الفعل الشنيع حتى بات البعض منهم في وهرته ومن رجالاته[2].

الإمارة في عهد محمد بن خزرون ونهاية بني خزرون:

ولم يبق له معاند سوى بني يرنيان أصحاب شذونة وأركش المنصوبين تحت أميرهم الجديد أخيه محمد بن خزرون الذي تولى شؤون الإمارة بعد أخيه المغدور به في إشبيلية.

وكان هو أي –محمد بن خزرون القائم- لحسن طالعه تخلف عن الوليمة المشؤومة التي تجرعها إخوانه من البربر.

وظل المعتضد منكسر الخاطر يضرب أخماسه بأسداسه ويرتب الفرص التي قد تمكنه من الاستيلاء على هذه المنطقة التي تجاوره في الجنوب الشرقي وتفصله عن إمارة رندة وهي التي كان يطمع في ضمها فانبرى للإغارة عليها وتخريب مزارعها وإرهاقها بكل الوسائل.

ولكي ينجح في مسعاه بنى حصنا متقدما على مقربة من أركش[3] وأمد الحصن بالمقاتلين وشدد المضايقة بطريقة منظمة كما فرض المراقبة على جميع التحركات داخل المدينة وخارجها وسد المنافذ وأخذ رجاله يغيرون انطلاقا من هذه الحصون[4] كل ذلك

1 - ابن بسام الشنتريني- محمد عبد الله عنان- نفسه- ص154- ج2 ص20.

2 - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص271-272.

3 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص272/ محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص154.

4 - مريم قاسم طويل- مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر- دار الكتب العلمية- ص141.

والائم ماضي في الذوذ عن حياض أركش ينافح عنها ما استطاع[1] فلما أيقن القائم أنه لا جدوى من مشاكسة خصم عنيد آثر أن يلجأ إلى حليف الأمس باديس بن حبوس صاحب غرناطة ومالقة وأعمالها واتفق معه على أن يطيه قلعة أركش وسائر البلاد التي تحت حكمه مقابل أن يتنازل لهم على أرض من بلاده ينزلون بها ويأوون إليها تحت كنفه فاستحسن باديس هذا العرض وبعث بقوة عسكرية ضخمة وأقلعت نحو أركش لضمان حماية الجلاء[2].

وتحت حماية جيش باديس غادر بني يرنيان أركش بمعية عيالهم ومتاعهم وأموالهم قاصدين أرض غرناطة فكانت جملة دوابهم التي عليهم أحمالهم نحو الخمسمائة وكانت تصحبهم في هذه الرحلة ثلة من بربر بني برزال[3] مما يستنتج أن بني برزال الذين استسلمت إمارتهم من قبل لم تكن وجهتهم غرناطة فحسب كما أشرت إلى ذلك في الفصل الذي تناولت فيه دولة بني برزال بل اعتصموا أيضا بالإمارات المجاورة ومنها أركش قلعة بني خزرون.

ومما يجعلني أتساءل باستغراب وهو كيف أن بني خزرون آثروا المبارحة على البقاء بهذه السهولة من موطنهم الذي ترعرعوا فيه طيلة نصف قرن من الزمن وفي اعتقادي أنه إذا كان لهذا التساؤل من تفسير فإنه لا يخرج عن هذه الفرضيات:

- انكسار معنوياتهم بعد سقوط الإمارات البربرية المجاورة في يد المعتضد
- الحصار المضروب على أركش دون وجود قوة بربرية يستنجد بها.
- عدم تكافؤ القوى المادية والبشرية بين الطرفين.

ومهما كانت حيثيات الاستسلام فإن بني خزرون غادروا موطنهم نحو المجهول وما كادت قافلتهم تبتعد عن القلعة حتى خرجت قوات المعتضد من كمائنها بفحص شلب[4] ونشبت بين الفريقين معركة دامية غير متكافئة خاصة أن بني خزرون كانوا يجرون ذيلا

1 - محمد عبد الله عنان- نفسه- ص154.

2 - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص272.

3 - نفسه- ج3 ص272.

4 - شلب- قاعدة كورة أكشونبة وبها جبل عظيم كثير المنابع ينبت فيه شجر التفاح العجيب ومدينة شلب حسنة الهيئة بديعة البناء مرتبة الأسواق وأهلها وسكانها من عرب اليمن وهم فصحاء يقرضوه الشعر وهم غاية في الكرم لا يدانهم فيه أحد/ الحميري- المصدر السابق- ص342.

ثقيلا فيه متاعهم وحريمهم وأموالهم[1] هذا فضلا عن معنوياتهم المحطمة كما أشرت وخواطرهم المنكسرة على مغادرة وطنهم.

فوقعت المعركة وتقاتل الطرفان ومال جيش المعتضد على بني خزرون ميلة واحدة ولم يكن لبني خزرون من ملاذ سوى ربوية كانت بمحاذاتهم فارموا في شعابها والقوا برحالهم إلى انبلاج الصبح لتتجدد المعركة وخرجت قوات ابن عباد من كمائنها وهم يقرعون طبول الحرب ويلوحون بسيوفهم يقول ابن عذاري: "فوقعت الحرب بينهم ولجأ البربر إلى ربوة كانت قريبة منهم وخطوا أثقالهم إلى الصباح ثم وقعت الحرب بينهم وكان عباد قد كمن لهم كمينا فلما حميت الحرب خرج عليهم الكمين وطبوله هادرة وأعلامه خافقة وخيله متناسقة"، فلما تراء الطرفان ظن بنو خزرون أنه قد أحيط بهم وأنهم لا محالة منهزمون أصيبوا بالأرجاف وضعفت عزامئهم إلا أنهم صابروا ودافعوا عن حريمهم وأموالهم حتى أشرف القتل على نهايتهم[2] ومزقوا شر ممزق[3].

وقتل في أول المواجهة محمد بن خزرون الذي كان يتصدر صفوف قومه وكان قبل مصرعه لما شعر بالهلاك أمر غلامه بقتل امرأته التي كانت بهية الحسن لطيفة المحل من قلبه[4] فصوب الغلام نحوها رمحه فأرداها قتيلة وكذلك فعل مع أخته وفي رأيي أن محمد بن خزرون لجأ إلى هذا التصرف حتى لا يمكن المعتضد من العبث بحريمه وهو يعلم شخصية المعتضد الذي كثيرا ما كان يلجأ إلى هذه الطرق الخسيسة في الانتقام بأعدائه.

كما قتل في هذه المعركة قائد باديس الذي أرسله هذا الأخير لتغطية الجلاء وعلى ما يبدو فإن المعتضد عندما ظفر بالأمير محمد بن خزرون وقائده باديس دفع السيف عن البقية وترك فلولهم دون مطاردة[5] وذلك في آخر يوم من سنة ثمان وخمسين وأربعمائة[6].

1 - ابن الخطيب- المصدر السابق- ص240.

2 - ابن عذاري- المصدر نفسه- ج3 ص273.

3 - محمد عبد الله عنان- المرجع السابق- ص154.

4 - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص273.

5 - محمد عبد الله عنان- نفسه- ص154.

6 - ابن عذاري- نفسه- ج3 ص273.

ودخل ابن عباد قلعة أركش واستولى على سائر البلاد التابعة لها وامتدت أطماعه إلى أقصى بلاد غرب الأندلس وأعمل السيف في جموع البرابرة واستأصل شأفتهم[1].

إلا أن ابن عذاري يورد خبرا آخر حول نهاية ابن خزرون مناقضا لما أورده في موضع آخر.

مما يجعلني أشك في الذيل[2] الذي أضافه ليفي برفنسال ونسبه إلى ابن عذاري وضمنه كتابه حيث أنني أستبعد أن يقع ابن عذاري في مثل هذا التناقض الصارخ اللهم إلا إذا كان ابن عذاري قد عدل عن هذا السفر الذي ظل محفوظا طوال هذه المدة وأضيف إلى كتابه الأم.

ومما جاء في الذيل أن محمد بن خزرون غزي في عقر داره وأنهبت ممتلكاته وكان ذلك سنة إحدى وستين وأربعمائة ومما جاء مفصلا.

: "فلم يزل ملكها إلى أن غزاه أبو عمرو المعتضد بن عباد فسلبه ملك بلاده بعد قتال شديد مات فيه خلق وذهبت فيه أموال ثم حاصره بأركش وضايقه مضايقة شديدة إلى أن خذله أصحابه فغلب عليه المعتضد فافتض ملكه وعجل هلكه وذلك في سنة إحدى وستين وأربعمائة فكانت دولته ودولة أبيه ستا وخمسين لسنة وانقرضت دولتهما والبقاء لله تعالى"[3].

وهكذا اختفت دولة بنو خزرون وأفل نجمها كما أفلت مثيلاتها من الإمارات البربرية الصغيرة والتهمها بنو عباد وضمت كلها تباعا إلى مملكة إشبيلية القوية آنذاك وذلك خلال أعوام متقاربة رندة في سنة 457هـ ومرور سنة 458هـ وقرمونة سنة 459هـ وأركش في سنة 461هـ .

وترتب عن سقوط هذه الإمارات البربرية في يد المعتضد بن عباد استياء لدى بقية البربر وفي مقدمتهم باديس بن حبوس فانبرى لمواجهة بني عباد محاولة منه لإيقاف زحفهم على المناطق البربرية.

---

1 - ابن الخطيب- ص240.

2 - يشتمل على نص بعض أوراق من تأريخ مبتور الأول والآخر ومجهول الاسم والمؤلف في أخبار دول ملوك الطوائف بجزيرة الأندلس.

3 - ابن عذاري- المصدر السابق- ج3 ص294.

فانحشد لهذه المهمة عشائر البربر واستفرهم لإنقاذ الموقف إلا أنه أخفق في استفارهم وتحريضهم على القتال وانضم إليه البربر من بني يفرن وبني دمر وبني خزرون ولكن بمعنويات فاترة وعجز ظاهر.

فآثر السير نحو موطنهم الأصلي يقول ابن خلدون: "وخرج باديس لطلب ثأرهم منه واجتمعت إليه عشائرهم فنازلوه مدة ثم انصرفوا"[1].

وعندما نزلوا أرضهم بالعدوة الجنوبية لم تكن بأحسن حال من تلك التي حلفوها وراءهم بأرض الأندلس فبعد مكوثهم بمدينة سبتة مدة يسيرة ضاق بهم سقوت البرغواطي وأظهر عدم رغبته فيهم وطردهم من مملكته فتاهوا على وجوههم فهلكوا في المجاعة التي صادفوا وأحلوا بالمغرب لذلك العهد[2].

وفي اعتقادي أن هذه الفلول المتبقية من بربر الإمارات الصغرى والتي فضلت النزوح نحو مواطنهم الأصلية كان ذلك بسبب انكسار مشاعرهم كونهم عجزوا عن التوحد أمام الغارات العبادية التي استهدفت كيانهم من جهة ومن جهة أخرى فقدانهم لأوطانهم وأعزائهم من الذين جندلت رؤوسهم على أيدي بني عباد اللخميين.

---

1 - ابن خلدون- ج4 ص202.

2 - نفسه- ج4 ص202/ رضوان البارودي- المرجع السابق- ص285.

الخاتمــــــــة

الخاتمـــــــة

بعد الدراسة لموضوع الإمارات البربرية الصغرى في جنوب الأندلس على عهد ملوك الطوائف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي تمكنت من الوصول إلى النتائج التالية:

1* بعد سقوط الخلافة في الأندلس وصلت البلاد إلى أقصى درجات التمزق والانفصال وإلى أبعد حدود اللامركزية وتحولت الأقاليم الأندلسية إلى مناطق نفوذ مستقلة منعزلة يغلب عليها طابع التكتلات العرقية وعلى الرغم من أن الآثرة والأهواء الشخصية كانت وراء بعض التحالفات السياسية بين الطائفتين كعلاقة القاضي محمد بن عباد صاحب إشبيلية بمحمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة هذه العلاقة التي تبين فيما بعد أنها كانت تحركها المصلحة الشخصية والجشع الفردي لرؤساء هذه الإمارات إلا أنني وبعد الدراسة المتأنية توصلت إلى أن المحرك الرئيسي والفعال للصراعات القائمة بينهم أي بين البربر والأندلسيين هو عامل الانتماء العرقي.

وخير مثال على ذلك هو ما عزم عليه باديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة على استأصال الأندلسيين من رعيته بعد أن بلغه فتك المعتضد بن عباد بأبي نصر فتوح بن أبي قرة اليفرني صاحب رندة وكذلك الانتقام لبني دمر وبني خزرون وبني يفرن بعد سقوط إمارتهم على يد المعتضد.

2* كانت العناصر البربرية من بني برزال وبني يفرن وبني دمر وبني خزرون من الفئات المحورية في الفتنة القرطبية واعترافا لهم بالجميل أقدم المستعين على مكافئتهم بالتنازل لهم عن هذه المقاطعات في جنوب الأندلس الأمر الذي زاد في هوة الخلاف بين الطائفتين الأندلسية بزعامة بني عباد والطائفة البربرية بزعامة بني زيري في غرناطة وأدى ذلك إلى التطامن بينهم إلى أن انتهى بالتهام بني عباد لهذه الإمارات البربرية في جنوب الأندلس رندة 458هـ/1064م واستيلائه على مرور 458هـ/1066م وقرمونة عام 459هـ/1067م وأركش عام 461هـ/1068م وبعد أفول نجم هذه الإمارات لم يبق سوى دولة بني زيري بغرناطة.

3* لم يتخلص البربر من الخلافات التي كانت بين أسلافهم في بلاد المغرب بين صنهاجة الموالية للفاطميين وزناتة الموالية للمروانيين بل حملوها إلى الأندلس واستحالت كل محاولة في تكوين جبهة واحدة للوقوف في وجه بني عباد الذين كانوا يرومون القضاء على البربر في منطقة الجنوب.

فعلى سبيل المثال فشل بنو زيري في إقناع بني برزال في الدخول في الحلف البربري المحارب لبني عباد وبالرغم من الإهانة التي لحقت بأمراء البربر حين استدعاهم المعتضد ثم قتلهم بطريقة بشعة في حادثة الحمام إلا أن ذلك لم يدفعهم إلى التوحد والانضواء تحت لواء دولة بربرية قوية على شاكلة بني زيري.

ومهما يكن من أمر فإن البربر وغيرهم من الإمارات الإسلامية بالأندلس قد استنفذوا طاقاتهم في معارك هامشية عادت إليهم بالعواقب الوخيمة التي انتهت بزوال المسلمين من الأندلس.

4* خلو هذه الإمارات البربرية من المساهمات الحضارية حيث شحت تربة إمارتها من ثمرات الحضارة والإسهامات الفكرية على العكس من مثيلاتها من الإمارات الأخرى التي أبدعت في لجح الاضطرابات والصراعات الطائفية.

5* أن سقوط الإمارات البربرية في جنوب الأندلس في فترة زمنية متقاربة في العقد السادس من القرن الخامس الهجري يوحي بجملة من الاستنتاجات أوجزها فيما يلي:

- قوة الأسرة الحاكمة في إشبيلية وتماسك جبهتها الداخلية وإيمانها بوجودها كأسرة حاكمة عريقة تتمتع بشرعية تاريخية تؤهلها لإرادة هذه الإمارة.

- ضعف الأسرة الحاكمة وتفكك جبهاتها الداخلية كما في قرمونة ورندة

- قيام الإمارات على النعررة العصبية والقبلية التي لم تعد قادرة على التحريض واستجماع القوى المبعثرة.

- الهزائم المتلاحقة التي منيت بها هذه الإمارات منفردة ومجتمعة أمام جيش بني عباد.

- إن الملاحظة الأساسية التي ظلت مرتسمة في ذهني منذ أن شرعت في التقميش لهذا الموضوع واستقراء النصوص في ثنايا المصادر وهي لجوء الطائفة البربرية إلى

المنطقة الجنوبية من الأندلس وتأسيس أغلبية الإمارات إنما كان ذلك بدافع القلق الاجتماعي وتفشي الاضطرابات المنبعثة من رحم الفتنة ثم العنف الذي مارسه محمد بن هشام بن عبد الجبار مستعينا في ذلك بالسوقة والإغفال من سفلة القوم مع البربر قد دفع إلى تلك التشجنات التي أفضت بهم إلى التعصب لبعضهم البعض والانحياز نحو الجنوب واستطاع البربر بفضل هذا الانزواء من تكوين جبهة دفاعية تحصنوا خلفها وليس هذا فحسب بل أعلنوا تمردهم على الخلافة في قرطبة وجاهروا بعدم الانقياد وأعلنوا الاستقلال عنها وقاموا بتأسيس دويلات مستقلة ثم خلف من بعد هؤلاء خلف أهدروا هذه التضحيات الجسام التي دفعها أسلافهم في سبيل تكوين هذه الإمارات التي وقتههم تبعات الفتنة القرطبية لعقود من الزمن.

المصـــــادر والمراجـــع

الملاحـــــــق

جدول بأسماء أمراء الإمارات البربرية الصغرى

في جنوب الأندلس

الإمارات البربرية	أسماء الأمراء	فتـرة الحكــــــــم	
		الهجري	الميلادي
إمارة بني برزال	* محمد بن عبد الله بن برزال	404 * 434هـ	1013 * 1042م
	* عزيز بن محمد المستنظر	434 * 459هـ	1042 * 1067م
إمارة بني دمر	* نوح بن أبي تزيري الدمر	403 * 433هـ	1013 * 1041م
	* محمد بن نوح عز الدولة	433 * 445هـ	1041 * 1053م
	* مناد بن محمد عماد الدولة	445 * 458هـ	1053 * 1066م
دولة بني خزرون	* محمد بن خزرون عماد الدولة	402 * 420هـ	1011 * 1029م
	* عبدون بن محمد بن خزرون	420 * 445هـ	1029 * 1053م
	* محمد بن محمد بن خزرون القائم	445 * 461هـ	1053 * 1068م
دولة بني يفرن	* هلال بن أبي قرة اليفرني	406 * 445هـ	1015 * 1053م
	* باديس بن هلال	445 * 449هـ	1053 * 1057م
	* أبو نصر فتوح بن هلال	449 * 457هـ	1057 * 1065م

* نقلا عن دول الطوائف / محمد عبد الله عنان- ص434،435.

سقــــوط الإمارات البربــــرية بالأندلـــس

أسماء الإمارات	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
1. إمارة بني حمود	449 هـ	1057م
2. إمارة بني برزال	459 هـ	1067م
3. إمارة بن دمر	457 هـ	1066م
4. إمارة بني يفرن	457 هـ	1065م
5. إمارة بن خزرون	461 هـ	1068م
6. إمارة بني ذي النون	478 هـ	1085م
7. إمارة غرناطة	483 هـ	1090م
8. إمارة بطليوس	487 هـ	1094م

عمر بوخاري

بعض أساليب المعتضد بن عباد للاستيلاء على إمارة قرمونة

كان له عين بقرمونة يكتب له بأخبار البربر بلغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذي جعله عينا له بقرمونة كتابا في بعض أمره أن استدعى رجلا من بادية إشبيلية شديد البله كثير الغفلة وقال له: "اخلع ثيابك" وألبسه جبة جعل في جيبها كتابا وخاط عليه، وقال له: "اخرج إلى قرمونة فإذا وصلت بقربها فاجمع حزمة حطب وادخل بها البلد وقف حيث يقف أصحاب الحطب ولا تبعها إلا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم" وكان قد قرر هذا كله مع صاحبه الذي بقرمونة فخرج البدوي كما أمره المعتضد فلما قرب من قرمونة جمع حزمة من الحطب ولم يكن قبل هذا يعاني جمعه فجمع حزمة صغيرة ودخل بها البلد ووقف في موقف الحطابين فجعل الناس يمرون عليه ويسومون منه حزمته فإذا قال لا أبيعها بخمسة دراهم ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه فلم يزل كذلك إلى أن أجنه الليل والناس يسخرون منه فبعضهم يقول هذا آبونس ويقول الآخر لا بل هو عود هندي وما أشبه ذلك حتى مر به صاحب المعتضد فقال له: بكم تبيع حزمتك هذه فقال بخمسة دراهم فقال قد اشتريتها فاحملها إلى البيت فقام يحملها والرجل بين يديه حتى بلغ بيته فوضع الحزمة ودفع إليه الخمسة الدراهم فلما أخذها وهم بالانصراف قال له أين تريد في هذا الوقت وقد علمت خوف الطريق فبت الليلة عندي فإذا أصبحت رجعت إلى منزلك فأجابه فأدخله البيت وقدم له طعاما وسأله كأنه لا يعرفه من أين أنت فقال: أنا من بادية إشبيلية قال يا أخي ما الذي جاء بك إلى هذا الموضع وقد علمت نكد البربر وشؤمهم وهو أن الدماء عليهم فقال: حملتني على هذه الحاجة ولم يظهر له أن المعتضد أرسله فلم يزل الرجل يحادثه غلى أن أخذه النوم فلما رأى غلبة النوم عليه قال له تجرد من ثوبك هذا فهو أهنأ لنومك وأروح لجسمك فتجرد الرجل ونام وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتق جيبها واستخرج الكتاب وقرأه وكتب جوابه وجعله في بيت الجبة وخاط عليه كما كان فلما أصبح الرجل لبس جبته ورجع إلى إشبيلية وقصد باب دار الإمارة واستأذن فأدخل على المعتضد فقال له اخلع تلك الجبة وكساه ثيابا حسنا فرح بها البدوي وخرج من عنده فرحا يرى أنه د خلع عليه ولم يعلم فيم ذهب ولا بم جاء وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقرأه وتمم ما أراد من أمره.

وله في تدبير ملكه وإحكام أمره حيل وآراء عجيبة لم يسبق إلى أكثرها يطول تعدادها ويخرج عن حد التلخيص بسطها[1].

قصيدة ألقاها الشاعر الأندلسي ابن عمار بمناسبة انتصار المعتضد على جيش المتحالفين عبد الله البرزالي وباديس بن حبوس:

ألا للمعالي ومـــــــا تبدي   وفـــــي الله ما تخفيه عنا وما تبدي

[1] - عبد الواحد المراكشي- المعجب في تلخيص أخبار المغرب- ص75.

نوال كما اخضر العذار وفتكـــه كما خجلت من دونه صفحة الخـــد
جنيت ثمار النصر طيبة الجنـــى ولا شجر غير المثقفة الملـــــد
وقلدت أجياد الربى رايق أحلـــى ولا درر غير المطهمة الجـــرد
نجوم سماء الحرب أن يدج ليلهـا يدربهم أفواجها فلك السعـــــد
خميس تردى من بنيك بمرهــف حكاك كما قد الشراك من الجلــــد
ببدر ولكن من مطالعة الوغـــى وليث ولكن من براثنه الهنـــدي
فتى ثقف بين الحمائل مقـــدم جنى الموت في كفيه أحلى من الشهـد
سقيت به دينا عفاتك مخصـــبا فاجناك من روض الندى زهر الحمـد
وجندته نحو الملوك محاربـــا فوافاك يقتاد الملوك من الجنـــد
درب ظلام سار فيه إلى العـــدى ولا نجم إلا ما تطلع من غمـــد
اطل على قرمونة متبلجـــــا مع الصبح حتى قليل كان على وعـد
فأرملها بالسيف ثم أعارهـــــا من النار أثواب الحداد على الفــقد
فيا حسن ذاك السيف في راحة الندى ويا برد تلك النار في كبد المـــجد
يهودا وكانت بربرا فانتض الضبـى وأنبأهم منها بالسند لـــــــد
أقول وقد نادى أبو اسحاق قومـه لأرضك يرتاد المنية من بعـــدي
لقد سلكت نهر السبيل إلــى الردى ضبآء دنت من غابـــة الأسد الورد
كأني ببابديس وقد حط رحلـــه إلى الفرس الطاوي عن الفرس النهدي
إلى الفرس الجاري بعد طلق الردى سريعا غنيا عن لجام وعن لبــــد
يحن إلى غرناطة فوق متنـــه بروقا لها من عودها ضجة الرعــد
ظفرت بهم فارتح وأومض كؤسها بروقا لها من عودها ضجة الرعــد
معتقة أهدت إلى الورد لونهـــا وجـــادت رياها على العنبر الورد
فأكثر ما يلهيك عن كاسها الوغـى وعن نغمات العود نغمة مستجـــد
وما الملك إلا حلية بك حسنهـــا وإلا فما فضل السوار بلا زنـــد
ولا عجب أن لم يدن بك مـــارق فليس جمال الشمس في الأعين الرمد
تحلت من السيف الخضيب بصفحة وقامت من الرمح الطويل على قـد

ودونكما من نسج فكري حـــلة مطرزة العطفين بالشكر والحمـــد
ألذ من الماء القراح على الصـدي وأطيب من وصل الهوى عقب الصد
وما هذه الأشعار إلا مجامـــر تضوع فيها للندى قطع النــــد
وكنت نثرت الفضل في وإنمـــا نثــرت سقيط الطل في ورق الورد
وهـــا أنا باغ من نداك بقدر ما يضاف لتاميــلي ويعزى إلى ودي
فاقسم لو قسمت جودك بيننـــــا على قدر التاميل فزت به وحــدي
قنعت بما عندي من النعم التـــي يفسرها قولي قنعت بما عنـــدي[1]

[1] - الفتح بن خاقان – قلائد العقيان في محاسن الأعيان – دار الكتب الوطنية – ص98-99-100.